سان كلير تيسدال

المصادر الأصلية للقرآن

ترجمة
عادل جاسم

منشورات الجمل

سان كلير تيسدال: المصادر الأصلية للقرآن

سان كلير تيسدال

المصادر الأصلية للقرآن

ترجمة

عادل جاسم

منشورات الجمل

سان كلير تيسدال: المصادر الأصلية للقرآن

ترجمة: عادل جاسم

W. ST. CLAIR TISDALL: THE ORIGINAL SOURCES OF THE QUR'AN

الطبعة الأولى ٢٠١٩

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى:

السير وليم موير

حامل وسام نجمة الهند للفرسان

ورئيس جامعة أدنبره

تعبيراً متواضعاً عن الاحترام والتقدير.

مقدمة

العمل الذي نقدِّمه هنا للدارس في علم الأديان المقارن هو خلاصة دراسة استغرقت العديد من السنوات لمختلف الأديان الشرقية القديمة والحديثة. وباستثناء الفصل الرابع، الذي استفدت فيه كثيراً من أطروحة الحاخام «إبراهام جيجر» «ما الذي أخذه محمَّد من اليهودية؟» فأنني لست مديناً إلى حد كبيرٍ للأشخاص الآخرين الذين عملوا في المجال نفسه. ومع هذا فحيثما كنت أشعر بأيِّ فضل من هذا النوع، فإنني عمدت للإشارة له بشكل واضح سواء في النصِّ أو الهوامش.

لن يكون التحقيق في المصادر التي انبثق منها الإسلام، ذا قيمة مهمة، ما لم يستند إلى دراسة خاصة ودقيقة وشاملة لمختلف الروايات في المدونات القديمة. وأعتقد أن هذا ما يمكنني أن أدعي أنني فعلته بأمانة، فكل الترجمات التي قدمتها، من جميع لغاتها الأصلية هي ترجمة ذاتية محضة، باستثناء مقطع أو اثنين من المقاطع بالصينية، وهي اللغة التي لم أدرسها بإتقان. الترجمات التي قدَّمتها جاءت في معظم الحالات حرفية إلى حد ما، وفي بعض الحالات جاءت حرفية تماماً لتبدو منسجمة ورشيقة. ولكن يبدو لي من الضروري، أن تكون دقيقة، توخياً للأمانة، ومن أجل جعل القارئ في وضع يمكنه أن يحكم بنفسه على صحة أو عدم صحة أي من حججي. فقد أوردت المقاطع بلغتها

الأصلية من مصادرها الأصلية إلى جانب المقاطع المترجمة منها في كل موضوع من الموضوعات التي ناقشتها.

أما فيما يتعلق بكتابة الحروف بالنسبة للأسماء العربية فقد استخدمت نظاماً دقيقاً لنقل هذه الحروف (باستثناء ما يتعلق بمدينتي مكة والمدينة) بيد أن هذه الأسماء لا تحتاج إلى هذا التفسير بالنسبة إلى العارفين باللغة العربية.

كما أن من المهم أن أشير إلى بحث رصينٍ نقَّبَ في حفريات الموضوع نفسه وظهر باللغة الفارسية في عام ١٩٠٠ تحت عنوان: «يا نبيَّ الإسلام»(١). وقد تم استعراضه وتقييمه بشكل إيجابي جداً من قبل الباحث المخضرم السير «وليم موير» الذي يدين جميع الدراسين لتاريخ الإسلام لأعماله البارعة عن حياة محمد وخلفائه، وقد تمَّتْ ترجمة العمل في ذلك الحين إلى الأوردية والعربية. كما نشر السير «وليم موير» خلاصة للبحث بالإنكليزية في كتاب صغير، بيد أنَّ العمل الحالي هو حصيلة مزيد من الدراسة في هذا الجانب، وقد كتبته بناء على دعوة العديد من الأصدقاء، الذين رغبوا أن تتمَّ معالجة الموضوع كله من وجهة النظر الإنجليزية، وهو الأمر الذي لم يكن مرغوباً فيه، في المرة الأولى، عندما عالجته في اللسان الشرقي، وبالتالي من وجهة النظر الشرقية.

W.S.C.T

القرن التاسع عشر ـ شهر ديسمبر ١٩٠٠

(١) عنوان الكتاب ليس هو ذات المقالة القصيرة التي وصفتها وشرحتها في ص١٧٦.

الفصل الأول:

المصادر الأصلية للقرآن

استهلال

ثمة الكثير من الحقيقة في القول المأثور للفيلسوف الإغريقي ديموقريطس أن «لا شيء ينشأ من لا شيء» ودين محمَّد أو الإسلام، كما يسميه أتباعه، ليس استثناء لهذه القاعدة بالتأكيد. كما أن الدور المهم الذي لعبه هذا الدين إيجاباً أو سلباً في تاريخ الجنس البشري وتأثيراته الكبيرة التي لا تزال متواصلة في العديد من البلدان الشرقية يجعل التحقيق في أصله مهماً وذا فائدة للجميع، سواء من الناحية الدينية، أو التاريخية، أو من وجهة نظر فلسفية، أو لمجرد الرغبة في دراسة إحدى الحركات الأكثر أهمية في تاريخ الجنس البشري.

جهود كتاب أمثال «شبرنغر» و«ويل» في ألمانيا، والسير «وليم موير» في انكلترا تمكننا من معرفة كل ما نحتاجه فيما يتعلق بحياة محمد وشخصيته وتاريخ العالم المحمدي. وبناء على هذا الأمر، فليس من الضروري بالنسبة لنا هنا الاتفاق معها. ولا مع الوعي الشائع، لدى المحمديين الذين يدعون أنهم يستمدون دينهم مباشرة من محمد نفسه.

فهم يؤكدون أنه آخر الأنبياء وأعظمهم، وأن دينهم يقوم على القرآن

الذي يحتوي على الوحي الإلهي الذي كلَّفه بتبليغ البشر، وبالإضافة إلى هذا يعلِّقون أهمية كبيرة على ما يسمونه «الأحاديث الصحيحة» الصادرة شفاهياً على لسان نبيهم من خلال سلسلة طويلة من أصحابه وتابعيه، والتي لم يجر تدوينها كتابياً إلا في أوقات متأخرة لاحقة. هذان المصدران: القرآن والأحاديث يشكِّلان، معاً، أساس الإسلام. كما أن ثمة أهمية كبيرة أخرى يوليها المسلمون اهتمامهم، تتعلَّق بالمفسرين الأوائل للقرآن، والاستدلالات المستنبطة منه على يد الفقهاء الأوائل وعلماء الشريعة[1]. ولكننا في تقصينا عن أصل المعتقدات والممارسات الإسلامية، غير معنيين كثيراً بهذه الأخيرة، إلا بقدر ما نلقي من خلالها الضوء على حقيقة ما يؤمن به المسلمون. ورغم أن ثمة دوراً للأحاديث نفسها إلا أن هذا الدور سيكون ثانوياً في تحقيقنا، ذلك أن قوَّة اقناعها غير موثوقة تماماً ـ على الأقل بالنسبة لنا نحن الأوربيين ـ. فطوائف المحمديين متنوِّعة، ولديها، كذلك، فهم متفاوت للأحاديث[2]: بل أن

---

(١) التفسير بالإجماع والقياس وهي مصادر أخرى للشريعة[م].

(٢) تلك المقبولة من قبل السنة هي: (١) «الموطأ» لمالك بن أنس (٢) «صحيح البخاري» (٣) «صحيح» مسلم (٤) «سُنن» أبي داود سليمان (٥) «الجامع» للترمذي (٦) «السنن» لمحمد بن يزيد بن ماجة القزويني. الشيعة على الجانب الآخر، لا يقبلون أية أحاديث بوصفها موثوقة باستثناء الأحاديث الواردة في ما يلي من كتب: (١) «الكافي» لأبي جعفر محمد (٣٢٩ هـ)، و(٢) «من لا يحضره الفقيه» للشيخ علي» [علي بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدق (م)] (٣٨١ هـ)، و(٣) «الاستبصار» للمؤلف ذاته، و(٤) «نهج البلاغة» للسيد الرضي (٤٠٦هـ).

[من الواضح أن تيسدال يرى على وفق هذه العبارة أن نهج البلاغة من تأليف الَشريف الرضي، وليس جمعاً للكلام المنسوب للإمام علي، بيد أنَّ هناك نصوصاً في نهج البلاغة موجودة في مدونات معروفة قبل ولادة الشريف الرضي، كما أن نهج البلاغة نفسه، لا يعدُّ من كتب الحديث لدى الشيعة (م)]. =

جامعي هذه الأحاديث أنفسهم أقرَّوا أن كثيراً مما ورد فيها كان ضبطُهُ مظنوناً، وتوثيقه مشكوكاً فيه. وبالإضافة إلى ذلك فأن الأحاديث تتعامل في معظمها، مع أقوال محمد وأفعاله ولذا لا يتحتَّم علينا الإشارة لها إلا في الحالات التي تتطلب استفاضة أو شرحاً لتعاليم القرآن حول نقاط معينة. فهذا الأخير (القرآن) يحتوي على بعض الآيات الصعبة والغامضة، الأمر الذي يتطلب توضيح ذلك الغموض وشرح المعنى بالعودة إلى الحديث. فعلى سبيل المثال، السورة الخمسون من القرآن اسمها «ق» ويرمز لاسمها بهذا الحرف العربي. ومن الصعب أن نعرف على وجه اليقين ما المقصود من ذلك الحرف أو اسم السورة، ما لم نعد للحديث، الذي سيقول لنا أن الكلمة متعلقة بجبل اسمه «ق»[1]، وهكذا سيكون اسم السورة نفسه محتوياً على مرجع. مثال آخر، عندما نقرأ في الآية الأولى من سورة «الإسراء» (السورة السابعة عشرة): «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» يتحتم علينا بطبيعة الحال العودة إلى الحديث لفهم معنى الآية. وعندها سنفهم بأنَّ علماء الإسلام مؤمنون على وجه اليقين بحدوث تلك الرحلة، وهو الموضوع الذي يعرف «بمعراج محمد».

= وسيجد الطالب في مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب السير وليم موير «حياة محمد» بحثاً جديراً بالإعجاب في المصادر المتاحة للحصول على معلومات حول حياة محمد، وكذلك حول الطريقة التي اتخذ بها القرآن شكله الحالي، بالإضافة إلى مناقشة درجة موثوقية الأحاديث. ولذلك، ليس ضرورياً التعامل مع هذه المسألة هنا بإسهاب، فلولا ذلك لكان لا بد من معالجتها. ومع ذلك أود أن أضيف أن ما يرد في هذا الفصل مستمد مباشرة من المراجع الأصلية.

(١) انظر: ص ١٠٠ وما يليها.

عند البحث في معتقدات الإسلام وشعائره الدينية، سنجعل قاعدتنا ألا نشغل أنفسنا، بأية عقيدة أو ممارسة فقهية، ترد في القرآن نفسه، ضمناً أو صراحة، أو في الأحاديث المقبولة على نحو عام لدى جميع الطوائف المحمدية، مع استثناءات بسيطة تتعلق بالمحمديين الجدد في الهند، الذين لا يُعترف بهم كمسلمين من قبل بقية العالم المحمدي.

وقد يكون من المستحسن أن نشير إلى حقيقة أنه، على الرغم ممّا يزعمه علماء المسلمين من أنَّ قدراً من تلك الأحاديث الصحيحة ينتمي إلى الوحي، إلا أنَّ سلطتها تختلف كثيراً عن تلك التي في القرآن، ولذلك فإن هذه الأحاديث تحتل المكانة الثانية. ومما يدلُّ على ذلك الفرقُ في أسلوب التحدث لهذه الأشكال المختلفة للوحي. فالقرآن هو «الوحي المتلو»، والأحاديث هي «الوحي غير المتلو»(١) ذلك أنَّ القرآن وحده من ينظر له على أن لفظه ومعناه من الله نفسه. ومن هنا فقد وضعت أحكام الأحاديث في مرتبة أدنى، فهي حتى وإن جاءت موثَّقة تماماً، لكنها سترَدُّ حتماً إذا ما تعارضت بوضوح مع أية آية من القرآن. هذه القاعدة من المسائل المهمة التي ينبغي أن نلاحظها خلال بحثنا في مسائل الاعتقاد المحمدي. فهي تجنبنا، إلى حد كبير، التورط في متاهات من دهاليز الجدل حول ما هي الأحاديث الصحيحة؟ وما هي الضعيفة؟ أو الموضوعة؟ أو المشكوك فيها مما لا يمكن الاعتماد عليها؟ ويكفي لغرضنا الحالي أن نلاحظ أن الأحاديث والتراث المتصل بها قد دوِّنا في وقت متأخر نسبياً من تاريخ النص القرآني.

وفي ما يتعلق بتاريخ القرآن الذي جرى قبوله كما هو لدى جميع

(١) القرآن هو كلام الله لفظاً ومعنى، أمّا الحديث القدسيّ فهو كلام الله معنى، ولفظه من الرسول [م].

المسلمين، لدينا معلومات كاملة إلى حد ما ومرضية، تفيد بأن بعض السور القرآنية قد تمت كتابتها على أية مادة يمكن الكتابة عليها في ذلك الوقت مما وقع في متناول أيدي النساخ أو «كتَّاب الوحي» والذين تفيدنا المصادر أن عددهم كبير، وكان يجري تدوين تلك الآيات بمجرد أن تملى عليهم من قبل محمد وكما يتلوها عليهم.

بيد أن المعرفة بالكتابة لم تكن شيئاً غير مألوف في ذلك الوقت بين المكِّيين، لأننا نعرف بأن عدداً من هؤلاء المكيين، عندما أُسروا في معركة «بدر» حصلوا على حريتهم من الأسر مقابل إعطاء دروس معينة لأهل «المدينة» في الكتابة والقراءة. وسواء كُتبتْ الآيات القرآنية على الفور أم لا، فإنها قد حفظت على الفور في الذاكرة، وكانت تتلى من قبل المسلمين في أوقات العبادة العامة وفي مناسبات أخرى.

في حياة محمد كان هو المرجع الدائم لتبديد أيِّ شك قد يظهر فيما يتعلق بالصيغة المناسبة للعبارة. وتذكر الأحاديث أن بعض السور أو الآيات تمَّ الاحتفاظ بها في شكلها المكتوب في بيوت زوجات محمد أثناء حياته، ونحن نضيف أن بعض الآيات التي كتبت فُقدتْ للأبد بحيث لم يعد استرجاعها ممكناً. وكان النبي يكشف النقاب من وقت لآخر عن بعض الآيات الجديدة ويوجه بإدراجها داخل بعض السور، والتي من المفترض أن لها شكلاً مسبقاً، وأسماء ظلت خاصة بها، ومع ذلك، يبدو أنه لم يكن هناك ترتيب محدَّد لما يتوجَّب أن يكون عليه تنسيق هذه السور. فكل سورة شكلت، بقدر أو بآخر، استقلالاً تاماً. ولم تكن مهمة حفظ السور عن ظهر قلب مجرد تعبير عن محبةً بمحمد من قبل أتباعه المخلصين فحسب، بل أصبحت، كذلك، مصدراً لنيل المنزلة الرفيعة وكذلك المصلحة والربح، فأولئك الذين بمقدورهم أن

يحفظوا أكبر عدد ممكن من آيات القرآن، بوقت أبكر من غيرهم، سيكونون مؤهلين لا لتولي منصب الإمام أو المرشد في العبادة العامة فحسب، بل أخذت هذه الظاهرة بنظر الاعتبار، أيضاً، عند تحديد نوعية الأشخاص الذين لهم الأولوية للمطالبة بحصة أكبر من الغنيمة بما يميزهم عن بقية المسلمين.

بعد نحو عام من وفاة محمد، وهو ما يخبرنا به البخاري، اقترحت فكرة جمع القرآن كاملاً للمرة الأولى. وتصدَّى لإنجاز تلك المهمة «زيد بن ثابت» وهو أحد صحابة محمد وأبرز كتَّاب الوحي، وذلك في عهد خلافة أبي بكر. وكان السبب في هذه الخطوة أن عمر بن الخطاب، أدرك أن العديد من قراء القرآن وحفظته قد سقطوا في معركة اليمامة القاتلة (١٢هجرية) ورأى في ذلك سبباً كافياً للخوف من فقدان إرث الوحي كلياً أو جزئياً. ومن هنا حث الخليفة[١] بشدَّة على إصدار الأوامر بضرورة جمع السور المتناثرة والحفاظ عليها في شكل مكتوب وموثَّق. شَعَرَ زيدٌ بتردُّد كبير، أول الأمر، في تنفيذ هذه المهمة والإقدام على فعل لم يجد النبي نفسه ضرورة ملحَّة لفعله، لكنه خضع في النهاية لإرادة الخليفة. وفي نص الرواية[٢] يصف زيد عمله على النحو التالي: «قال لي أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتَّهمكَ، قد كنتَ تكتب الوحي لرسول الله فتتبع القرآن فأجمعه... فو اللّه لو كلّفوني نقل جبلٍ من الجبال ما كان أثقل عليّ ممّا أمرني به من جمع القرآن فلم يزل أبو

(١) هذه الكلمة عامة، ولكن جري استخدامها للإشارة إلى خلفاء محمد، وتعني: «نائب رسول الله».

(٢) مشكاة المصابيح، ص: ١٨٥ وما يليها، عن البخاري.

بكرٍ يراجعني حتّى شرح اللّه صدري فتتبّعت القرآن أجمعه من العسب (جريد النخل) واللّخاف (الحجارة الرقيقة) وصدور الرّجال حتّى وجدت آخر سورة التّوبة مع أبي خزيمة الأنصاريّ لم أجدها مع أحدٍ غيره».

يتضح من عبارة «جمع القرآن» أن الكتاب لم يسبق أن تم تشكيله في مجموع واحد متكامل. ومن الطبيعي أن تمنع هيبة زيد من سيده من إضافة أو حذف أيَّ شيء من السور التي كان يتلوها عليه العديد من الأشخاص من الذاكرة، وتلك التي وجدت في بعض الحالات مكتوبة على مختلف مواد الكتابة المستخدمة آنذاك. حقيقة تلك الظروف والملابسات الثابتة في عملية «جمع القرآن» تنتقص من فكرة كون محمد نبياً بتكليف إلهي وهي الفكرة التي لا تزال موجودة في القرآن، ودليلها القاطع الدقة الصارمة التي أنجز بها زيد المهمة الموكلة إليه. كما أنه لم يكن ممكناً في ذلك الوقت، بأي حال من الأحوال، العبث مع النص، وفي غضون عام أو اثنين اكتملّ العمل ودُوِّنت جميع السور، كل سورة منها على ورقة منفصلة فيما يبدو. ويبدو أن ثمة سبباً للاعتقاد بأن الترتيب الحالي للسور يعود إلى تلك المرحلة.

من الصعب تحديد النظام الذي تمَّ على وفقه ترتيب السور، باستثناء سورة الفاتحة التي وضعت في أول القرآن بوصفها نوعاً من مقدمة الكتاب، وهذا قد لا يشكُّ فيه لأنَّ سورة الفاتحة كانت تستخدم للصلاة في جميع الأنحاء، ولذلك غدت معروفة بشكل أفضل من بقية سور القرآن. بينما تمَّ ترتيب بقية السور الأخرى على مبدأ وضع السور الطوال أولاً. ومن ثمَّ تأتي قصار السور في نهاية الكتاب. هذا المنهج في الترتيب يخالف بشكل مباشر تقريباً الترتيب الزمني لزمن نزول تلك السور. الأحاديث نفسها يمكن أن تخبرنا عن ترتيب آخر من خلال

الحديث عن أسباب النزول لمعظم السور، كما تكشف عن ذلك أيضاً، وبشكل مؤكد، بعض آياتها، ولكن في تحقيقنا الحالي فأنه ليس من الضروري معالجة هذه المسألة[1] في مطلق الأحوال، لكنها مهمة بلا شك لدراسة التطور المطرد للدين، لأنه اتخذ شكلاً تدريجياً في عقل محمَّد نفسه.

بعد أن أنهى زيد مهمته بتدوين القرآن، الذي كتب بالخط الكوفي، سلم المخطوطة لأبي بكر الذي حرص على المحافظة عليها حتى وفاته، فانتقلت هذه النسخة من القرآن إلى عهدة عمر، وبعد وفاته هو الآخر انتقلت إلى عهدة ابنته حفصة، وهي إحدى أرامل محمد. واحتفظ بنسخ من السور المنفصلة، من المخطوطة المنجزة، وكذلك من تلك الأصلية التي استخدمها زيد.

بدأت الأخطاء، أو على الأقل الاختلافات، تتسلل تدريجياً إلى نص القرآن بين ما كان يتلى، وبين هذه النسخ المجزأة كذلك. ولا يبدو أن خطوة أبي بكر قد أدت إلى خلق حالة من الوثوق الكامل بنصوص المخطوطة التي كتبها زيد والتي من المفترض أنها النسخة الوحيدة، ومن هنا فإنه لا يمكن كبح النزعة الطبيعية جداً نحو الإبدال والتكييف والتعديل، الذي يطال معظمها أو كلها بشكل غير مقصود، والقرآن، مثل كل الأعمال الأخرى التي صدرت شفوياً، عرضة لهذه النزعة. فقد كانت هناك لهجات مختلفة للغة العربية مستخدمة في أنحاء الجزيرة وحتى في بقية المناطق التي خضعت للديانة الجديدة في ذلك الوقت،

---

(١) في ترجمة «رودويل» للقرآن تم ترتيب السور على وفق الترتيب الزمني، قدر المستطاع، مع أنه مما لا شك فيه أنَّ ثمة آيات من سور قديمة تمَّ ادراجها بعد فترة طويلة من كتابتها. انظر: كانون سيل في «التطور التاريخي للقرآن».

ومن المحتم أن يكون هناك ميل، أولاً، إلى شرح كلمات معينة، ومن ثمَّ تتيح إعادة الصياغة، على وفق هذه اللهجات، أن تجد تلك الاختلافات مدخلاً لها في تلاوة الآيات. وهو ما أحدث التباساً واضطراباً لا يستهان بهما، في عقول المسلمين المتدينين. وفي النهاية عندما كان الخليفة الثاني عثمان منشغلاً بمهمَّة احتلال أرمينيا واذربيجان، قدم عليه أحد قادة الحملة وهو الصحابي حذيفة بن اليمان وحذَّره من خطر جدِّي بأن النص الأصلي للقرآن سيغدو ضائعاً إن استمرت الأمور على هذا النحو من الاختلافات. ونص كلام حذيفة بن اليمان لعثمان يرويه البخاري[1] «يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى» لذا أرسل الخليفة إلى حفصة يدعوها أن تبعث له بالمخطوطة الأصلية ليتم نسخها، واعداً بإعادتها لها ما أن تنتهي عملية استنساخه. ثمَّ كلَّفَ زيداً، إلى جانب ثلاثة أشخاص من «قريش» قبيلة محمد نفسه، لإعادة النظر في العمل، وتحقيق النص المنقَّح للقرآن. على الأقل هذا ما يمكن أن يُلمح من أسلوبه ضمناً، لأنه قال للقرشيين الثلاثة «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزلَ بلسانهم»

وتخبرنا المصادر أن نسخاً جديدة من القرآن تم استنساخها عن المخطوطة الأصلية، ومن ثم فأن الأمر لا يعتريه الكثير من الشك في معظم أجزاء هذه العملية. واستشهدنا بعد ذلك بالفقرة التي تؤكد أن تعديلات معينة قد حدثت بالفعل، على الرغم من عدم وجود شك في حسن النية، كما أنها قامت أساساً للحفاظ على نقاء اللهجة المكِّية في الكتاب.

---

(١) مشكاة المصابيح: الصفحتان: ١٨٥، ١٨٦.

وثمة دليل آخر على أن بعض التغيير قد حدث، يتضح من خلال كلام زيد عن الحادثة التي يذكر فيها أن إحدى الآيات لم تكن موجودة في النسخة الأولى، مع أنه سبق أن سمع محمد يتلوها. إلا أنه لم يجرؤ على إدخالها بسهولة على مسؤوليته فقط، بل فتَّش عن شخص آخر بمقدوره أن يقرأ من الذاكرة. وحين توصل إلى ذلك الشخص، تم إدراج الآية في سورة الأحزاب. ثم أعاد عثمان[(١)] النسخة إلى حفصة، وأرسل إلى كل الأمصار والبلاد الإسلامية نسخة مما قد نسخه منها، مع الإشارة إلى أن عثمان أمر بأحراق كل صحيفة أو مجلد من القرآن باستثناء هذه النسخة الجديدة.

هذا التصرف الذي أقدم عليه عثمان قد يبدو لنا تعسفياً[(٢)]، لكنه نجح، عملياً، في الحفاظ على نص القرآن من ذلك اليوم إلى يومنا هذا، في شكل واحد، وبالصياغة نفسها في نموذج موحَّد في البلاد المحمديَّة. حتى أصبحت نسخة حفصة، هي النسخة الوحيدة التي يمكن أن تختلف مع أية نقطة هامة من النسخة المنقحة بعد تنفيذ أمر عثمان بأحراق النسخ المتبقية، لكن هذه النسخة طالها الحرق هي الأخرى في زمن مرَوان بن الحكم. ومن هنا فإن الاختلافات القليلة جداً التي كشفها البحث الدؤوب في نسخ مختلفة من القرآن تتركز الآن بالكامل تقريباً

---

(١) الرواية المذكورة رواها البخاري في صحيحه كتاب: «فضائل القرآن»، باب: «جمع القرآن» حديث رقم: (٤٩٨٨): «ردَّ عثمان المصحف إلى حفصة وأرسل إلى كلّ أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كلّ صحيفةٍ ومصحف أن يُحرقَ».

(٢) انظر الاعتراضات التي وردت في دفاع الكندي، ترجمة السير موير، ص ٧٢-٨. [المقصود بالكندي هنا هو عبد المسيح بن إسحاق، وليس يعقوب بن إسحاق المعروف، وكان لعبد المسيح وهو مسيحي، مناظرة مشهورة مع عبد الله بن إسماعيل الهاشمي، واشتهر بالدفاع عن الديانات القديمة التي سبقت الإسلام (م)].

حول طريقة قراءة النقاط والحركات التي تميز عدداً من الحروف عن بعضها في الكتابة[1]، مثل: (ي ت ن) وهذه الحروف ليس لها مثل هذه العلامات التشكيلية المميزة في الخطِّ الكوفي القديم.

وهو ما يقودنا إلى استنتاج مفاده أن القرآن الذي بين يدينا الآن، لا يزال كما تركه محمد، وبالتالي نحن إزاء، ما يشبه اليقين في ما يتعلق بصحَّة النص، لكي نشرع في دراسة الكتاب من أجل التحقُّق مما ندرسه بوصفه نصاً مستمدَّاً من ديانات متعدِّدة ومن المعتقدات التي وردت في القرآن وأسهبت الأحاديث في شرحها، والتي تشكل الديانة الإسلامية.

في مناقشة أصل الإسلام من المناسب في المقام الأول أن ننظر في الآراء حول هذا الموضوع والتي طرحها رواد النخبة المثقفة وعلماء الشريعة من المسلمين، ثم نبحث عما إذا اعتمدت آراؤهم بشأن هذه النقطة على تأكيدات القرآن نفسه. ثمَّ نبدأ التحقيق في مسألة ما إذا كان من الممكن بالنسبة لنا قبول وجهات النظر هذه بوصفها التفسير الصحيح لوقائع القضية.

ومن المعروف جيداً أن علماء الإسلام دأبوا على التشديد على أن القرآن هو كلام الله نفسه، وأنه كتبه ودونه في «لوح محفوظ» في السماء، قبل عصور سحيقة من خلق العالم. على الرغم من أنه في عهد الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨ هجرية = ميلادية. ٨١٣-٨٣٣) وبعدها كذلك، حدثت الكثير من الخلافات الشديدة بين أولئك الذين رأوا أن القرآن أزليٌّ والذين اعتقدوا أنه مخلوق، وهي مناظرات وسجالات ليس من الضروري بالنسبة لنا الخوض فيها الآن، إلا أن المسلمين أجمعوا

(١) هناك بعض الأمثلة لهذه القراءات المختلفة في السورة السادسة «سورة الأنعام الآية: ٩٦».

على أن القرآن ليس من تأليف محمد أو أي إنسان آخر، على العكس من ذلك، أنهم يعتقدون أن الأمر كله من عند الله نفسه، وأن محمد مجرد رسوله بهذا الصدد، مكلَّف بتلقي الكتاب الإلهي وإبلاغه إلى البشر. وتخبرنا الأحاديث بأن الكتاب أنزل على وجه الخصوص في ليلة محدَّدة واحدة[١] من أعلى السماء إلى الدنيا بواسطة الملاك جبرائيل، الذي نقله بعد ذلك تدريجياً بآياته وسوره إلى عقل محمد ولسانه. ووفقاً لذلك ليس هناك أي شيء بَشَريّ حول القرآن فهو، كلياً وتماماً، من أصل إلهي.

ولكي يتأكد بعض القراء أن هذه هي حقاً وجهة نظر (الأرثوذكسية) المحمدية المتعصبة في هذه المسألة، نقتبس هنا فقرتين حول هذا الموضوع من الكاتب العربي المعروف ابن خلدون، يقول في أولاها: «إن القرآن نزل بلغة العرب على أساليب بلاغتهم، وكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه من مفرداته وتراكيبه، وكان ينزل جُملاً جملاً وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع»[٢].

---

(١) وتسمى «ليلة القدر».

(٢) انظر: ابن خلدون. المقدمة: «فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب على أساليب بلاغتهم، وكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه من مفرداته وتراكيبه، وكان ينزل جُملاً جملاً وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع، ومنها ما هو في العقائد الإيمانية، ومنها ما هو في أحكام الجوارح».

ويضيف:

«ويدلُّك هذا كله على أن القرآن بين الكتب الإلهية إنما تلقاه نبيُّنا صلوات الله وسلامه عليه متلوّاً كما هو بكلماته وتراكيبه، بخلاف التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية، فإن الأنبياء يتلقونها في حال الوحي معاني، ويعبّرون عنها بعد رجوعهم إلى الحالة البشرية بكلامهم المعتاد لهم، ولذلك لم يكن فيها إعجاز».

بعض من هذه الآيات تتكون من مضامين الإيمان، وبعض الوصايا لتنظيم الإدارة العامة والسلوك الفردي. وفي موضع آخر يقول الكاتب نفسه: «ويدلُّك هذا كله على أن القرآن بين الكتب الإلهية إنما تلقاه نبيُّنا صلوات الله وسلامه عليه متلوّاً كما هو بكلماته وتراكيبه، بخلاف التوراة[1] والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية، فإن الأنبياء يتلقونها في حال الوحي معاني، ويعبّرون عنها بعد رجوعهم إلى الحالة البشرية بكلامهم المعتاد لهم، ولذلك لم يكن فيها إعجاز»[2].

وهذا يعني أن علماء الإسلام، مع اعترافهم بأن أنبياء آخرين جاءوا قبل محمد ونقلوا الرسائل الإلهية للإنسان، فإن ما ينجم عن كلامهم أن وحي القرآن، يختلف ليس فقط في المستوى ولكن في الطبيعة عن الكتب المقدسة الأخرى، وعلى سبيل المثال التوراة والإنجيل. فمؤلفو هذه الكتب تلقوا أفكارهم من الله بطريقة أو بأخرى، ولكن اللغة التي استخدمت للتعبير عن تلك الأفكار هي من التصورات الخاصة بهم، وبالتالي لا يمكنها أن تدَّعي أي منشأ أصلي لها أسمى من الإنسان.

بينما محمَّد، وفقاً للقرآن، على العكس من ذلك، فهو قد سمع صوت جبرائيل يروي جهاراً، وبصوت واضح وهو يقرأ له كلَّ كلمة من القرآن وكما كُتِبَ على «اللوح المحفوظ» في السماء. فاللغة العربية هي لغة السماء والملائكة، وبالتالي لدينا في القرآن الكلمات نفسها، وكذلك

(١) يستخدم المؤلف في أماكن كثيرة كلمة: «law» وهي تخص بالتحديد الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم وهي: التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية. وسميّت هذه الأسفار بأسفار موسى الخمسة أو: سفر شريعة الرب بيد موسى[م].

(٢) المصدر السابق.

هي قول الله نفسه. فالكلمات، والاستعارات، والأفكار، والسرد، والأسلوب، كلها بالكامل وتماماً من أصل إلهي.

وما من شك أن هذا الرأي يتفق تماماً مع طروحات القرآن نفسه. أنه من أصل إلهي «أمّ الكتاب» (السورة الثالثة عشرة، الرعد، ٣٩). وترد في القرآن مراراً وتكراراً أشكال متنوعة من هذه التأكيدات من قبيل: «بَلْ هُو قُرآنٌ مَجيد * في لَوْحِ مَحْفُوظ» (السورة ٨٥، البروج، ٢١، ٢٢). كلمة «القرآن» نفسها تدلُ على هذا، ومعناها «الذي يُتلى». وفي مكان آخر نقرأ أن الله أمر محمداً بالقول: «قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهِ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ....» (السورة السادسة، الأنعام، ١٩). وهكذا أيضاً في السورة ٩٧ «القدر» يعلن الله نفسه بأنه هو المرجع الأصلي للقرآن بقوله: «إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» وثمة الكثير من مثل هذه الاقتباسات التي قد تستمرُّ إلى أجل غير مسمى تقريباً![1].

ومن هنا فإن التفسير المحمدي لأصل الإسلام، وهو ما ينطبق كذلك على أصل القرآن، يؤكد أن المصدر الوحيد والمنبع الرئيسي للديانة الإسلامية هو الله نفسه. وبناءً على ذلك فليس ثمة أي وجود لمصدر بشري، وهو ليس جزءاً من وحي سابق أو من ديانات أخرى، وليس مستمداً مباشرة أو بشكل غير مباشر منها، على الرغم من أنه

(١) قارن مع السورة الرابعة، النساء، الآية: ٨٢،« أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً» والسورة ١٧ : الإسراء: الآيتان: ١٠٦/ ١٠٧ : «وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً * قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً» والسادسة والأربعين الأحقاف، الآية: ٧: «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ» والسورة: ٥٣/ النجم: الآية ٤ «إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى» والمزيد، والمزيد.

يؤكد تبنِّيه للتوراة والإنجيل، ويدعو إلى اتباع الأصيل وغير المحرف من تعاليمهما (راجع: السورة السابعة والخمسين، سورة الحديد، ٢٦، وما بعدها).

لا يحتاج القراء الأوروبيون إلى دليل على أن مثل هذا الرأي عن أصل الإسلام بشكل عام وعن القرآن على وجه الخصوص لا يمكن الدفاع عنه. أما أولئك الذين لا يستطيعون قراءة كتاب في العربية الأصلية فيمكنهم فحص تعاليمه من خلال مراجعة الترجمات المختلفة للقرآن التي صدرت في اللغات الأوروبية المختلفة، ومن أشهرها الترجمات الإنكليزية، لـ «جورج سال» و«رودويل» و«بالمر» للتأكد بعقل ذكي أن ما نبحثه يدحض ذلك الادعاء. وعلاوة على ذلك، فإنَّ مواعظ القرآن، ورؤيته للطبيعة الإلهية، ومفارقاته التاريخية، والعديد من المآخذ الأخرى لا تدع مجالاً للشك بأنه من تأليف محمد نفسه. فعندما يتم تنسيق السور في الترتيب الزمني لتأليفها، ومقارنتها مع الأحداث في حياة محمد، سنتيقَّن أن هناك قدراً كبيراً من الحقيقة، التي تفصح عنها المقاطع، يؤكد أنها لم تكن «وحياً يوحى» كما يقول المسلمون، ولكنها أُلِّفت من وقت لآخر على وفق مقتضى الحال، كمرسوم لتبرير كل مسار جديد يتخذه محمد[1]. القرآن هو مرآة صادقة عن حياة وشخصية مؤلفه. فهو يتنفس هواء الصحراء، إنه يُتيحُ لنا أن نسمع صرخات أتباع النبي في المعركة وهم يسارعون للهجوم، إنه يكشف عن أداء عقل محمد نفسه، ويبيِّن التحوُّل التدريجي في شخصيته وهو ينتقل من جاد وصادق رغم أنه حالم متحمِّس ببصيرة، إلى مدَّعٍ يقظ، وشهواني صريح، هذا كله واضح لأي قارئ غير متحيز للكتاب.

---

(١) للمزيد انظر: ص٢٤٢ وما يليها.

وفي الوقت نفسه ثمة سؤال يطرح نفسه، من أين استعار محمد الأفكار والقصص والتعاليم التي أدرجها في الدين الذي أسسه؟ وأيٌّ منها من اختراعه، وأي منها استمدَّه من منظوماتٍ سابقة؟ وإلى أي مدى كانت لديه الوسائل لمعرفة تعاليم الديانات الأخرى وادعائها لنفسه؟ وإذا استعار من منظومات أخرى، ما هي تلك الأجزاء المستعارة في نصوص القرآن تحديداً؟ ما الشعائر الدينية؟ ما الأفكار والقصص؟ ما هي الأحكام الفقهية التي يمكن أن تعزى إلى كل هذه المصادر؟ ما مقدار الحصيلة التي تعود إلى شخصية محمد نفسه وملابسات عصره؟ هذه هي بعض من المشكلات التي نهدف إلى حلِّها بوضوح وبإيجاز في هذا الكتاب على قدر ما يمكن. وأياً كانت وجهة النظر في هذا التحقيق، فإنه لا يمكن إلا أن يكون مثيراً للاهتمام.

مثل هذا التحقيق، إذا ما اتبع بأمانة، سيمكِّن المسلم أن يقدر عقيدة أسلافه في قيمتها الحقيقية والصحيحة. ويمكِّن الدارس لعلم الأديان المقارن أن يفهم من هذا التحليل كيف نشأت عقيدة عرقية في العصور التاريخية المتأخرة، ومع ذلك فإن من كان على قدر من الحكمة، فلن يصيغ استنتاجات متسرعة من نموذج أحادي. وقد تجد التبشيرية المسيحية أن من المهم متابعة تحقيقاتنا، لاستكشاف منهج جديد لإرشاد المسلمين المتطلعين لإدراك الطبيعة الواهية لآرائهم.

ولكن لنضع كل هذه الاعتبارات جانباً. ونشرع في تقصي المصادر الأصلية للقرآن.

الفصل الثاني:

تأثير المعتقدات والشعائر العربية القديمة

من أجل أن نكون قادرين على فهم التطور التدريجي للإسلام في عقل محمد، والكشف عن المصادر التي استعار منها، فمن الضروري أولاً إلقاء نظرة على معتقدات العرب وشعائرهم الدينية التي ولد وترعرع بينها.

لم يكن سكان الجزيرة العربية من أرومة أبوية واحدة. إذ يقسم الكتّاب العرب سكان الجزيرة بشكل عام إلى صنفين: عرب أنقياء أو أصليين، وأولئك الذين وفدوا من بلدان أخرى، واستعربوا، كما هو الحال مع الحميريين وبعض القبائل الأخرى، وتنقل لنا المصادر القديمة آثار تقارب واختلاط ومصاهرات مع الأثيوبيين «الأحباش» وتوفر لنا مدونات الألواح المسمارية روايات عن احتلالات قديمة لأجزاء من البلاد من قبل الملوك السومريين في بابل، يضاف إلى ذلك أن أوائل الملوك المصريين كانوا يتحكّمون بشبه جزيرة سيناء وكان تأثيرهم، على الأرجح، أكثر من غيرهم من ملوك المناطق الأخرى في الشمال والغرب، هذه العوامل المختلفة لا تدع أيَّ مجال للشك في أنه كان هناك، في تلك العصور المبكرة، عناصر حاميَّة وأخرى أجنبية في تركيبة السكان. وبالتزامن مع أيام الممالك الكشية الكبيرة في بابل، فمن

المفترض أن يكون هناك تأثر للشعوب العربية بثقافة هذه الممالك كبيراً إلى حد ما، ليس بحضارتهم وتجارتهم فقط، وإنما بأفكارهم بشكل عام، وتأثُّر بدياناتهم كذلك. وتثبت النقوشُ العربية التي تعود للعصور المبكرة شيئاً من ذلك، فهي تحتوي على أسماء آلهة عُرفت عبادتها في بلاد الرافدين ومن هذه الآلهة سين «إله القمر» و«عشتار /عشتروت» التي كانت تُعبد من قبل السومريين في المقام الأول، وبعد ذلك من قبل الساميين في بابل وآشور، وانتقلت إلى سوريا وبعض الأنحاء من الجزيرة العربية. ومع ذلك، وعلى الرغم من وجود مؤكد لعناصر حاميَّة في تركيبة سكان الجزيرة، فإن السواد الأعظم من الناس في تلك الحقبة هم على الأغلب ساميون في الأصل، وكذلك في اللغة، والشخصية، والدين.

وقد وثَّق ابن هشام والطبري، والمؤرخون العرب الآخرون التراث القديم لبعض القبائل العربية القديمة، ولا سيما في الأنحاء الشمالية والغربية من البلاد. وهذا مما ينسجم مع ما عبرت عنه أسفار موسى الخمسة، ويعطي أكثر من مبرر للاعتقاد بأن معظم هذه القبائل قد يعود نسبها إلى يقطان (بالعربية قحطان)[١]، أو لإسماعيل، أو لأولاد إبراهيم من «قطورة» وحتى أولئك الذين لم يكن لهم نسب واضح وموثوق يتصل بإبراهيم ادعوا صلة بذلك النسب في زمن محمد، فأعلنت قريش، قبيلته، إن نَسَبَها يعود لإبراهيم من خلال إسماعيل. ومع أن من المستحيل إثبات ذلك، فإنَّ مثل هذا المعتقد القبلي كانَ من شأنه أن يستجلب بطبيعة الحال قدراً معيناً من التعاطف القومي مع قضية محمد،

---

(١) ليس من الضروري بالنسبة لنا مناقشة مفارقة تاريخية ينطوي عليها هذا التماثل في الهوية.

عندما ادعى أنه مكلف بتذكير شعبه بـ «دين إبراهيم» الذي كانوا يتفاخرون بأنهم أسلافه.

ويبدو أنَّ هناك سبباً وجيهاً للاعتقاد بأن الدين الأصلي لأبناء سام هو عبادة الله الواحد(١). وإن إشراك آلهة أخرى في العبادة، وجد له مدخلاً إلى إيمان العرب من خلال التأثيرات الخارجية التي سبقت الإشارة إليها، ومع ذلك فإن الإيمان بإله حقيقي واحد، لم يكن منحسراً تماماً عن عقول الناس. وقد أكدت معظم التحالفات والمعاهدات بين القبائل المختلفة أنها كانت تلتزم بيمين الدعوة والتعاهد على اسم الجلالة (الله، اللهم)، وكان تعبير «عدو الله» يعدّ أشنع نعت ازدراء يمكن استخدامه. كذلك يمكننا أن نجد في «سفر أيوب» ما يثبت أن عبادة الشمس والقمر وكواكب السماء قد دخلت البلاد في تلك الفترة المبكرة (أيوب. الحادي والثلاثون ٢٦-٢٨). ويخبرنا هيرودوت من جانبه في (الكتاب الثالث، الفصل ٨) بأنَّ العرب في عصرِه كانوا يعبدون إلهين: ذكراً وأنثى، وهذه الثنائية تتماهى مع ثنائية «ديونيسوس وأورانيا» كما يبلغنا أن أسميهما وعلى التوالي: «Οροταλ» و«Αλιαλτ» باللغة العربية: «أُروتال» و«ألإلات» وهذا الأخير هو احتمال كبير لـ «ألّلاتو» «Allatu» البابلية، وهي بالتأكيد اللات المذكورة في القرآن(٢). وقد أخذت هذه الكلمة الأخيرة لتكون هي المؤنث لـ «الله». ومن المعروف أن كلمة «إله» نفسها، هي ترقيق صوتي من: «الله» المفخَّمة اللام، وهي كلمة تستخدم في جميع اللغات السامية (في صيغ متنوِّعة قليلاً) مثل عبارة «في سبيل

---

(١) ليس هذا هو المكان المناسب للدخول في جدل لإثبات هذه المسألة، ولكنني أقدر أن الحقيقة الوردة في النص صحيحة، رغم كل ما كتب لاحقاً على الجانب الآخر.
(٢) السورة الثالثة والخمسون «النجم» آية: ١٩ : «أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى».

الله» مسبوقة بأداة التعريف، أو «الحمد لله» وذلك أن المقابل الدقيق في اليونانية لله هو: «ΘΕΟΥ». وبهذا المعنى فإنَّ الشكل «Λλιαλτ» الذي أورده لنا هيرودوت، هو الشكل غير المختصر للمؤنث من الكلمة نفسها[1]. ومن المحتمل أن العرب الذين تحدَّث عنهم هيرودوت[2] ربطوا إلههم الواحد مع القرين المؤنث، على طريقة الساميين في بابل، الذين تعلموا من السومريين الفكرة التي تقول إنه ينبغي أن يكون لكلِّ إلهٍ قرينه المؤنَّث[3] تماماً مثلما نجده عند الهندوس. من ناحية أخرى، ليس لدينا ما يبرر الاعتقاد بأنَّ هذا هو حالَ جميع العرب آنذاك. وبالتأكيد لم يكن كذلك في زمن محمد أيضاً، فلا القرآن ولا أيٍّ من بقايا الشعر العربي القديم تنقل لنا أيَّ أثر لمثل هذا المعتقد. فقد كان ينظر لله واقفاً

(١) وفي الآشورية «أيلو» هو الله «إيلاتو» هو «إلهة» «ألـلاتو» وهو على الأرجح من الأكدية.

(٢) قد يكون جيداً العودة إلى نص هيرودوت من جديد والذي جاء على النحو التالي: (هيرودت الكتاب الثالث): ما من أمة تحترم العهود وتقدسها مثل العرب، فإذا أراد رجلان أن يوثقا العهود بينهما فإنهما يقفان على جانبي رجل ثالث يحمل حجراً حاداً يستخدمه لجرح راحتي يديهما بالقرب من أسفل الإبهام، ثم يأخذ بعض خيوط الصوف من ثيابهما ويغمسها بدمهما ويلطخ بها سبعة أحجار تقع بينهما، وهو يردد اسم كل من «ديونيسيوس» و«أورانيا» ثم يقوم الشخص الذي أخذ العهد على نفسه بتوصية أصدقائه بمن عاهده سواء كان غريباً أم قريباً، وبذلك يعتبر أصدقاؤه أنفسهم ملتزمين بهذا العهد والعرب يعبدون آلهين فقط هما: «ديونيسيوس» و«أورانيا» ويقولون أن أسلوبهم في حلاقة شعرهم بشكل دائري، وحلاقة الشعر في منطقة الصدغين هو محاكاة «لديونيسوس» وهو في لغتهم «أورتال» أما «أورانيا» فهي اللات. (النص باليونانية، وقد اعتمدنا هنا الترجمة العربية لتاريخ هيرودوت لعبد الإله الملاح/ المجمع الثقافي/ أبو ظبي/٢٠٠١ ص ٢٢٠) [م].

(٣) آخرون، منهم على سبيل المثال البروفيسور ساسي (في محاضراته عن الأديان في مصر وبابل) يرى أن هذه الفكرة سامية الأصل.

لوحده بعيداً ومنيعاً، وكان ثمة آلهة أدنى منزلة تعبدها مختلف القبائل بوصفها آلهة شفيعة عنده. وهذه الآلهة عديدة، أهمها: «ودّ» و«يعوق» و«هبل» و«اللات» و«العُزَّى» و«مناة» والثلاث الأخيرة هي كبريات ربَّات الآلهة، وحين وبَّخ القرآن العرب نَعَتَهُم بـ «بنات الله»[١].

لم يكن العرب في ذلك الوقت متدينين تماماً، إذا كنا نستطيع أن نحكم على ذلك من خلال أشعارهم، ولكن معظم ما عرضوها لنا من عبادة في أشعارهم تتعلق بهذه الآلهة الأدنى منزلة من الله، بيد أنهم يتوجَّهون من خلالها إلى الله نفسه. الذي يُسمَّى في كثير من الأحيان: «الله تعالى» أو «الله العلي» وكان هذا، بلا شك، لقباً قديماً جداً لله[٢]. وليس من الممكن أن نفترض أن الاعتراف بوحدانية الله بدأ بين العرب للمرة الأولى عن طريق محمد. لأنَّ كلمة الله، التي تتضمَّن أداة التعريف، هي دليل على أن هؤلاء الذين استخدموها كانوا على شيءٍ من الوعي بوحدانية الله، من هنا فإن محمد لم يخترع الكلمة، ولكنها، كما قلنا، كانت مستخدمة بالفعل، بين أترابه في الوقت الذي ادعى فيه أنَّهُ نبي، ورسولٌ بتكليف إلهي. والدليل على ذلك ليس ببعيد الالتماس، فوالدُ محمد الذي توفي قبل ولادة ابنه، اسمه عبد الله أي: «خادم الله»[٣]. بينما الكعبة نفسها التي وجدت قبل زمن طويل من ظهور محمد كانت تسمى «بيت الله» ويؤكد الموروث العربي أن مزاراً لعبادة الله بُنِيَ

---

(١) السورة السادسة عشرة (النحل، الآية: ٥٩) والسورة الثانية والخمسون (الطور ٥٢ الآية: ٣٩) والسورة الثالثة والخمسون (النجم الآية: ٢١).

(٢) كلمة هيرودوت «Οροταλ» احتفظت في مقطعها الأخير بكلمة تعالى. الجزء الأول من الكلمة هو اشتقاق غير مؤكد ولعلها محرفة من الله العلي «אֵל עֶלְיוֹן» راجع عموماً: التكوين الرابع عشر ١٨، ١٩، ٢٢.

(٣) هكذا أيضاً كان يسمَّى ابن شقيق محمد «عبيد الله».

على هذا الموضع بالذات من قبل إبراهيم وابنه إسماعيل. ومع أننا لا يمكن أن نقرَّ هذا الطرح على حاله بالمعنى التاريخي، إلا أنه يساعدُ على الأقل في إظهار أن ثمة عبادةً في العصور القديمة، ضاعت أصولها في الخرافة.

والكعبة هي، على الأرجح، البقعة التي أشار لها ديودوروس الصقلي(١) (ق. ٦٠) ووصفها بأنها تحتوي على ضريح أو هيكل يقدِّسه العرب. بينما نجد في المعلقات وهي قصائد جاءتنا من عصر ما قبل الإسلام، أن كلمة الله = «ο Θεός» تظهر بشكل متواتر(٢). بينما نقل ابن

(١) ديودورس الصقلي: الكتاب الثالث: إشار «ديودورس الصقلي» في تأريخه إلى وجود معبد كان جميع العرب يقدسونه، وكانوا يحجون إليه من أماكن مختلفة. ولم يذكر «ديودورس» اسم المعبد، ولكن هذا الوصف ينطبق على الكعبة:

Ιερον αγιωτατον ιδρυται τιμωμενον υπο παντων 'Αραβων περιτ-τοτερον
(Diod. Sic., Lib. III.)

(٢) على سبيل المثال، نجد في ديوان النابغة الأبيات التالية (القصيدة الأولى، الأبيات. ٢٣، ٢٤:

لهم شيمةٌ لم يُعْطِها اللهُ غيرَهم ... من الجودِ والأحلام غير مَوَازِبِ
مـحـلَّـتـهـم ذاتُ الإلـهِ وديـنُـهـمْ ... قويمٌ فما يَرجون غيرَ العواقبِ

وأيضاً: (القصيدة الثالثة، الأبيات ٩، ١٠.)

ألـم تـرَ أن الـلـهَ أعـطـاك سـورةً ... تـرى كـلّ مَـلِـكٍ دونـهـا يـتـذبـذبُ
بـأنـك شـمـسٌ والـمـلـوكُ كـواكـبٌ ... إذا طلعَت لم يبْدُ منهنَّ كوكبُ

وهكذا أيضاً في القصيدة الثامنة، الأبيات. ٥،٦:

ونـحـن لـديـه نـسـألُ الـلـهَ خُـلْـدَهُ ... يـردُّ لـنـا مُـلـكاً ولـلأرض عـامـراً
ونحن نزجّي الخُلد إن فاز قِدْحُنا ... ونرهبُ قِدحَ الموتِ إن جاء قاهراً

ويوجد في ديوان لبيد أيضاً:

لعمرِكَ ما تدري الضوارب بالحصى ... ولا زاجراتُ الطيرِ ما اللهُ صانعُ

هشام عن ابن إسحاق، صاحب أول كتاب في السيرة النبوية وهو العمل الذي لم يصلنا كاملاً قوله: إن قبائل كنانة وقريش، كانوا يستخدمون مثل هذه الكلمة لمخاطبة الإله عند أداء شعائرهم الدينية المعروفة باسم «الإهلال»[1]: «لَبَّيك اللهمَّ لَبَّيْكَ، لَبيك لاَ شَرِيكَ لَكَ، إلاَّ شَرِيكٌ هُوَ لَكَ، تملكُه وَمَا مَلَكَ». ويؤكد ابن إسحاق أنهم يعلنون من خلال هذا الخطاب إيمانهم بوحدانية الله، لكنه لا يفسر ما المقصود من عبارة: «إلاَّ شَرِيكٌ هُوَ لَكَ، تملكُه وَمَا مَلَكَ»: ولعله خمَّن أن الإشارة تعود إلى بعض الآلهة الأدنى منزلة التي تنتمي إلى إحدى القبائل التي ذكرها، وعلى أية حال يظهر بشكل واضح من مضمون اللغة المستخدمة أن الآلهة التي ربما تجري الإشارة إليها لم يتمّ وضعها إطلاقاً على قدر المساواة مع الله، ومن هنا فإن ديانة العرب القدامى يمكن مقارنتها على نحو عادل مع شعائر عبادة القديسين في الكنائس اليونانية والرومانية، سواء في عصر محمد أو في عصرنا، وتتماثل كذلك، مع تلك الشعائر القديمة التي لا تزال منتشرة بين المسلمين، رغم وجود القرآن. بيد أنَّ العبادة التي تتجه في مثل هذه الحالات إلى القديسين أو الآلهة الأدنى منزلة لا ينبغي أن تدفعنا إلى الافتراض أنها تشكل إنكاراً لوحدانية الله وسيادته، لأن هذا «الآلهة المتعدِّدة» ليست أكثر من وسيط بين الله والإنسان. ويخبرنا الشهرستاني أن الأفكار والممارسات الدينية في فترة ما قبل الإسلام في الجزيرة العربية تؤيِّد ذلك تماماً[2]. وهو يقسم سكّان

---

(١) مقتبس من ابن هشام «السيرة النبوية» الطبعة المصرية، الجزء الأول، ص. ٢٧، ٣٨.

(٢) الشهرستاني في «الملل والنحل» ونقله أبو الفداء « قال الشهرستاني في الملل والنحل: والعرب الجاهلية أصناف، فصنف أنكروا الخالق والبعث، وقالوا بالطبع المحيي، والدهر المفني، كما أخبر عنهم التنزيل «وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا»=

الجزيرة إلى ملل ونحل مختلفة، ويتحدث عن اختلافات كثيرة جداً في وجهات النظر الدينية السائدة: فصنفٌ أنكروا الخالق والبعث وقالوا بالطبع المحيي والدهر المغني، وبعض منهم، كما يقول، نفى وجود الخالق، وإرسال الأنبياء، والبعث، مؤكدين أن الطبيعة نفسها هي الواهب للحياة ويرونَ الموت هلاكاً كلّياً، بينما اعتقد البعض الآخر بالخالق، لكنهم أنكروا أن يكون هناك بعث، وانكروا وجود الرسل ووجود الوحي، وثمة من عبد الأصنام، وكان لكل قبيلة أصنامها الخاصة، فعلى سبيل المثال، قبيلة كلب تعبد «ود» وهذيل تعبد «سواع» أما مذحج فتقدِّس «يغوث» وهو ما فعلته بعض القبائل اليمنية أيضاً، وحمير تسجد «لنسر ذي الكلاع» وقبيلة همذان تسجد لـ«يعوق» بينما ثقيف في الطائف تعبد «اللات» في حين أن «العزى» هي الآلهة الحارسة

=الجاثية: ٢٤ وقوله: «وما يهلكنا إلا الدهر» الجاثية: ٢٤ وصنف اعترفوا بالخالق، وأنكروا البعث، وهم الذين أخبر الله عنهم بقوله تعالى «أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد» ق: ١٥ وصنف عبدوا الأصنام، وكانت أصنامهم مختصة بالقبائل فكان ود لكلب وهو بدومة الجندل، وسواع لهذيل، ويغوث لذحج، ولقبائِل من اليمن، ونسر لذي الكلاع بأرض حمير، ويعوق لهمذان، واللات لثقيف بالطائف، والعزى لقريش وبني كنانة، ومناة للأوس والخزرج، وهبل أعظم أصنامهم، وكان هبل على ظهر الكعبة، وكان إساف ونائلة على الصفا والمروة، وكان منهم من يميل إلى اليهود، ومنهم من يميل إلى النصرانية، ومنهم من يميل إلى الصابئة، ويعتقد في أنواء المنازل اعتقاد المنجمين في السيارات، حتى لا يتحرك إلا بنوء من الأنواء. ويقول مطرنا بنوء كذا، وكان منهم من يعبد الملائكة ومنهم من يعبد الجن، وكانت علومهم علم الأنساب، والأنواء، والتواريخ، وتعبير الرؤيا، وكان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه فيها يد طولى» (تاريخ ما قبل الإسلام) (لفلايشر الطبعة، ص ١٧٨-٨١.) انظر أيضاً حول الموضوع نفسه: كريل «عن دين العرب قبل الإسلام» ص ٤.

لبني كنانة وقريش. أما قبائل الأوس والخزرج فقد عَبَدتْ مناة، وكان هبل رئيساً لآلهتهم جميعاً. لذا وُضعَتْ صورته في المكان الأكثر بروزاً على سطح الكعبة. ومن بين الآلهة الأخرى «عساف ونائلة» ووقعت بعض القبائل تحت تأثير الجماعات اليهودية التي استقرت بالقرب منها، فقبلت، بقدر أو بآخر، تعاليم الشعوب الأخرى. فأصبح قسم منهم مسيحياً، بينما مالت بعض القبائل لتقبُّل دين جيرانهم. ووقعت قبائل أخرى تحت تأثير الصابئة، واستخدمت ممارسة التنجيم وكانت تتلقى الإرشادات والبشائر والنُّذُر من حركات الأجرام السماوية كمرشدة للبشر في جميع تحركاتهم وأفعالهم المهمة، وبعضهم عبد الملائكة، وبعضهم عبد الجن أو الأرواح الشريرة. أبو بكر نفسه، الذي أصبح فيما بعد أول خليفة كان في زمن ما متميزاً في براعته في فنِّ تفسير الأحلام.

وثمة قصة أخرى[1] ذات صلة موثقة من قبل العديد من الكتاب

---

(١) في «المواهب اللدنية» رويت الحكاية في أشكال عدَّة. أحداها على النحو التالي: «قدِم نفرٌ من مهاجري الحبشة حين قرأ عليه السلام «والنجم إذا هوى» (سورة النجم ٥٣: ١) حتى بلغ «أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى» (٥٣: ١٩ و٢٠) ألقى الشيطان في أمنيته (أي في تلاوته) «تلك الغرانيق العُلى، وإن شفاعتهنَّ لتُرتجي» فلما ختم السورة سجد (ص) وسجد معه المشركون لتوهُّمهم أنه ذكر آلهتهم بخير. وفشى ذلك بالناس وأظهره الشيطان حتى بلغ أرض الحبشة، ومَن بها مِن المسلمين: عثمان بن مظعون وأصحابه، وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم وصلوا معه (ص) وقد أمِن المسلمون بمكة، فأقبلوا سِراعاً من الحبشة».

وترد القصة بشكل آخر في الكتاب نفسه بهذه الكلمات: «وكذا نبَّه على ثبوت أصلها شيخ الإسلام والحافظ أبو الفضل العسقلاني، فقال أخرج ابن أبي حاتم والطبري وابن المنذر من طرق عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير فلما قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة «النجم» فلما بلغ هذا: (أفرأيتم اللات والعزى. ومناة الثالثة الأخرى) ألقى الشيطان على لسانه: «تلك الغرانيق العلى. وإن شفاعتهن ترتجى»=

العرب، بما في ذلك بعض مفسري القرآن المشهورين، تظهر مدى سهولة انضمام عدد كبير من العرب إلى محمد في عبادة الله العلي-بما فيهم أولئك الذين كانوا أكثر المعارضين شراسة في مكَّة، والذين أجبروا عدداً كبيراً من أتباعه على الفرار إلى الحبشة إنقاذاً لحياتهم-ويبدو من خلال سياق القصة العام أن محمد بدا في فترة ما أنه يريد التراجع عن معارضته لتعظيمهم آلهتهم الأدنى منزلة من الله. فقصد يوماً، كما تخبرنا الروايات، أن يصلي في الكعبة، المزار القومي الكبير في مكة، والذي كانت عائلته أبرز القائمين عليه. حيث بدأ في تلاوة (سورة النجم ٥٣ : ١) حتى بلغ «أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى» (٥٣ : ١٩ و٢٠) ألقى الشيطان في أمنيته (أي في تلاوته) «تلك الغرانيق العُلى، وإن شفاعتهنَّ لتُرتجي» وعند سماع هذه الكلمات انضم له في الصلاة جميع العرب الحاضرين، وانتشرت إشاعة في كل مكان أنهم اعتنقوا الإسلام. هذه القصة موثقة جيداً وهي صحيحة على الأرجح. ولكن ما هو مهم فيها أنها تبين أن معارضي محمَّد لم يجدوا صعوبة في قبول

=فقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم. فسجد وسجدوا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته».

وتروى هذا القصة أيضاً بنفس الطريقة من قبل ابن إسحاق، وأيَّدها ابن هشام، وأسهب في توثيقه لحياة محمد (سيرة الرسول، المجلد الأول. ص. ١٢٧وما بعدها.) الطبري وآخرون أيضاً أوردوا القصة على النحو الصحيح، كما فعل المفسران يحيى وجلال الدين (السيوطي) وأيضاً البيضاوي، في معرض تفسيره لسورة الحج (السورة الثانية والعشرون: ٥١) وأوردت الآية في ما سبق أعلاه. بينما الغزالي، والبيهقي، وآخرون ينفون بشدة حقيقة تنازل النبي بقبول عبادة الأصنام ولو للحظة. لكن، ما لم تكن القصة حقيقية، فمن الصعب قبول روايتها من جانب المصادر المذكورة أعلاه. الآية التي أشرنا إليها يبدو أنها تحتاج إلى مقالة لشرحها.

تعاليمه عن وجود الله وعلوّه، وأنهم يعبدون آلهة أدنى كشفعاء لديه. ولكن من الإنصاف أن أضيف أن محمداً سرعان ما سحب الكلام الذي اعترف بوجود هذه الآلهة وتأثيرها، وجرى استبدالها بتلك الموجودة الآن في سورة: النجم: «أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِن رَّبِّهِمُ الْهُدَى»[(١)].

ويؤكد ابن إسحاق وابن هشام ومؤلفون عرب آخرون، أن العرب، وعلى وجه الخصوص أولئك الذين تفاخروا بانتسابهم إلى إسماعيل، كانوا يؤمنون بوحدانية الله، لكنهم، مع مرور الزمن، نزعوا بعيداً نحو الوثنية والشرك-إذا كانت الكلمة الأخيرة يمكن تطبيقها على الأفكار والممارسات الدينية كتلك التي وصفناها ـومع هذا لم ينسوا تماماً أن «الله العلي» يبقى أعلى ومهيمناً على كل الأشياء الثانوية التي يقدِّسونها. وحين نمعن النظر في التأثير الذي مارسته المعتقدات اليهودية والمسيحية على عقل محمد، سنرى أن هذه الديانات عزَّزت، بلا شك، اعتقاده بالتوحيد. لكنه لم يكن اعتقاداً جديداً بين العرب في ذلك الزمن، لأن هذا الأمر، كما رأينا، كان من المسلم به دائماً، على الأقل من الناحية النظرية. بيد أن الآلهة الأقل شأناً التي يقدسونها كانت عديدة جداً، حتى يقال إن هناك ما لا يقل عن ٣٦٠ صنماً في الكعبة، التي أصبحت نوعاً من «البانثيون» القومي.

ومما لا شك فيه أن هذه الآلهة المحلية والقبلية . من هذا الصنف

(١) السورة الثالثة والخمسون «سورة النجم» ٢١ ٢٢، ٢٣. «أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى*تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى* إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِن رَّبِّهِمُ الْهُدَى*».

بقيت، من الناحية الواقعية، في الظل تماماً بوصفها آلهة وسيطة لدى السواد الأعظم من الناس الذين يعبدون «الله العلي»

ومع ذلك، ينبغي ملاحظة، صواباً أم خطأً، أن المؤرخين العرب الأوائل يؤكدون بأن «الشرك بالله» حديث النشأة نسبياً في تلك الأنحاء من الجزيرة العربية عندما ظهر الإسلام. الأحاديث المروية المستندة إلى مرجعية محمد[1]، تبلغنا أن عبادة الأصنام أدخلت من سوريا، وتزودنا بأسماء الأشخاص الذين كان لهم الدور الريادي في إدخالها إلى مكّة. وقد حدث ذلك قبل زمن محمد بحوالي خمسة عشر جيلاً. وهنا يجب استثناء حالة عبادة «الحجارة المقدسة» وهي عادات كانت شائعة بين شعب فلسطين في الفترة البطريركية، ومن المؤكد أنها كانت موجودة كذلك في الجزيرة العربية في العصور السحيقة. يسعى ابن إسحاق[2] إلى بيان ذلك من خلال افتراض أن عبادة الأوثان جاءت من المكيين الذين كانوا يحملون معهم قطعاً من حجر الكعبة في رحلاتهم أينما حلوا ويقدِّسونها، لأنها من ذلك المكان المقدس. ويذكر هيرودوت[3] أن العرب كانوا يستخدمون الحجارات السبع عندما يقسمون اليمين في الأمور العظيمة. وهي ممارسة تكاد تقترب من العبادة، ولا يزال الحجاج المسلمون يتدافعون للوصول إلى الحجر الأسود، الذي وضع في جدار الكعبة، في واحدة من الشعائر الإسلامية العديدة التي استمدَّتْ من ممارسات العرب الذين عاشوا قبل زمن محمد بفترة طويلة. فالقُبْلة التي يضعها الحاج المحمدي المتدين على ذلك الحجر هي من تلك الشعائر

(١) السيرة النبوية، ص. ٢٧ وما بعدها.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) هيرودوت الثالث. ٨، المذكورة أعلاه، ص. ٢٧.

القديمة التي استمرت بعد ظهور الإسلام، وكانت شكلاً من أشكال العبادة في الجزيرة كما هو الحال في العديد من البلدان الأخرى. ثمة الكثير من الحكايات حول هذا الحجر في العصور ما قبل المحمدية، ولا يزال هناك اعتقاد راسخ بناء على حديث محمدي أنه نزل من الجنة، وكان لونه في الأصل أبيض ناصعاً، ولكنه صار أسودَ بفعل خطايا البشر، أو وفقاً لرواية أخرى، أنه أسودً بفعل ملامسته لشفاه أحد الحجاج النجسين! ويما أن الشائع الآن أنه من أصل نيزكي! فقد تم تفسير جزء من القصة.

ليس الإيمان بالله الواحد وتقديس الحجر الأسود والكعبة، فحسب وإنما ثمة كثير من الممارسات الأخرى استعارها الإسلام من العرب من العصور القديمة. وليس مبالغة أن قلنا إن معظم الشعائر الدينية والطقوس التي تسود الآن في جميع أنحاء العالم المحمدي هي مماثلة[١] لتلك التي كانت شائعة في الجزيرة في العصور السحيقة. على سبيل المثال، يخبرنا هيرودوت[٢] بأن العرب في زمنه كانوا يحلقون الشعَرَ حول صدغهم ويطلقون الباقي. وهو ما يدرج عليه المحمديون في بعض البلدان اليوم[٣]. إذا كان ثمة أي اختلاف ـ إذ لا يمكننا أن نجزم ما إذا كان المسافر اليوناني قد رأى في ذلك الزمن عربياً حاسر الرأس ـ فإنه يكمن في حادثة الحلاقة المتصلة من الجبهة حتى الجزء الخلفي من

(١) وفيما يتعلق بشعائر شهر رمضان كوقت «للكفارة» انظر: ص ٢٣٦ وما بعدها.

(٢) المذكورة أعلاه، ص ٢٧.

(٣) ترك بعض العرب شَعرَهم طويلاً، كما كانوا يفعلون في زمن محمد. ويبدو أن ليس هناك أي حكم ديني على هذا الموضوع، وبالتالي لا فرق في الممارسة الإسلامية في أماكن مختلفة.

الرقبة، وترك بقيَّة أجزاء الشعر تنمو على جانبي الرأس فقط. ويوجه أبو الفداء[١] الانتباه إلى عدد من الشعائر الدينية التي استمرت من الماضي وأصبحت مكرَّسة في ظل النظام الجديد. «العرب في زمن الجاهلية»[٢] كما يقول «تفعل أشياء جاءت شريعة الإسلام بها[٣]. فكانوا لا ينكحون الأمهات والبنات، وكان أقبح شيء عندهم الجمع بين الأختين، وكانوا يعيبون المتزوج بامرأة أبيه، ويسمونه الضَيْزَن، وكانوا، علاوة على ذلك، يؤدون[٤] (الحج) إلى البيت «الكعبة» وزيارة الأماكن المكرَّسة، ويرتدون الحرم[٥] -الثوب الذي يرتديه الحجاج حتى يومنا هذا عند الشروع في شوط الخبب-ويؤدون طقوس الطواف والسعي (بين تلال الصفا والمروة) ويقفون المواقف كلها ويرمون الجمرات (رمي الحجارة على الشيطان في وادي منى) وكانوا يكبسون في كلٍّ ثلاثة أعوام شهرا»[٦]. ويذهب إلى ذكر العديد من الأمثلة الأخرى التي أقرها دين

---

(١) «تاريخ ما قبل الإسلام» أد. فلايشر، ص: ١٨٠.

(٢) هكذا يسمَّى عصر ما قبل بعثة محمد.

(٣) انظر أيضاً: «اعتذار الكندي» ترجمة السير وليم موير، ص: ٩٢ ٩٣.

(٤) وكما هو معروف، فإن الحج إلى مكة واجب على كل مسلم يستطيع ذلك.

(٥) ويقول آخرون أن العرب الوثنيين كانوا يؤدُّون الطواف حول الكعبة عراةً ولكن محمداً أدخل ارتداء الإحرام.

(٦) لم يعد هذا معتاداً في عصور الإسلام الحالية للأسف.

[ويسمى كذلك الإقحام، أي إضافة شهر قمري لكل ثلاثة أعوام لموافقة التقويم الشمسي، وثمة تقليد قريب منه كان العرب يستخدمونه ومنعه القرآن، وهو النسيء والشهر النسيء، أن يتم إضافة شهر للتقويم لموافقة التأريخ الميلادي وكان على نوعين: أحدهما: تأخير شهر المحرم إلى صفر لحاجتهم إلى شن الغارات، وطلب الثارات، والثاني: تأخيرهم الحج عن وقته تحرياً منهم للسنة الشمسية، فكانوا يؤخرونه في كل عام أحد عشر يوماً، أو أكثر قليلاً، حتى يدور الدور إلى ثلاث=

الإسلام كما فعل مع العادات العربية القديمة، على سبيل المثال غسل الجنابة بعد أنواع معينة من النجاسة، فَرْق الشعر، وكذلك الطقوس التي روعيت في تنظيف الأسنان، وتقليم الأظافر، ومسائل عدَّة أخرى. كما يبلغنا أن عقوبة السرقة كانت قطع اليد اليمنى[١] تماماً كما هو الحال الآن، ويقول إنَّ الختان كان يمارس من قبل العرب الوثنيين، وهو لا يزال مرعيًّاً من قبل جميع المسلمين، على الرغم من عدم وجود أي نص في القرآن يفرضه. ومما يؤكد أن ممارسة الختان عادة قديمة في المنطقة نبذة صغيرة تسمى «رسالة برنابا»[٢] حيث يرد فيها: «إن كل سوري وعربي، وجميع كهنة الأصنام يختتنون» ومن المعروف أن الممارسة نفسها سادت بين المصريين القدماء أيضاً. ويستخدم ابن إسحاق[٣] الكثير مما يشبه لغة أبي الفداء نفسها[٤]، ولكنه يضيف أن العادات التي يذكرها، بما في ذلك «الإهلال» من الشعائر التي ظلت مستمرة منذ زمن إبراهيم. وهذا ينطبق على الختان كذلك: ولكنه لا

=وثلاثين سنةً، فيعود إلى وقته، ولذلك قال النبي في حجة الوداع: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وكانت حجة الوداع في السنة التي عاد فيها الحج إلى وقته، ولم يحج النبي من المدينة إلى مكة غير تلك الحجة[م].

(١) كما هو الحال في قوانين حمورابي.

(٢) Περιτέμνεται ... πας Συρος και Αραψ και πάντες οι ιερεις των ειδώλων.

(٣) السيرة النبوية، الجزء الأول، ص. ٢٧: «وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسّكون بها: من تعظيم البيت، والطّواف به، والحجّ والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة، وهدي البدن، والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه».

(٤) عاش ابن إسحاق بين القرنين الأول والثاني هـ بين عاش أبو الفداء بين القرنين السابع والثامن هـ لذلك فإنَّ هذه الصياغة للجملة بأن ابن اسحق استخدم نفس لغة أبي الفداء ينبغي أن تكون معكوسة [م].

يدفع للاعتقاد أن إبراهيم كان على علاقة مع الممارسات الأخرى المشار إليها، على الرغم من الاعتقاد المحمدي أنه زار مكة وتعبَّد في الكعبة حيث هي الآن.

من الواضح من كل ما تقدَّم، أن المصدر الأول للإسلام يمكن تحديده في المعتقدات الدينية[1] والممارسات التي دأب عليها العرب وبقيت سائدة أيَّام محمد. ومن هذا المصدر الوثني كذلك، استمدَّ الإسلام عادة تعدد الزوجات والرقَّ، على الرغم أنه لم يتبنَّ بعض العادات السيئة (مثل وأد البنات وغيرها) إلا أنه أبقى كثيراً من هذه العادات الدينية والأخلاقية في ديانته وتبنَّاها وحافظ عليها.

---

(١) استعار محمد أيضاً بعض الخرافات السائدة بين العرب الوثنيين، مثل حكايات «عاد وثمود» وسواها (السورة السابعة، ٦٣-٨٣). وفيما يتعلق بمثل هذه القصص يقول الكندي لخصمه «فإن ذكرت قصة عاد وثمود والناقة وأصحاب الفيل ونظائر هذه القصص، قلنا لك: هذه أخبار وخرافات عجائز الحي اللواتي دأبن على ذكرها ليلا نهار» ويعتقد شبرنغر (نقلاً عن مقدمة رودويل، ص ١٧) أن محمَّد عرف حكايات «عاد وثمود» من الحنفية (انظر: الفصل السادس من هذا المجلد)، وأن هؤلاء هم الصابئة والذين كانوا يقدّسون «صحف إبراهيم» المذكورة في سورة: ٨٧. النجم، آية: ١٩ ومنها وجدت هذه الحكايات مكاناً لها في الكتب المنتحلة. ولكن هذا لا يمكن أن يعد إثباتاً. لأنَّ «عهد إبراهيم» (اكتشف قبل سنوات قليلة)، وهوم ما سنبحثه في الفصل الرابع، من خلال صحف إبراهيم.

تذييل الفصل الثاني

من الأقوال المتداولة في الشرق إلى يومنا هذا أن محمداً لم يكتف باقتفاء تلك العادات القديمة والديانات وطقوس العرب الوثنيين وإدراجها في الإسلام فحسب، لكنه كان متهماً، كذلك بالانتحال واستعارة أبيات معينة من امرؤ القيس، الشاعر العربي القديم. وهي لا تزال موجودة في القرآن. وقرأتُ في هذا المجال قصة مفادها أنه لما كانت فاطمة بنت محمد تتلو آية «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ» (سورة القمر ٥٤ : ١) سمعتها بنت امرئ القيس وقالت لها: «هذه قطعة من قصائد أبي، أخذها أبوك وادَّعى أن الله أنزلها عليه» هذه القصة ملفَّقة على الأرجح، لأن امرأ القيس توفي حوالي سنة ٥٤٠ ميلادي، في حين أن محمداً لم يكن قد ولد حتى ٥٧٠ ميلادي «عام الفيل».

في طبعة حجرية من المعلَّقات، حصلت عليها في بلاد فارس، وجدت في نهاية المجلد بعض القصائد التي تُنسب إلى امرئ قيس، والتي لم ترد في أية طبعة أخرى من الطبعات التي اطلعت عليها لديوانه. في هذه القطع المشكوك في نسبتها وجدت أبياتاً نقلت منها أدناه[١].

(١) دنتِ الساعةُ وانشقَّ القمرْ — عنْ غزالٍ صاد قلبي ونفرْ
أحور قد حرتُ في أوصافِهِ — ناعس الطرفِ بعينيه حَوَرْ

وعلى الرغم من أنها تحتوي على بعض الأخطاء الواضحة، فإنني رأيت أن من الأفضل تركها دون تصحيح. السطور التي وضعتُ تحتها خطّاً هي التي وردت في القرآن، إذ لا يمكن لأحد إنكار أن هذه السطور المذكورة واردة في سورة القمر ٥٤ : ١ و٢٧ و٢٩؛ وفي سورة الضحى ٩٣ : ١ و٢؛ وفي سورة الأنبياء ٢١ : ٩٦؛ وفي سورة الصافات ٣٧: ٦١، مع اختلاف طفيف في اللفظ وليس في المعنى.

من الواضح إذن أن هناك بعض العلاقة بين هذه الأبيات وآيات من القرآن. ويبدو أن هناك سبباً وجيهاً للشك في السؤال عمَّا إذا كان امرؤ القيس هو مؤلف الأبيات، وتم أدراجها في القرآن بعدما أقدم محمد على استعارتها من المؤلف الذي عاش قبل زمنه. لكن من جهة أخرى من الصعب أن نفترض أنه يمكن أن يوجد أيَّ شخص في أي وقت مما بعد نشوء الإسلام، لديه الجرأة على السخرية من القرآن من خلال أخذ آيات منه وتطبيقها على الموضوع الذي تشير إليه هذه الأبيات الشعرية. ومن ناحية أخرى فإنه من المعتاد جداً في الشعر العربي،

مرَّ يوم العيد في زينتهِ ... فرماني فتعاطى فعقرْ
بسهامٍ من لِحاظٍ فاتكٍ ... فتَرَكْني كهشيمِ المُحتظِرْ
وإذا ما غاب عني ساعةً ... كانت الساعةُ أدهى وأمرْ
كُتب الحسنُ على وجنتهِ ... بسَحيقَ المِسْك سطراً مُختصَرْ
عادةُ الأقمارِ تسري في الدجى ... فرأيتُ الليلَ يسري بالقمرْ
بالضحى والليلِ من طُرَّتهِ ... فَرْقه ذا النور كم شيء زَهَرْ
قلتُ إذ شقَّ العِذارُ خدَّه ... دنت الساعةُ وانشقَّ القمر

وله أيضاً:

أقبل والعشاقُ من خلفِهِ ... كأنَّهمْ من كلِّ حدبٍ يَنْسلونْ
وجاء يوم العيد في زينته ... لمثل ذا فليعملِ العاملونْ

وحتى في العصر الحديث إلى حد ما، أن يجري اقتباس آيات من القرآن ووضعها في تراكيب لاحقة ذات طابع فلسفي أو ديني، لكن هذه القصائد لا تنتمي لهذا النوع من التضمين(١). كما سيكون من الصعب أن نتخيَّل أن يغامر محمد بالسرقة من شاعر معروف مثل امرئ القيس (على الرغم من أنه فعل ذلك مع مصادر أخرى أجنبية أقل شهرة، كما سنرى لاحقاً).

ومع ذلك فإن هذا قد يلتقي جزئياً بتلك الفرضية، فطالما أن هذه القصائد لا تشكِّل جزءاً من المعلَّقات فهي لم تكن مشهورة، وهو ما ينطبق على القصائد الواردة في المجموعة الأخيرة. الرواية المقدمة عن اسم المعلَّقات أنه كلما ألِّفت قصيدة ببلاغة خاصة، يجري تعليقها على جدار الكعبة، ومن هنا استمدت القصائد اسمها الذي يعني «القصائد المعلقة» غير أن المراجع الدقيقة(٢) تنكر أن يكون هذا هو أصل التسمية وسببها، ولكن لعلَّ هذا الأمر ذو أهمية ضئيلة. وعلى الرغم من تلك

(١) ربما ينطبق هذا الرأي على فترة الرسالة والخلفاء الأربعة لكن في العصرين الأموي والعباسي ثمة نماذج لا تحصى تضمن وتقتبس آيات من القران في الشعر وبعضها بطريقة ساخرة حتى أصبحت باباً بلاغياً معروفاً [م].

(٢) وفيما يتعلق بالمعلقات قد يكون مفيداً أن أقتبس ما يلي من أبي جعفر أحمد بن إسماعيل النحاس (توفي٣٣٨ هـ) إذ يقول: اختلفوا في جامع هذه القصائد السبع، وقيل إن أكثر العرب كانوا يجتمعون بعكاظ ويتناشدون الشعر، فإذا استحسن الملك قصيدة قال: علقوها وأثبتوها في خزانتي. فأما قول من قال عُلِّقت على الكعبة، فلا يعرفه أحد من الرواة. وأصح ما قيل في هذا إن حماداً الرّاوية، لما رأى زُهد الناس في الشعر، جمع هذه السبع وحضَّهم عليها، وقال لهم: هذه هي المشهورات. فسُمِّيت» القصائد المشهورة «لهذا السبب. وقال السيوطي بالفكرة نفسها، وأضاف لها: أن الأشعار كانت تُعلَّق على الكعبة (كتاب المزهر ج ٢ ص ٢٤٠).

القصة الشرقية التي نقلتها، فإن ميزان الاحتمالات يميل بالتأكيد إلى افتراض أن محمداً بريء[1] من تهمة الانتحال المتهور التي اتهم بها[2].

---

(١) هذا هو رأي السير تشارلز ليال، وسيكون من الصعب أن نجد أيَّ شخص أفضل منه مؤهل للتحدث في موضوع الشعر العربي القديم. وفي الرسالة التي تكرَّم وبعثها لي فيما يتعلَّق بمسألة الأبيات المنسوبة إلى امرئ القيس، عبَّر عن قناعته بأنها ليست له، وأبدى مبرراته اعتماداً على فحص الأسلوب والوزن. ولقد أدرجت بعضاً من ملاحظاته في هذا الملحق، وأنا مَدينٌ له في الملاحظة السابقة أيضاً لأنَّ حججه تسبَّبت في تعديل رأيي في هذا الموضوع الذي أوردته في عملي الفارسي «يا نبيّ الإسلام».

(٢) مع ذلك فإنَّ الدكتور زويمر القس، في البحرين، أبلغني أنه وجد عبارة واحدة «دَنَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ» (راجع السورة: ٥٤/ القمر آية: ١ في القسم الأخير من القصيدة الأخيرة من امرئ قيس في طبعة يملكها. ويضيف: «الدارسون في الأزهر يقولون لي أن هذا الاقتباس الواضح يحير المثقفين المسلمين».

«هناك باحثون عرب سبقوا تيسدال في الإشارة إلى هذه الفكرة، فقد جاء في «فيض القدير» للمناوي.

وقد تكلم امرؤ القيس بالقرآن قبل أن ينزل. فقال:

يتمنَّى المرءُ في الصيفِ الشتا فإذا جاءَ الشتا أنكرهُ
فهو لا يرضى بحالٍ واحدٍ قُتِلَ الإنسانُ ما أكفرهُ

وقال:

دنت الساعةُ وانشقَّ القمرْ من غزالٍ صادَ قلبي ونَفَرْ

وقال:

إذا زلزلت الأرضُ زلزالها وأخرجت الأرضُ أثقالها
تقومُ الأنامُ على رسلِها ليومِ الحسابِ تَرى حالها
يحاسبُها ملكٌ عادلٌ فإمَّا عليها وإما لها

انظر: «فيض القدير شرح الجامع الصغير» لعبد الرؤوف المناوي/ المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر الطبعة: الأولى، ١٣٥٦ ج٢ / ص ١٨٦» [م].

الفصل الثالث:

تأثير الأفكار والممارسات الصابئية واليهودية

عندما ظهر محمد نبيّاً، كان لدى العرب العديد من الأفكار الدينية والممارسات المتوافق عليها، إلا أنها لا لم تكن بذلك المقدار الذي يتيح الادعاء بأنها تحتوي على الوحي الإلهي، وهو ما مكن محمَّد من الطعن بها من خلال ادعائه أنه تمَّ تكليفه ليقودهم للعودة إلى الإيمان النقي الذي كان عليه آباؤهم. ومع هذا كانت هناك بعض الجماعات التي تسكن الجزيرة العربية تمتلك ما اعتبرته كتباً [سماوية] موحى بها، لذلك كان من الطبيعي أن يشعر محمد وأتباعه بشيء من الاهتمام بهذه الطوائف واحترام أفكارها وطقوسها الدينية المختلفة. تحت مُسمَّى «أهل الكتاب» ليس اليهود فحسب، وإنما المسيحيون كذلك، وما ذكرهما في القرآن إلا دليل على ذلك الاهتمام.

الجماعات الأربع التي كانت لديها كتب تدوِّن ديانتها في الجزيرة العربية هي: اليهود والمسيحيون، والمجوس أو الزرادشتيون، والصابئة. وقد ورد ذكر هذه الديانات جميعها في القرآن في السورة الثانية والعشرين، (الحج، الآية ١٧): «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ».

وسنرى أن كلاً من هذه الجماعات الأربع مارستْ تأثيراً كبيراً على الإسلام الناشئ، وإن كانت ديانة الصابئة أقلها تأثيراً على كل حالٍ. ومن هنا نبدأ بذكر ما هو معروف من هذه الأديان التي يرد ذكرها أيضاً في السورة الثانية (سورة البقرة الآية ٦٢): «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ».

وعلى الرغم من أن معرفتنا بديانة الصابئة طفيفة، لكنَّها كافية لبلوغ هدفنا. إذ ينقل «أبو الفداء» عن «أبي عيسى المغربي» ما يلي: «أمَّةُ السريان هي أقدم الأمم، وكلام آدم وبنيه بالسرياني، وملَّتُهم هي مِلَّة الصابئة ويذكرون أنهم أخذوا دينهم عن شيث وإدريس، ولهم كتاب يعزونه إلى شيث، ويسمُّونه صحف شيث، يذكر فيه محاسن الأخلاق، مثل الصدق والشجاعة والتعصُّب للغريب وما أشبه ذلك، ويأمر به، ويذكر الرذائل ويأمر باجتنابها، وللصابئين عبادات، منها سبع صلوات، منهنّ خمسٌ توافق صلوات المسلمين، والسادسة صلاة الضحى، والسابعة صلاة يكون وقتها في تمام الساعة السادسة من الليل، وصلاتهم كصلاة المسلمين من النية، وألا يخلطها المصلي بشيء من غيرها، ولهم الصلاة على الميت بلا ركوع ولا سجود، ويصومون ثلاثين يوماً وإن نقص الشهر الهلالي صاموا تسعاً وعشرين يوماً، وكانوا يراعون في صومهم الفطر والهلال، بحيث يكون الفطر وقد دخلت الشمس الحمل، ويصومون من ربع الليل الأخير إلى غروب قرص الشمس، ولهم أعياد عند نزول الكواكب الخمسة المتحيرة بيوت أشرافها، والخمسة المتحيرة هي: زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد. ويعظمون بيت مكة»[1].

---

(١) أبو الفداء في التواريخ القديمة (تاريخ ما قبل الإسلام) ص: ١٤٨.

يتضح لنا من هذه الرواية أن المسلمين استعاروا من هذه الديانة الغامضة عدداً لا يستهان به من ممارساتهم الدينية التي يعتقدون أنها منزلة عليهم من خلال وحي الملاك جبريل لمحمد بأمر من الله. فعلى سبيل المثال، يصوم المسلمون في شهر رمضان[1]، من شروق الشمس إلى غروبها، بيدً أن هذه القاعدة في التوقيت، لهذه اللحظة تحديداً، عند بداية كل يوم ونهايته، مستمدَّة من اليهود كما سنرى[2]. ففي بلاد فارس وبعض الدول الأخرى لا يزال المدفع يُطلق مع الفجر وعند غروب الشمس للإعلان عن بداية ونهاية كل يوم صوم خلال شهر رمضان. كما لا يزال أتباع محمد يحتفلون بعيد الفطر في نهاية الشهر. كذلك لديهم، كما هو معروف، خمسة أوقات واجبة للصلاة في كل يوم، يضاف لها وقتان آخران من كل يوم تكون فيهما الصلاة اختيارية، وهذا هو العدد نفسه الموجود لدى الصابئة تماماً. كما أنَّ الركوع والسجود واجبان في الصلاة المحمَّدية، ولكن ليس أثناء صلاة الجنازة. وأخيراً رأينا أن المسلمين لا يزالون يقدِّسون الكعبة تقديساً كبيراً.

وبطبيعة الحال من المرجَّح أن جميع هذه الممارسات كانت شائعة لدى قبيلة قريش فضلاً عن الصابئة. أو بعضاً منها بالتأكيد. ومع هذا، فإنه سيكون من الصعب تفسير الكلام الذي نقله «أبو الفداء» عن «أبي عيسى المغربي» واستشهدت بعباراته. بل أنه يؤكد الافتراض بأن العديد من هذه العادات الدينية استعارها محمد من الصابئة، وأن دينهم بشكل عام (في إجراء ربما يهدف إلى عزوها إلى عصور قديمة مزعومة) كان له تأثير كبير على الإسلام عند تأسيسه ومما يؤكِّد ذلك أن بني جذيمة في

(١) انظر أيضاً: ص. ٢٣٦.

(٢) انظر: ص ١٠٧، ١٠٨.

الطائف ومكّة لما دعاهم خالد لإعلان ولائهم لمحمد، فعلوا ذلك وهم يصرخون، «لقد أصبحنا صابئة»[1].

وعلى ما يبدو فأن الصابئة كانت طائفةً شبه مسيحية. وقد حدَّدها آخرون بالمندائية، وهي ديانة تمثل مزيجاً غريباً من الغنوصية والوثنية البابلية القديمة، ولكنها استعارت أيضاً بعض العناصر من المجوسية، واليهودية، والمسيحية، بيد أنها مضادة للمسيحية -بوصفها منظومة-إلى حد كبير.

تستمد المندائية اسمها من «مندا» وهو أهم ما يؤمن به المندائيون من الفيوضات والأيونات. وهو مذكور في كتابهم المقدس «السيدره ربا» حيث تجلى بنفسه في سلسلة من التجسيد، وكانت أول ثلاثة منها: هابيل، وشيث، وأخنوخ، ولاحقاً يوحنا المعمدان. الذي نال منه المسيح التعميد. حيث عاد في النهاية إلى مملكة النور بعد صلبه الظاهر. وتتكرر هذه الفكرة الأخيرة في القرآن (السورة الرابعة، (النساء، ١٥٩)، التي ستقتضي الإشارة لها لاحقاً[2].

غير أن معرفتنا المحدودة بالصابئة قد تجعل من المستحيل تقريباً تحديد ما إذا كان تأثير المندائيين على الإسلام أكثر أهمية وشمولاً من هذا[3].

---

(١) نص العبارة: بعث النبي محمَّد خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا [م].

(٢) انظر ص ١٦٠ وما بعدها.

(٣) ويبدو أن الإبيونيين، لهم تأثير على دين الإسلام أيضاً، عندما أخذ يتشكل تدريجياً في عقل محمد، الذي يبدو في ذلك الوقت تقبلاً متفرداً وساذجاً. ويصف أبيفانيوس في (تفنيد البِدَع) مفاهيم الإبيونيين في الختان وعقائدهم فيما يتعلق بآدم وعيسى،=

ننتقل الآن إلى اليهود الذين استعار محمَّد من دينهم الكثير جداً، إلى الحد الذي يمكن فيه وصف ما جاء به بأنه شكل من الهرطقة اليهودية المتأخرة.

لم يكن اليهود في زمن محمد كثيري العدد فحسب وإنما كان لهم قوة ونفوذ واضحان في أنحاء عدَّة من الجزيرة. فقد استقر العديد منهم في هذا البلد في أوقات مختلفة، بعد فرارهم من تعاقب الغزاة: نبوخذ نصر، وورثة الإسكندر الأكبر، وبومبي. وتيتوس، وهادريان، وسواهم من الذين اجتاحوا فلسطين وخرَّبوها. وقد ازداد عدد اليهود خصوصاً في مجتمع «المدينة» التي سيطروا عليها في وقت ما بالسيف. وكانت القبائل اليهودية الثلاث الكبيرة في زمن محمد: بنو قريضة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، مستقرةً في أنحاء «المدينة»، وتمتَّعتْ هذه القبائل بقدر من القوة بحيث لجأ محمَّد وبعد فترة ليست طويلة من وصوله هناك في ٦٢٢ م، إلى عقد حلف هجومي ودفاعي معهم «للحماية المتبادلة» وكان ثمة مستوطنات يهودية أخرى منتشرة في أحياء «خيبر» و«وادي القرى» وعلى شواطئ «خليج العقبة». بيد أن حقيقة كون اليهود لديهم الكتب [السماوية] الموحى بها، وبأنهم ينحدرون من نسل إبراهيم، الذي

=وناسوتية المسيح بنفس الكلمات التي ترد في السورة الثالثة: ٥٥ تقريباً. ويروي لنا أنهم التزموا بالختان، وعارضوا البتولية والرهبنة، وأنهم حولوا قبلتهم نحو الشروق واتخذوا القدس قبلتهم (كما فعل محمد خلال اثني عشر عاماً)، وأنهم وصفوا طقوس الاغتسال (كما تفعل الصابئة)، وهي مشابهة تماماً لتلك الواردة في القرآن، وسمحوا بقسم اليمين (ببعض مظاهر الطبيعة، كالغيوم، وعلامات الأبراج، والنفط، والرياح...) والتي وجدناها معتمدة فيه. هذه النقاط من التلاقي مع الإسلام، مع ما نعرفه من انتقائية محمد، لا يمكن أن تكون عرضية أو من قبيل الصدفة (رودويل، القرآن، ص الثامن عشر).

ادَّعت قريش وغيرها من القبائل أنها من نسله أيضاً، منح الإسرائيليين أهميَّة ونفوذاً كبيرين. ومن هنا كان من الطبيعي أن تخضع الأساطير المحلية لعملية استيعاب لتاريخ اليهود وتقاليدهم[١]. بنوع من التعديل الموجز، فأصبحت قصةُ فلسطين قصَّةَ الحجاز. وهكذا تمَّ تحديد الحرم المقدس للكعبة على وفق مشهد محنة «هاجر» وكذلك تقديس بئر زمزم باعتباره مصدراً لإغاثتها. ومن هنا يسارع الحُجَّاج في السعي جيئة وذهاباً بين «الصفا والمروة» في استذكار لهرولتها بحثاً عن الماء. وكان إبراهيم وإسماعيل، هما اللذان شيَّدا الكعبة، ووضعا فيه ذلك الحجر الأسود، وسَنَّا لجميع العرب مناسك الحج إلى عرفات. وفي محاكاة لذلك كان رجم الشيطان بالحجارة من قبل الحجاج، وكذلك الأضحية التي تقدَّم في «مِنَى» هي إحياء لذكرى القربان البديل في قصة إبراهيم. وهكذا...، ورغم أن الشعائر المحلية الأصيلة كانت قليلة، أن وجدت أصلاً، إلا أنها تغيرت على كل حال، من خلال تبنِّي الأساطير الإسرائيلية، وجرى تلقِّيها في ضوء مختلف كلياً، لأنها اقترنت في المخيلة العربية بشيء من قدسية إبراهيم خليل الله[٢].

وعلى هذه الأرضية المشتركة اتخذ محمد موقفه، ليعلن لشعبه نظاماً روحياً جديداً، بمختلف النبرات التي من شأنها أن تجعل شبه الجزيرة بأكملها تستجيب له. وهكذا تم الإبقاء على شعائر الكعبة، والتي رغم أنها جرِّدت من أية نزعة وثنية، إلا أنها لا تزال مغطاةً بكفن غريب لا معنى له، يطوِّق عقيدة الإسلام الحيَّة!

أسهمت الألفة مع الأجناس الإبراهيمية كذلك في إدخال عقيدة

---

(١) السير وليم موير، حياة محمد، ص: ٩٣/٩٤.

(٢) السورة الرابعة (النساء، ١٢٤).

خلود الروح، وقيامة الأموات، بيد أن هذه المعتقدات تتجاوب مع العديد من الأفكار التي نشأت في المخيلة العربية في الجزيرة مثل الفكرة التي تصوَّر دعوات الثأر لأرواح القتلى كصياح الطيور للانتقام من القاتل[1]. بينما كانت الناقة تترك أحياناً لتموت جوعاً عند قبر سيِّدها، الذي سيكون مهيأً عند الانبعاث لركوبها من جديد[2].

ثمة مجموعة واسعة من لغة الكتاب المقدس في الاستخدام الشائع أيضاً، أو على الأقل بما يكفي لتكون مفهومة على نحو شائع مثل: الإيمان، التوبة، الجنة والنار، والشيطان وملائكته، وملائكة السماء، جبرائيل مبعوث الله...، هذه النماذج وسواها أخذت من بعض المصادر اليهودية، سواء تلك السائدة منها، أو تلك القابلة للتبنيً الحالي. وعلى هذا النحو كانت قصص من قبيل هبوط آدم، والفيضانات، وتدمير مدن السهل[3] وهلمَّ جرا...مألوفة لدى العرب بحيث كان هناك أساس واسع من الأفكار الخام المقاربة للروحية، في متناول يد محمد.

يخبرنا المؤلفون العرب القدامى أن ظهور محمد جاء في الوقت

---

(١) في معتقدات عرب ما قبل الإسلام أن الصَّدى طائرٌ يخرج من رأس الميت فيقول: أسقوني أسقوني حتى يُدرك بثأره وهو معنى قول ذي الإِصبع:

أَضْرِبْكَ حيث تقول الهامةُ اسقوني

وهذا من خرافات الإِعراب وتكاذيبهم [م]

(٢) تسمَّى الناقة التي تعقل عند قبر صاحبها إذا مات «البلية» فلا تُعلف ولا تُسقى حتى تموت جوعاً وعطشاً، ويقولون: إنه يحشر راكباً عليها، ومن لم يفعل معه هذا حشر راجلاً، وهذا على مذهب من قالوا بالبعث، ومنهم زهير بن أبي سلمى، فإنه قال:

يُؤَخَّر فَيوضَع في كِتابٍ فَيُدَّخَر   لِيَومِ الحِسابِ أَو يُعَجَّل فَيُنقَمِ

وكذلك قول مطرود بن كعب الخزاعي:

يا عين فابكي أبا الشعث الشجيات   يبكينه حسراً مثل البليات [م]

(٣) خراب المدن الدائرة في سفر التكوين يقابله في القرآن خراب أرض لوط [م].

الذي كان فيه اليهود يتوقَّعون مجيء المسيح، وكثيراً ما استخدم هذا المجيء لتهديد أعدائهم بالانتقام الذي سيطالهم من النبي الموعود. ومما لا شك فيه أن هذا الأمر كان له تأثير لدى بعض القبائل العربية الرئيسية، في المدينة وخاصة الخزرج (كما يقول ابن إسحاق)، لكي يتقبَّلوا محمداً على أنه النبي المتوقع ظهورُهُ.

أعلن محمد أنه مكلَّفٌ إلهياً، لا لتأسيس دين جديد ولكن لتذكير الناس بـ «دين إبراهيم». ولذلك كان من الطبيعي بالنسبة له أن يسعى إلى كسب اليهود إلى جانبه. وهذا ما حاول القيام به في المدينة، وبدا لبعض الوقت كما لو أن لديه احتمالاً لا بأس به من النجاح.

إحدى الخطوات التي اتخذها في ذلك الوقت تُظهر هذا الغرض بوضوح تام. فقد تبنى القدس [أورشليم] القبلة لعقيدته-وهذا يعني، أنه وجَّه أتباعه لتقليد ممارسة اليهودية من خلال التوجه بوجوههم نحو القدس في الصلاة. وفي فترة لاحقة، عندما تصدَّعت علاقته مع اليهود، ووجد أن استرضاء العرب سيكون ذا فائدة أكثر، اتخذ مكَّة قِبْلةً[١] واستمر هذا الحال منذ ذلك الحين إلى ما عليه المسلمون الآن. وسوى ذلك فإنه وبعد مدة قصيرة من وصوله إلى «المدينة» وما أن لاحظ ممارسات اليهود في الاحتفالات بيوم الغفران، حتى أوجب على أتباعه الشعائر ذاتها، بل وتبنَّى الاسم نفسه (عاشوراء) الذي كان معروفاً بين اليهود[٢]. وكانت الأضاحي التي تقدَّم في هذه المناسبة تهدف بلا شك

---

(١) في نوفمبر تشرين الثاني. ٦٢٣ ميلادي: السورة الثانية (سورة البقرة، ١٣٦-٤٠).

(٢) في فترة لاحقة عندما تم تحديد شهر رمضان بدلاً من ذلك الشهر للصيام. لم ينه محمد عن الاحتفال بذكرى عاشوراء في اليوم العاشر من شهر محرم (اللاويين: ٣٢/ ٢٧).

لتحلَّ محلَّ تلك التي كان العرب الوثنيون يقدمونها في وادي «مِنَى» خلال الحجّ إلى مكَّة. وحتى نيسان/ أبريل سنة ٦٢٤، ميلادي، تاريخ خلافه مع اليهود، لم يكن محمد قد أقدم على إقامة شعائر عيد الأضحى الذي يفترض أنه طقس لإحياء ذكرى تضحية إبراهيم بإسماعيل (كما يؤكد المسلمون). ولكي نتصوَّر مدى تأثير اليهودية على الإسلام، فإن شعائر هذا العيد لا تزال مرعيةً لدى المسلمين. بدأ محمد باتباع الممارسة اليهودية في تقديم أضحيتين في يوم العيد[1]، ذلك أنه ذبح جديين، واحداً عن قومه والآخر عن نفسه، بيد أنه عكس الترتيب اليهودي التي يقوم على وفقه كبير الكهنة في يوم الغفران بتقديم أضحية لنفسه أولاً[2] ثم واحدة أخرى للأمَّة ككل. نرى النفوذ اليهودي فاعلاً في هذه المسألة، سواء في تبني محمد شعائرهم عندما أفصح عن رغبته المبكِّرة في كسب اليهود، أو في العدول عنها عندما لم يعد يأمل بكسبهم لصالحه. وفي هذه الحالة الأخيرة فإنه عاد، بشكل أو آخر، إلى عادات العرب الوثنيين وتقاليدهم.

أما فيما يتعلق بنظرية محمَّد عن المرجعية الإلهية للقرآن، فهذه ظاهرة عصية على التفسير حقاً. فإلى ما قبل فترة وجيزة، وخصوصاً ما بعد الهجرة مباشرة، كان معظم آيات القرآن التي تنتمي إلى تلك الفترة، وفقاً لأحاديث (موثوقة في هذا الصدد) تتضمَّن تأكيداً على أن القرآن على توافق[3] مع تعاليم أنبياء بني إسرائيل، وأن هذا سيشكِّلُ دليلاً حاسماً على أنه من عند الله، كما قدَّم محمدٌ في ذلك الوقت سوراً

(١) السير وليم موير، مرجع سابق. ص ١٨٨.
(٢) اللاويين. السادس عشر. ٢. والعبرانيين: ٧/٢٧.
(٣) راجع مثلاً السورة التاسعة والعشرين (العنكبوت، ٤٦) والسورة الثانية (البقرة، ١٣٠).

مستمدَّة إلى حدٍّ كبير من الأساطير اليهودية، وهو ما ظهر في السور المكِّية المبكِّرة وسيظهر لاحقاً في بعض من السور المدينية. ومع ذلك فإنه سرعان ما وجد أن اليهود غير مستعدين للإيمان به، على الرغم من أن تلك السور قد تناسب الغرض منها، وهو: إظهار التقارب مع اليهود لبعض الوقت لينال تأييدهم وعلى الأرجح ليعترفوا بدعواه. غير أن القطيعة كان لا بدَّ أن تأتي عاجلاً أم آجلاً، لأنَّهُ ما من إسرائيلي حقيقي يمكن أن يعتقد حقاً بأيِّ مسيح (وهو ما لم يدِّع محمَّد أنه هو، لأنه تقبَّلَ ذلك كلقب ليسوع) أو بأي نبي آخر عظيم يمكن أن يأتي من بين أحفاد إسماعيل. ونحن نعرف كيف نشأ النزاع، وكيف أصبحت أية محاولة للإقناع عديمة الجدوى، ومن هنا تحول محمد في النهاية إلى التعامل مع اليهود بمنطق السيف الذي لا يمكن مقاومته، فإما ذبحهم، أو طردهم من البلاد. ولكنه، قبل ذلك الوقت، كان قد استعار الكثير من تراثهم وعلى نطاق واسع جداً. فحتى وأن لم نتفق، مع بعض المؤلفين، بأن الإسلام استمدَّ مبدأ وحدانية الله من التعاليم اليهودية، فإن ممَّا لا شك فيه أن تأكيد محمد لهذا المبدأ اعتمد بشكل كبير على ما تعلمه من بني اسرائيل. ومن هنا نشرع في عرض ما استمدَّهُ القرآن من الكتب اليهودية مباشرةً، بما في ذلك كتب العهد القديم، وصولاً إلى التلمود وغيره من كتابات ما بعد الكتاب المقدَّس. ومع أن اليهود العرب كان بحوزتهم، بلا شك، نسخ من تلك الكتب المقدسة، والتي لم تكن متاحة تماماً للتثقيف العام، كما هو الحال الآن بالنسبة للغالبية ممن أولوا اهتماماً عملياً أكبر لأحاديث حاخاماتهم على حساب كلمة الله، فإنه ليس من المستغرب بالتالي أن نجد نزراً يسيراً من المعرفة الحقيقية للعهد القديم مبثوثاً في القرآن، على الرغم من احتوائه في

الوقت نفسه، كما سنرى، على قدر كبير من الأساطير اليهودية. ومع أنه من المستحيل أن أقتبس جميع المقاطع التي تثبت ذلك، إلا أنه يجب الآن أن أورد عدداً قليلاً من ذلك القدر الكبير[١].

(١) معظم الحالات المذكورة هنا مأخوذة من كتاب الحاخام أبراهام جيجر «ما الذي أخذه محمَّد من اليهودية؟».

١ ـ قصة قابيل وهابيل

لم يذكر القرآن اسم ابنَيْ آدم تصريحاً، على الرغم من أن المفسّرين سمُّوهما: قابيل وهابيل، لكننا نجد في السورة الخامسة (المائدة، الآيات: ٢٧-٣٢) قصتهما التالية: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ * مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ*).

هذه المحاورة، أو بالأحرى المحاججة، بين «قابيل» و«هابيل» ترد في الأساطير اليهودية سواء في «ترجوم يوناثان»[1] أو في «ترجوم

(١) التكوين الرابع. ٨.

أورشليم. قابيل» إذ يرد فيه: «ليس هناك عقوبة على الخطيئة، وليس هناك أي ثواب أو مكافأة للصلاح. ورداً على ذلك، أكد هابيل أن الخير ثواب من الله، والشر يعاقب عليه. فغضب قابيل من هذا الجواب، وأخذ حجراً ضرب به أخاه وقتله» وجوه التشابه بين هذه الرواية وتلك التي وردت في بداية الاقتباس مما سبق من القرآن، ليست هي الملفتة للنظر، ولكن مصدر بقيَّة القصة القرآنية من القتل هي الأسطورة ذات الصلة فقد ورد في كتاب «فرقى ربي اليعازر» الفصل الحادي والعشرين، والتي يمكن تلخيصها على النحو التالي: «كان آدم ومعينته (حواء) جالسين يبكيان ويندبان عليه (على هابيل) ولم يعرفا ماذا يفعلان بهابيل لأنهما لم يعرفا الدفن. فأتى غراب، كان أحد أصحابه قد مات، وأخذه وحفر في الأرض ودفنه أمام أعينهما. فقال آدم: سأفعل كما فعل هذا الغراب. فأخذ جثة هابيل وحفر في الأرض ودفنها».

وعندما نقارن هذه الأسطورة اليهودية مع تلك التي وردت في القرآن، سنرى أن الفرق الوحيد يتمثل في أنَّ الغراب في الأولى هو من علَّم آدم كيف يدفن الجثة، في حين يقول القرآن إن قابيل هو من تعلَّم الدفن من الغراب. ومن الواضح كذلك أن مقطع القرآن ليس ترجمة حرفية من أحد الكتب اليهودية، ولكنه على الأرجح، كما يمكن أن نتوقع، استنساخ حر للقصة كما رواها لمحمد بعض أصدقائه من اليهود، وهناك روايات عربية قديمة تذكر أسماء[1]. وهذا ما يفسر خطأ القرآن في أنه عزا الدفن لقابيل بدلاً من آدم. وسنلاحظ ظواهر مماثلة في سلسلة تامة من هذه المقتطفات. ومن غير المرجح أن هذه الاختلافات الطفيفة أدخلها محمد عمداً، بيد أنه من الممكن كذلك أن رواة

(١) انظر: ص ١١٣.

الأساطير اليهود رووها له شفاهياً كما سمعوها شفاهياً هم أيضاً، وأنهم هم من ارتكبوا ذلك الخطأ وليس النبيَّ العربي. إنها مسألة برهة قصيرة. لكن ما يمكننا تأكيده هنا، وفي عدد كبير جداً من الحالات الأخرى، أن بوسعنا تتبع ما قدمه لنا محمد من قصص وإحالتها إلى مصادر يهودية سابقة مكتوبة.

ما هو مدون في الآية الخامسة والثلاثين من السورة المذكورة أعلاه لا يبدو أن له علاقة مباشرة بالجزء السابق للمقطع. ومن الواضح أن ثمة رابطاً مفقوداً، ولكن حين ننتقل إلى «الميشناه سنهدرين» (الفصل الرابع فقرة: ٥)، نجد أن الأمر ذكر برمته تماماً، بحيث تصبح العلاقة بين الآية المذكورة أعلاه وقصة قتل هابيل واضحة. لأن المفسر اليهودي، في سياق تفسيره للكلمات التي تخبرنا بها الأسفار الخمسة من التوراة: «تكلم الله إلى قابيل[1]، ماذا فعلتَ صوتُ دمِ أخيك صارخٌ إليَّ من الأرض».

(كلمة دم في الأصل العبري للتوراة جاءت بصيغة الجمع لأنها تدلُّ على سفك الدماء بطريقة عنيفة) ويرد في «الميشناه» ما يلي: «في ما يتعلق بقابيل الذي قتل أخاه وجدنا أنه قيل عنه «صوت دماء أخيك صارخٌ إليَّ». فلم يقُل دم أخيك بل: «دماء أخيك» يعني دمه ودم ذرّيته، ولهذا السبب خُلق آدم وحده ليعلّمك أن كلَّ من أهلكَ نفساً من بني إسرائيل فإن الكتاب يحسب كأنه أهلك العالم جميعاً. وكل من يحفظ حياة أحد بني إسرائيل كما لو أنه أحيا الناس جميعاً».

لسنا معنيين بصحة الرواية أو عدمها من هذا العرض الخيالي من

---

(١) التكوين. ١٠.

النص المقدس، ولكن من المهم أن نلاحظ أن الآية: ٣٢ من «سورة المائدة» هي ترجمة حرفية تقريباً لجزء من هذا المقتطف. تم حذف الجزء السابق للفقرة من القرآن كما هو عليه في «الميشناه» ربما لأن النص لم يفهم تماماً من قبل محمد أو من روى له. ولكن عندما يتمّ ربطه بالعلاقة بين الآية: ٣٢ والآيات السابقة يصبح المعنى واضحاً[١].

(١) الرواية اليهودية المذكورة أعلاه من الحاخام «برقي اليعازر» تحتوي على تعبير «ميَذْ» «من يد» يحيل هذا التعبير فوراً إلى (عَنْ يَد) (باللغة العربية) كما يرد في السورة التاسعة (التوبة ٢٩) «حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ» وهو تعبيرٌ المفسرين.

٢ ـ قصة نجاة إبراهيم من النار التي أعدَّها نمرود لإحراقه

لم ترد هذه القصة في موضع واحد محدَّد ومتصل في القرآن، بل وردت متفرِّقةً ومبثوثة في سُور كثيرة[١].

ومن هنا وجد المحمديون أن من المفيد جمع هذه المقاطع وتكوينها في شكل كلي متصل يربط تلك المقاطع المتفرقة مع بعضها على النحو الذي نجده في كتب مثل «عرائس المجالس» أو «قصص الأنبياء» حيث تعتمد على إيجاد الصلات من خلال أحاديث محمد. وعندما نقارن القصة الحالية وهي المقبولة من قبل جميع المسلمين مع الوقائع الأسطورية التي ترد في الكتاب اليهودي «المدراش رباه» يصبح من الواضح أن هذا الأخير هو مصدر القصة المحمدية. وقد يجد القارئ أن من الضروري لبرهنة ذلك أن نسرد القصة كما رواها الكتاب المحمدي أولاً، ومن ثم الانتقال إلى سرد أقصر وأبسط للأحاديث اليهودية. وهنا نضع مقاطع من القرآن والتي تم دمجها في القصة. نبدأ مع مقتطف من

(١) وردت في سورة البقرة ٢: ٢٦٠ وفي سورة الأنعام ٦: ٧٤-٨٤ وفي سورة مريم ١٩: ٤١-٥٠ وفي سورة الأنبياء ٢١: ٥١-٧٢ وفي سورة الشعراء ٢٦: ٦٩-٧٩؛ وفي سورة العنكبوت ٢٩: ١٦؛ وفي سورة الصافات ٣٧: ٨٣-١١٢؛ وفي سورة الزخرف ٤٣: ٢٦-٢٨؛ وفي سورة الممتحنة ٦٠: ٤؛ وسواها.

أبي الفداء: «كان آزر أبو إبراهيم[١] يصنع الأصنام ويعطيها لإبراهيم ليبيعها، فكان إبراهيم يقول: من يشتري ما يضره ولا ينفعه؟ ثم لما أمر الله إبراهيم أن يدعو قومه إلى التوحيد، دعا أباه فلم يُجبه، ودعا قومه. فلما فشل أمره واتصل بنمرود بن كوش وهو ملك تلك البلاد. أخذ نمرود إبراهيم الخليل ورماه في نار عظيمة، فكانت النار عليه برداً وسلاماً، وخرج إبراهيم من النار بعد أيام، ثم آمن به رجالٌ من قومه»

هذه هي أقصر رواية عربية لدينا. والآن نشرع بترجمة الجزء الأكثر أهمية من القصة التي وردت في «عرائس المجالس» إذ نقرأ فيها أن إبراهيم عاش في مغارة ولم يكن يعرف الإله الحقيقي. وإنه خرج في إحدى الليالي من المغارة ورأى لمعان النجوم، فأعجبته كثيراً وقرَّر الإيمان بها على أنها آلهته. ثم تستمر الراوية على هذا النحو، مع دمج أكبر عدد ممكن من مقاطع من القرآن التي تتعامل مع هذا الموضوع: - لما خرج إبراهيم قبل ذلك من المغارة في الليل رأى الكواكب قبل أن يرى القمر، فقال: «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ (لأنه رأى ضوءه أعظم) فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً[٢] وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»[٣].

---

(١) تاريخ ما قبل الإسلام) (أد. فلايشر، لايبزيغ، ١٨٣١). ولد أبو الفداء في ٦٧٢ هجرية.

(٢) سيتم شرح هذا المصطلح في الفصل السادس.

(٣) الآيات من السورة السادسة (الأنعام: ٧٦-٧٩).

قالوا: وكان أبوه يصنع الأصنام، فلما ضمَّ إبراهيم إلى نفسه جعل يصنع الأصنام ويعطيها لإبراهيم ليبيعها، فيذهب بها إبراهيم، فينادي: من يشتري ما يضرُّ ولا ينفع؟ فلا يشتري أحدٌ منه. فإذا بارت عليه ذهب بها إلى نهر فضرب رؤوسها وقال لها: «اشربي. كسَدْتِ» استهزاءً بقومه وبما هم عليه من الضلالة والجهالة، حتى فشا عيبه واستهزاؤه بها في قومه وأهل قريته، فحاجَّه قومه في دينه، فقال: «أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ؟... وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ»[١].

حتى خصمهم وغلبهم بالحُجة. ثم أن إبراهيم دعا آباه آزر إلى دينه» فقال يا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً؟[٢] وهلم جرا.

فأبى أبوه الإجابة إلى ما دعاه إليه، ثم أن إبراهيم جاهر قومه بالبراءة مما كانوا يعبدون، وأظهر دينه «قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ* أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ»[٣] قالوا: فمن تعبد أنت؟ قال: رب العالمين. قالوا: تعني نمرود؟ فقال: لا، الذي خلقني فهو يهدين. إلى آخر القصة. ففشا ذلك في الناس حتى بلغ نمرود الجبار، فدعاه فقال له: يا إبراهيم، أرأيت إلهك الذي بعثك وتدعو إلى عبادته وتذكر من قدرته التي تعظمه بها على غيره ما هو؟ قال إبراهيم: «رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ» (سورة البقرة ٢: ٢٥٨) فقال نمرود: أنا أحيي وأميت. قال إبراهيم: كيف تحيي وتميت؟ قال: آخذ رجلين قد

---

(١) سورة الأنعام: ٦: ٨٠ و٨٣).

(٢) سورة مريم: ١٩: ٤٢).

(٣) سورة الشعراء: ٢٦: ٧٥-٧٧).

استوجبا القتل في حكمي فأقتل أحدهما فأكون قد أمتُّه، ثم أعفو عن الآخر فأكون قد أحييته. فقال له إبراهيم عند ذلك: «إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ»[1] فبُهت عند ذلك نمرود ولم يُجبه».

تطول القصة لتبلغنا أن القبيلة التي ينتمي لها إبراهيم كان من أعرافها إقامة احتفال سنوي كبير، يخرج خلاله الجميع لفترة خارج المدينة. (قد يحتوي هذا على إشارة مرتبكة إلى العيد اليهودي المعروف بعيد المظال، وبالنسبة للقرآن هي إحدى مفارقاته التاريخية بلا شك، وتتميز الحكايات المحمدية فيما يتعلق بالرسل والأنبياء بشكل عام بالسمة نفسها) وقبل مغادرته المدينة، رأى قومه فإذا هم قد جعلوا طعاماً فوضعوه بين يدي الآلهة وقالوا: إذا كان حين رجوعنا فرجعنا وقد باركت الآلهة في طعامنا أكلنا. فلما نظر إبراهيم إلى الأصنام وإلى ما بين أيديهم من الطعام[2]، قال لهم على طريق الاستهزاء: «أَلا تَأْكُلُونَ؟» فلما لم تجبه. قال: «مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ؟ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ»[3] وجعل يكسرهن بفأس في يده حتى لم يبق إلا الصنم الأكبر، فعلق الفأس في عنقه ثم خرج. فذلك قوله: «فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ»[4]. فلما جاء القوم من عبيدهم إلى بيت آلهتهم ورأوها بتلك الحالة: «قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا

(١) سورة البقرة: ٢ : ٢٥٨).

(٢) وكان قد بقي في المنزل بذريعة المرض، السورة السابع والثلاثون، سورة الصافات، ٨٩.

(٣) المرجع نفسه. (سورة الصافات: ٣٧: ٩١ و٩٢).

(٤) سورة الأنبياء: ٢١ : ٥٨) و«تفسير الجلالين».

سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ»[١] هو الذي نظنه صنع هذا. فبلغ ذلك نمرود الجبار وأشراف قومه «قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ» عليه أنه هو الذي فعل ذلك. وكرهوا أن يأخذوه بغير بيِّنة (قاله قتادة والسُّدي). وقال الضحاك: لعلهم يشهدون بما نصنع به ونعاقبه. فلما أحضروه قالوا له: «قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ؟ قال إبراهيم: قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا. غضب من أن تعبدوا معه هذه الأصنام الصغار وهو أكبر منها فكسرهن، فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ» (سورة الأنبياء ٢١: ٦٢ و٦٣) قال النبي: لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات، كلها في الله تعالى. قوله: «إني سقيم» وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وقوله للملك الذي عرض لسارة: هي أختي. فلما قال لهم إبراهيم ذلك رجعوا إلى نفوسهم فقالوا: «إنكم أنتم الظالمون» هذا الرجل في سؤالكم إياه، وهذه آلهتكم التي فعل بها ما فعل حاضرة، فاسألوها. وذلك قول إبراهيم: «فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ» فلما اتجهت الحجة عليهم لإبراهيم قال لهم: «قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ؟» فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب قالوا: «حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ»[٢] قال عبد الله بن عمر: إن الذي أشار عليهم بتحريق إبراهيم بالنار رجل من الأكراد. قال شعيب الجبائي: اسمه ضينون، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة[٣]. فلما أجمع نمرود وقومه على إحراق إبراهيم حبسوه في بيت

(١) سورة الأنبياء: ٢١: ٥٩ و٦٠).

(٢) الأنبياء: ٢١: ٦٨).

(٣) يذكر مصير «قورح» سفر العدد. السادس عشر، ٣١-٤.

وبنوا له بنياناً كالحظيرة، فذلك قوله: «قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ»[١] ثم جمعوا له من أصلب الحطب وأضاف الخشب».

ثم ذكر المؤلف كيف أن الله وقى إبراهيم بنعمته من لهيب النار، وخرج منها سالما معافى. ويختم روايته هكذا: «وفي الخبر إن إبراهيم إنما نجا بقوله «حَسْبِيَ اللهُ»[٢] عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُون»[٣] «حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيْل». قال الله: «قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ»[٤].

ننتقل الآن لمقارنة هذه الرواية مع ما يرد في «المدراش رباه» اليهودي حيث ترد الحكاية على هذا النحو[٥]: «إن تارح كان يصنع الأصنام، فخرج مرة إلى محل ما وأناب عنه إبراهيم في بيعها، فإذا أتى أحد يريد الشراء كان إبراهيم يقول له: كم عمرك؟ فيقول له: عمري خمسون أو ستون سنة، فكان إبراهيم يقول له: ويل لمن كان عمره ستين سنة ويرغب في عبادة الشيء الذي لم يظهر في حيز الوجود إلا منذ أيام قليلة. فكان يعتري الرجلَ الخجل وينصرف إلى حال سبيله. ومرة أتت امرأة وفي يدها صحن دقيق قمح، وقالت له: يا هذا، ضع هذا أمامهم. فقام وأخذ عصا في يده وكسرها كلها جذاذاً ووضع العصا في يد كبيرهم. فلما أتى أبوه قال له: من فعل بهم كذلك؟ فقال له إبراهيم: لا أخفي عليك شيئاً. إن امرأة أتت ومعها صحن دقيق قمح وقالت لي: يا هذا ضع هذا أمامهم. فوضعته أمامهم، فقال هذا: أريد

---

(١) سورة الصافات: ٣٧: ٩٧).

(٢) سورة الزمر: ٣٩: ٣٨).

(٣) سورة آل عمران: ٣: ١٧٣).

(٤) سورة الأنبياء: ٢١: ٦٩).

(٥) «المدراش رباه» الفصل السابع عشر، في شرح التكوين الخامس عشر. ٧.

أن آكل أولاً، وقال ذلك: أريد أنا أن آكل أولاً. فقام كبيرهم وأخذ العصا وكسرهم. فقال له أبوه: لماذا تلفق عليَّ خرافة؟ فهل هذه الأصنام تدرك وتعقل؟ فقال له إبراهيم: ألا تسمع أذناك ما تتكلم به شفتاك؟ فألقى والده القبض عليه وسلَّمه إلى نمرود، فقال له نمرود: فلنعبد النار. فقال له إبراهيم: فلنعبد المياه التي تطفئ النار. فقال له نمرود: فلنعبد المياه: فقال له إبراهيم: إذا كان الأمر كذلك فلنعبد السحاب الذي يجيء بالمياه. فقال له نمرود: فلنعبد السحاب، فقال له إبراهيم: إذا كان الأمر كذلك فلنعبد الرياح التي تسوق السحاب. فقال له نمرود: فلنعبد الرياح. فقال له إبراهيم: فلنعبد الإنسان الذي يقاوم الرياح. فقال له نمرود: إذا كان مرادك المحاولة فأنا لا أعبد إلا النار، وها أنا ألقيك في وسطها، وليأت الله الذي تعبده وينقذك منها. ونزل إبراهيم في أتون النار ونجا».

من الواضح تماماً أن الحكاية المحمدية هي استعارة مباشرة من اليهودية وان اتسعت قليلاً عن طريق إضافة تفاصيل مصدرها الخيال الخصب لمحمد وشاعريته. ولكن نرى هنا من جديد أن محمداً لا يستنسخ رواية اطلع عليها مكتوبةً في كتاب ما، ولكنه سمعها شفوياً من اليهود. كما أن الهيمنة التي مارستها هذه القصة على عقله تتضح ليس فقط من خلال توسيعه للحكاية، ولكن أيضاً من المرات الكثيرة التي تتكرر فيها القصة في أجزاء مختلفة من القرآن. ويبدو أن القصة كانت معروفة جيداً في مخططها الرئيسي في زمنه، وهو ما يظهر من حقيقة أن محمداً لم يجد أن من الضروري أن يروي القصة بشكل كامل. وتبين كلماته في القرآن أنه يعتقد أنها معروفة جيداً ومقبولة من جميع أتباعه. وربما كانت متداولة في الجزيرة قبل فترة طويلة من الزمن، كما هو الحال مع الكثير من الحكايات الأخرى عن إبراهيم. هدفنا من اقتباس

القصة كما وردت في «المدراش رباه» ليس لإثبات أن محمداً سرقها من هذا العمل في هذا الشأن، ولكن لإظهار ان القصة في تفاصيلها الرئيسية كانت لا تزال حاضرة بين اليهود في ذلك الوقت، فلا بد أن يكون هذا المصدر أو أيّ شكل مماثل للأسطورة هو المصدر الذي استمد العرب معرفتهم منه. ومن غير المحتمل أن يهمل محمد التحقق من القصة عن طريق استشارة أصدقائه اليهود، الذين سيقولون له أنها وردت في بعض كتبهم، وبالتالي تأكيد إيمانه في حقيقته.

نلاحظ، مع ذلك، أن اسم والد إبراهيم يرد في القرآن «عازار» وليس «تارح» كما في سفر التكوين. ولكن اليهود الشرقيين يطلقون عليه أحيانا اسم زارح، الذي قد يكون الاسم العربي تحريفاً له، ويمكن كذلك أن يكون محمد قد سمع الاسم في سوريا، حيث استمد يوسابيوس (المؤرخ اليوناني الذي تُرجم تاريخه إلى اللغة السريانية) صيغة الاسم «Άθάρ» (آثر) الذي يستخدمه المحمديون من الفارسية الحديثة التي تكتب الاسم «آذر» وتلفظه في كثير من الأحيان، بنطق قريب مما هو في العربية، على الرغم من أن النطق الفارسي الأصلي كان آذر/ ازر، وهي الصيغة نفسها التي استخدمها يوسابيوس تقريباً. هذه الكلمة تعني في الفارسية «النار»، وهو اسم الملاك الذي يزعمون أنه يقود هذا العنصر، وهو أحد مخلوقات «أورمزد» الخيرة. وربما كانت هذه إحدى المحاولات المبذولة لإضفاء التقديس على إبراهيم من خلال ربطه بصورته المقدسة بين المجوس وذلك بتماثل والده مع هذه القوة الخيرة للنار (ازاد). وهذا محتمل على أية حال، وبمقدورنا أن نعزو أصل أسطورة إلقاء إبراهيم في النار إلى خطأ ساذج أرتكبه بعض المفسرين اليهود، كما ستتمُّ الإشارة له في الوقت المناسب.

لكن قبل القيام بذلك، قد يكون من الأفضل الإشارة إلى الحجج

التي يشيع استخدامها من قبل المسلمين في تفنيد هذا الاعتراض بالقول إن الكشف عن هذا المصدر والأساطير الأخرى المماثلة في القرآن يجعلها أكثر ميلاً لادعائهم إنها من الوحي الإلهي. وهم يصرُّون على الرد بأن مثل هذه الوقائع التي أوردناها تشكِّلُ دليلاً واضحاً على صحة دينهم، كما يقولون، وإن محمداً لم ينتحل هذه الرواية من اليهود، بل أن جبريل أنزلها عليه بالوحي، وبما أن اليهود الذين هم نسل إبراهيم، قبلوا هذه الرواية وصرّحوا بها في أحاديثهم، فيجب الاعتراف أن شهادتهم تشكل تأكيداً قوياً لِمَا ذهب له القرآن حول هذا الموضوع[١].

وقد رد المعترضون المنتقدون بأنه لم يعتقد بصحة هذه القصة إلا عوام اليهود، أما العلماء فيعرفون أن منشأ هذه القصة هو الاعتماد على الخرافات، لأنها لا تستند على أي شيء يستحق اسم الأحاديث. الأحاديث الوحيدة التي يعول عليها لليهود التي تتعلق بعصر إبراهيم هي تلك الواردة في أسفار موسى الخمسة، ويكاد يكون من الضروري القول إنه لم يتم العثور على هذه القصة الساذجة هناك. بل على العكس من ذلك، فمن الواضح من سفر التكوين أن نمرود عاش قبل عدة أجيال من زمن إبراهيم. صحيح أن نمرود لم يرد ذكره بالاسم في القرآن، ولكن اسمه يظهر، كما رأينا، في قصة إلقاء إبراهيم في النار سواء في الأحاديث المحمدية أو كتب تفسير القرآن، وكذلك في الرواية اليهودية في «المدراش رباه». المفارقة التاريخية هنا كبيرة كما لو أن شخصاً جاهلاً يقول إن الإسكندر الأكبر قد ألقى بالسلطان التركي عثمان في النار، دون أن يعرف أن ثمة فترة طويلة من الزمن قد انقضت بين

(١) تستخدم هذه الحجَّة في «ميزان الموازين» في دحض بعض الأقوال في ميزان الحق.

الإسكندر وعثمان ولأنه لا يدرك أن عثمان لم يتعرض لمثل هذه التجربة أصلاً!

وعلاوة على ذلك فإن القصة الكاملة لنجاة إبراهيم من النار قامت على خطأ ينم عن جهل ارتكبه أحد المفسرين اليهود القدامى. ولشرح هذا نشير إلى «الترجوم» الذي ألّفه جوناثان بن عزيئيل. فقد استند هذا الكاتب على فكرة أن أور الكلدانية المذكورة باعتبارها[1] المكان الذي أقام فيه إبراهيم قبل أن يأمره الله بمغادرة السكن والبلد، والخروج إلى أرض كنعان. ومدينة أور الكلدانية هي المكان الذي يعرف اليوم باسم «المگير». كلمة «أور» أو «أورو» تعني في البابلية القديمة: المدينة. وتظهر كذلك في اسم أورشليم (التي لا تزال تلفظ في العربية أورشليم، أي «مدينة إله السلام») بيد أن جوناثان لم يكن لديه معرفة بالبابلية، ولذلك تصور أن أور لها معنى مشابه للكلمة العبرية أي «نور» والتي تعني في الآرامية «النار». مستنداً على ما ورد في التكوين «أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين» وهكذا أيضاً في تفسيره على ما ورد في التكوين: ١١ : ٣٨» على أنه (أنا الرب الذي أخرجك من أتون نار الكلدانيين) وأورد هذا التفسير على النحو التالي: «لما طرح نمرود إبراهيم في أتون النار لامتناعه عن السجود لأصنامه لم يُؤذنْ للنار أن تضرَّه» ونحن نرى أن القصة كلها انبثقت من التفسير الخاطئ لكلمة واحدة، ليس لها أساس في الواقع. وسواء كان جوناثان أول شخص يقع في هذا الخطأ الناجم عن الالتباس. أو إنه من المرجح، سلم بصحة هذه الفكرة عن آخرين. فإن النتيجة هي نفسها في جميع الأحوال. القصة

(١) راجع التكوين الحادي عشر. ٢٨، والخامس عشر. ٧.

تضعنا في صميم فكرة حذاء سندريلا الزجاجي! مما لا شك فيه أنه كان في الأصل «حذاء من الفرو» وليس «حذاء من زجاج».

[un soulier de vairª not thg.ºun soulier de verreª] [(١)].

فالزجاج ليس هو المادة المناسبة تماماً لصنع الأحذية!

ليس أمراً مستغرباً عند هذا الحد أن يقع جوناثان بن عزيئيل بمثل هذا الخطأ كما أشرنا. ولكن الغريب حقاً أنَّ من يدَّعي الوحي الإلهي يتقبل هذه القصة المبنية على مثل هذا الخطأ على أنها صحيحة تماماً، ويعمد إلى تدوين أجزاء منها في أماكن كثيرة ومختلفة في كتاب يعلن أنه موحى به من الله نفسه بواسطة جبريل، ويوجب على أتباعه الاعتقاد بذلك، ويعتبر أن في هذا الاتفاق بين القرآن والكتاب اليهودي المقدس (الذي افترض خطأ أن القصة وردت فيه) وفي أمور أخرى دليلاً على أنه نبي بتكليف إلهيّ.

---

(١) يشير إلى الالتباس الحاصل في قصة سندريلا والذي لا يزال سائداً، نتيجة الترجمة، ف «verre» في الفرنسية تعني الزجاج بينما «vair» معناها: الفرو. ونتيجة لهذا التشابه بين الكلمتين في الكتابة واللفظ حدث الالتباس وصار المتداول عن حذاء سندريلا إنه من زجاج بينما هو في الأصل من الفرو. [م].

٣ ـ قصة مجيء ملكة سبأ إلى سليمان

فيما يتعلق بأصل هذه القصة كما وردت في القرآن ليس هناك أدنى شك. أنها أخذت مع بعض التعديلات الطفيفة جداً من «الترجوم الثاني عن استير» الذي نشر في «Miqraoth Gedoloth» «الكتاب المقدس العظيم، أو رباني الكتاب المقدس»

ويبدو أن محمداً اعتقد إنه جزء من الكتاب المقدّس اليهودي، وكانت سخافات هذا الكتاب كثيرة جداً للذائقة العربية حين دخلت في القرآن (السورة السابع والعشرون، (سورة النمل ٢٧ : ١٧ و ٢٠-٤٤) حيث يجري سردها على النحو التالي: «وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ*...»[١]. وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ *[٢] فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ

---

(١) الآيتان ١٨ و١٩ لم تردا في الأصل «حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ* فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ» [م].

(٢) هكذا كان لديه ذريعة جيدة للغياب.

وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ *[1] إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ * أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ*[2] قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاَ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ * قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ[3] فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا

(١) اللفظ العربي: سبأ، لأن الشين العبرية غالباً ما تصبح على هذه الصورة باللغة العربية.

(٢) أي «كمسلمين».

(٣) أي في طرفة عين.

يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ * قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ[١] مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ*﴾.

يغفل هذا السرد بعض التفاصيل التي وردت في «الترجوم» المذكور ويختلف عنه في بعض النقاط. إذ يذكر «الترجوم» أن صاحب العرش[٢] هو سليمان، وأن أربعة وعشرين نسراً، كانت فوق هذا العرش تلقي بظلالها على رأس الملك. ومتى أراد سليمان التوجُّه إلى مكان ما كانت هذه النسور تنقل له عرشه وتحمله إلى حيث أراد. ومن هنا نرى أن «الترجوم» يصور النسور بأنها حمَلة العرش، في حين ينص القرآن على أن عفريت الجن هو من قام بتلك المهمة لمرة واحدة. وبعد ذلك كان العرش شاغراً.

ولكن فيما يتعلق بملكة سبأ، والرسالة التي بعثها لها الملك عن طريق الطيور، فثمة تشابه عجيب بين الكتابين، غير أن «الترجوم» يسمّي حامل رسالة سليمان «ديك الصحراء» والقرآن يسميه «الهدهد» وهما إلى حد كبير شيء واحد. ونقدم هنا ترجمة لهذا المقطع من «الترجوم» من أجل المقارنة مع القصة العربية: «مرة أخرى لما انشرح قلب سليمان

---

(١) أي «أصبح مسلماً».

(٢) انظر «الملوك الأول»: ١٠/ ١٨وما بعده، و «أخبار الأيام» التاسع. ١٧ وما بعده.

بخمرهِ، أمر بإحضار حيوانات الصحراء وطيور الهواء وزواحف الأرض والجن والأرواح والعفاريت لترقص أمامه، ليُظهر عظمته لجميع الملوك الذين كانوا خاضعين خاشعين أمامه. فاستدعى كتبة الملك بأسمائهم، فأتوا إليه ما عدا المسجونين والأسرى والرجل الذي فُوِّضت له حراستهم. وكان ديك الصحراء في تلك الساعة يمرح بين الطيور ولم يحضر فأمر الملك أن يحضروه بالقوة، وهمَّ بإهلاكه، فرجع ديك الصحراء ووقف أمام حضرة الملك سليمان وقال له: اسمع يا مولاي، ملك الأرض، وأَمِل أذنك واسمع أقوالي. ألم تمض ثلاثة أشهر منذ تفكرت في قلبي وصممت تصميماً أكيداً في نفسي ألا آكل ولا أشرب ماء قبل أن أرى كل العالم وأطير فيه. وقلت: ما هي الجهة أو ما هي المملكة غير المطيعة لسيدي الملك؟ فشاهدت ورأيت مدينة حصينة اسمها «قيطور» في أرض شرقية، وترابها أثقل من الذهب والفضة كزبالة في الأسواق، وقد غُرست فيها الأشجار من البدء، وهم شاربون الماء من جنة عدن. ويوجد جماهير يحملون أكاليل على رؤوسهم فيها نباتات من جنة عدن لأنها قريبة منها. ويعرفون الرمي بالقوس، ولكن لا يمكن أن يقتلوا بها. وتحكمهم جميعهم امرأة اسمها ملكة سبأ. فإذا تعلقت إرادة مولاي الملك[1] فليمنطق حقوي هذا الشخص وأرتفع وأصعد إلى قلعة «قيطور» إلى مدينة سبأ، وأنا أقيِّد ملوكهم بالسلاسل وأشرافهم بأغلال الحديد، وأحضرهم إلى سيدي الملك».

فوقع هذا الكلام عند الملك موقعاً حسناً، فدُعي كتبة الملك وكتبوا كتاباً ربطوه بجناحي ديك الصحراء، فقام وارتفع إلى السماء وربط تاجه وتقوى وطار بين الطيور. فطاروا خلفه وتوجهوا إلى قلعة «قيطور» إلى

(١) وهذا يعني: «سأفعل».

مدينة سبا. واتفق في الفجر أن ملكة سبا كانت خارجة إلى البحر للعبادة، فحجبت الطيور الشمس. فوضعت يدها على ثيابها ومزقتها ودُهشت واضطربت. ولما كانت مضطربة دنا منها ديك الصحراء، فرأت كتاباً مربوطاً في جناحه ففتحته وقرأته، وهاك ما كتب فيه: مني أنا الملك سليمان، سلام لأمرائك. لأنك تعرفين أن القدوس المبارك جعلني ملكاً على وحوش الصحراء وعلى طيور الهواء وعلى الجن وعلى الأرواح وعلى العفاريت وكل ملوك الشرق والغرب والجنوب والشمال، يأتون للسؤال عن سلامتي. فإذا أردتِ وأتيتِ للسؤال عن صحتي فحسناً تفعلين، وأنا أجعلك أعظم من جميع الملوك الذي يخرون سُجَّداً أمامي. وإذا لم تطيعي ولم تأتي للسؤال عن صحتي أرسل عليك ملوكاً وجنوداً وفرساناً. وإذا قلتِ: ما هم الملوك والجنود والفرسان الذين عند الملك سليمان؟؟ - إن حيوانات الصحراء هم ملوك وجنود وفرسان. وإذا قلت: ما هي الفرسان؟ قلت إن طيور الهواء هي فرسان، وجيوشي الأرواح والجن والعفاريت. هم الجنود الذين يخنقونكم في فرشكم في داخل بيوتكم. حيوانات الصحراء يقتلونكم في الخلاء. طيور السماء تأكل لحمكم منكم «فلما سمعت ملكة سبا أقوال الكتاب ألقت ثانية يدها على ثيابها ومزقتها، وأرسلت واستدعت الرؤساء والأمراء وقالت لهم: ألم تعرفوا ما أرسله إليَّ الملك سليمان؟ فأجابوا: لا نعرف الملك سليمان، ولا نعتد بمملكته، ولا نحسب له حساباً. فلم تصغِ إلى أقوالهم بل أرسلت واستدعت كل مراكب البحر وشحنتها هدايا وجواهر وحجارة ثمينة، وأرسلت إليه ستة آلاف ولداً وابنة وكلهم ولدوا في سنة واحدة وشهر واحد ويوم واحد وساعة واحدة، وكانوا كلهم لابسين ثياباً أرجوانية. ثم كتبت كتاباً أرسلته إلى الملك سليمان على أيديهم وهذا نصه: «من قلعة قيطور إلى أرض

إسرائيل، سفر سبع سنين. إنه بواسطة صلواتك وبواسطة استغاثاتك التي ألتمسها منك سآتي إليك بعد ثلاث سنين «فحدث بعد ثلاث سنين أن أتت ملكة سبا إلى الملك سليمان. ولما سمع أنها أتت أرسل إليها «بنايا بن يهوياداع» الذي كان كالفجر الذي يبزغ في الصباح، وكان يشبه كوكب الجلال (أي الزهرة) التي تتلألأ وهي ثابتة بين الكواكب، ويشبه السوسن المغروس على مجاري المياه. ولما رأت ملكة سبا «بنايا بن يهوياداع» نزلت من العربة، فقال لها: لماذا نزلت من عربتك؟ فأجابته: ألست أنت الملك سليمان؟ فأجابها: لست أنا الملك سليمان بل أحد خدامه الواقفين أمامه. ففي الحال التفتت إلى خلفها ونطقت بمثل للأمراء وهو: إذا لم يظهر أمامك الأسد فقد رأيتم ذريته. فإذا لم تروا الملك سليمان فقد شاهدتم جمال شخص واقف أمامه. فأتى «بنايا بن يهوياداع» أمام الملك. ولما بلغ الملك أنها أتت أمامه، قام وذهب وجلس في بيت بلوري. ولما رأت ملكة سبا أن الملك جالس في بيت بلوري توهمت في قلبها قائلة: إن الملك جالس في الماء، فرفعت ثوبها لتعبر، فرأى أن لها شعراً على الساقين. فقال لها: إن جمالك هو جمال النساء وشعرك هو شعر الرجال، فالشعر هو حلية الرجل ولكنه يعيب المرأة. فقالت: يا مولاي الملك، سأنطق لك بثلاثة أمثال. فإذا فسَّرتها لي فأعرف أنك حكيم، وإلا كنت كسائر الناس (ففسر لها الملك سليمان الأمثال الثلاثة، فقالت: يتبارك الرب إلهك الذي سُرَّ بك وأجلسك على عرش المملكة لتجري قضاءً وعدلاً. وأعطت للملك ذهباً وفضة، وأعطاها الملك كل ما اشتهت».

في هذه القصة اليهودية نرى أن هناك ذكراً لبعض الألغاز التي طلبت ملكة سبأ من سليمان حلها. ومع أنه لم يرد ذكر لهذه المسألة في القرآن إلا أنه يجري ذكر كل شيء في الأحاديث. وبما أن ما يقوله القرآن فيما

يتعلق بتوهم الملكة بأن «الصرح ممرد من قوارير» يشبه الخوض في لجة عميقة من الماء ليست كاملة تماماً عن الحادثة كما وردت في «الترجوم» فإن بعض الكتب المحمدية ملأت بالتفاصيل عن هذه الحادثة. فعلى سبيل المثال، في كتاب «عرائس المجالس» (ص ٤٣٨)، نقرأ: (لما أرادت ملكة سبا الدخول إلى قصر سليمان وتوهَّمتْ أن البلور ماء، كشفت عن ساقيها لتخوضه إلى سليمان. فنظر سليمان فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً، إلا أنها كانت شعراء الساقين. فصرف بصره عنها وناداها أنه صرح ممرَّد من قوارير).

قد يكون إشارة إلى «صرح ممرد من قوارير» يرجع ذلك إلى تذكر مشوّش لـ «البحر المسبوك» في هيكل أورشليم (١ الملوك السابع. ٢٣). ويبدو أن جميع المعجزات الأخرى هي من مخيلة يهودية بحتة. الرواية اليهودية خرافة واضحة لكن المثير للدهشة حقاً أن محمداً اعتقد أنها صحيحة تماماً. بيد أن بعض الحوادث المذكورة يمكن تفسيرها بشكل أوفى من غيرها إلى حد ما. على سبيل المثال، كانت الفكرة (السائدة على نطاق واسع في الشرق وحتى يومنا هذا) بأن سليمان حكم أنواعاً مختلفة من الجنّ مستمدة من اليهود بسوء فهم[١] للكلمات العبرية في «سفر الجامعة. الثاني: ٨» «שִׁדָּה וְשִׁדּוֹת» فهذه الكلمات قد تعني «سيدة وسيدات» ولكن يبدو أن المفسرين أساءوا فهم هذه المصطلحات، التي لا تظهر في أي مكان آخر في الكتاب المقدس، وتم شرحها على أنها تدلُّ على بعض الجن من (الإناث) (שֵׁדִים) ومن هنا يجري الحديث عنها في كل من الأسطورة اليهودية والقرآن على انها جيوش تتكون من

(١) أو لعلها بالأحرى من قصة جمشيد الفارسية، التي يبدو أنها تناسب سليمان بسبب سوء الفهم المشار إليه في النص. انظر: ص. ٢١٨، ٢١٩.

أنواع مختلفة من الجن. قصة التاجر والجني في ألف ليلة وليلة هي مثال آخر على الاعتقاد نفسه. فمن الغريب أن نجد النبي محمد يحاكي كاتب هذا الكتاب الخرافي باعتباره الراوي للقصة على الرغم من أن مصدر القصة القرآنية معروف. ومما لا شك أن محمداً فاق منافسه، لأن هذا الأخير لا يستطيع تصديق قصصه الخرافية وجعلها معتقداً، ولا يعلن أنه تلقاها من الأعلى.

ويكمن الأصل التاريخي للقصة كاملة وفقاً لوثيقة محدَّدة في سفر الملوك الأول / الإصحاح العاشر (والمتكررة في أخبار الأيام الثاني: ٩-١) التي لا تروي لنا أيَّ شيء خرافي مهمّ عن سليمان، لا شيء عن الجن والعفاريت والقصر البلوري ولكن هو سرد بسيط لزيارة ملكة سبأ لسليمان، وسبأ مدينة معروفة في الجزيرة العربية.

«وسمعت ملكة سبا بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل. فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة، وأتت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها. فأخبرها سليمان بكل كلامها. ولم يكن هناك أمر مخفي عن الملك لم يخبرها به. فلما رأت ملكة سبا كل حكمة سليمان والبيت الذي بناه وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسُقاته ومحرقاته التي كان يُصعدها في بيت الرب لم يبق فيها روحٌ بعد. فقالت للملك: صحيحاً كان الخبر الذي سمعتُه في أرضي عن أمورك وعن حكمتك، ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناي. فهو ذا النصف لم أُخبَر به. زدتَ حكمة وصلاحاً على الخبر الذي سمعته. طوبى لرجالك وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائماً السامعين حكمتك. ليكن مباركاً الرب إلهك الذي سُرَّ بك وجعلك على كرسي إسرائيل، لأن الرب أحب إسرائيل إلى الأبد. جعلك ملكاً لتُجري حكماً وبراً. وأعطت

الملك مائة وعشرين وزنة ذهب وأطياباً كثيرة جداً وحجارة كريمة لم يأتِ بعد مثل ذلك الطيب في الكثرة الذي أعطته ملكة سبا للملك سليمان» (١ملوك ١٠ : ١-١٠ و(٢ أخبار الأيام ٩ : ٥).

على الرغم من أن روايات كثيرة أخرى من التي وردت في القرآن قد نحلت من الخرافات اليهودية، ولكن ليس ضرورياً أن نقتبس هنا كل منها باستفاضة. وفي كل واحدة منها يبدو أن محمداً كان يجهل التاريخ الحقيقي للأنبياء من حيث علاقتهم في الكتب الصحيحة للعهد القديم. وهذا يرجع بلا شك إلى حقيقة أن اليهود العرب لم يكونوا أشخاصاً متعلمين وكانوا أكثر ميلاً إلى خرافات التلمود من الكتاب المقدس.

وقبل أن نشرع في المسائل الأخرى الأكثر أهمية، يجب علينا أن نتعامل مع قصة هاروت وماروت، الملاكين اللذين وقعا في الخطيئة في بابل. هذه الأسطورة مهمة جداً وذات فائدة، إذ يمكننا تتبعها أولاً في اليهودية، ويمكن بعد ذلك تبيان أصلها المركب. لذا علينا أن تقتبس أولاً ما جاء عنها في القرآن والحديث، ومن ثم يجب العودة إلى اليهودية وغيرها من الأساطير التي استمدَّت منها.

٤ ـ قصة هاروت وماروت

يرد في القرآن (السورة الثانية، سورة البقرة، ٩٦) ما يلي: «وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾».

في «عرائس المجالس» نجد السرد التالي: «قال المفسِّرون في تفسير هذه الآية: إن الملائكة لما رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة (وذلك في زمن إدريس النبي) عيَّروهم بذلك وأنكروا عليهم، وقالوا لله: إن هؤلاء الذين جعلتهم خلفاء في الأرض واخترتهم يعصونك. فقال تعالى: لو أنزلتُكم إلى الأرض وركَّبتُ فيكم ما ركبت فيهم لفعلتم مثل ما فعلوا. قالوا: سبحانك ربنا ما كان ينبغي أن نعصيك. قال الله: اختاروا مَلَكين من خياركم أُهبِطهما إلى الأرض. فاختاروا هاروت وماروت، وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم. قال الكلبي: قال الله: اختاروا ثلاثة منكم. فاختاروا «عزا» وهو هاروت

و«عزابيا» وهو ماروت و«عزرائيل» وإنما غيَّر اسمهما لما اقترفا من الذنب، كما غيَّر الله اسم إبليس (وكان اسمه عزازيل). فركَّب الله فيهم الشهوة التي ركَّبها في بني آدم وأَهبطهم إلى الأرض، وأمرهم أن يحكموا بين الناس بالحق، ونهاهم عن الشِّرك والقتل بغير الحق والزنا وشرب الخمر. فأما «عزرائيل» فإنه لما وقعت الشهوة في قلبه استقال ربه، وسأله أن يرفعه إلى السماء. فأقاله ورفعه. وسجد أربعين سنة ثم رفع رأسه ولم يزل بعد ذلك مطأطئاً رأسه حياءً من الله تعالى. وأما الآخران فإنهما ثبتا على ذلك يقضيان بين الناس يومهما، فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم، وصعدا إلى السماء. قال قتادة: فما مرَّ عليهما شهر حتى افتتنا، وذلك أنه اختصمت إليهما ذات يوم «الزهرة» وكانت من أجمل النساء. قال عليٌّ: كانت من أهل فارس، وكانت ملكة في بلدها. فلما رأياها أخذت بقلبيهما، فراوداها عن نفسها فأبت وانصرفت. ثم عادت في اليوم الثاني، ففعَلاً مثل ذلك، فقالت: لا، إلا أن تعبدا ما أعبد وتصلِّيا لهذا الصنم وتقتلا النفس وتشربا الخمر. فقالا: لا سبيل إلى هذه الأشياء، فإن الله قد نهانا عنها. فانصرفت ثم عادت في اليوم الثالث ومعها قدح من خمر، وفي نفسها من المَيل إليهما ما فيها، فراوداها عن نفسها فأبت، وعرضت عليهما ما قالت بالأمس، فقالا: الصلاة لغير الله أمر عظيم، وقتل النفس عظيم، وأهون الثلاثة شرب الخمر. فشربا الخمر فانتشيا ووقعا بالمرأة وزنيا بها، فرآهما إنسان فقتلاه... قال الربيع بن أنس: وسجدا للصنم فمسخ الله الزهرة كوكباً. وقال عليٌّ والسعدي والكلبي إنها قالت: لا تدركاني حتى تعلّماني الذي تصعدان به إلى السماء. فقالا: نصعد باسم الله الأكبر. فقالت: فما أنتما بمدركيَّ حتى تعلمانيه. قال أحدهما لصاحبه: علِّمها، فقال: إني أخاف

الله. فقال الآخر: فأين رحمة الله؟ فعلَّماها ذلك فتكلمت به وصعدت إلى السماء، فمسخها الله كوكباً». والزهرة هو الاسم العربي لفينوس.

إن عدد الوثائق التي تم اقتباسها عن مختلف أشكال هذه القصة هو دليل كاف على مدى قبولها عموماً بين المسلمين على أنها قد صدرت عن أحاديث على لسان النبي.

هناك العديد من النقاط في الحكاية من شأنها أن تشير في حد ذاتها إلى أصلها اليهودي، حتى لو لم يكن لدينا أي دليل آخر. واحدة من هذه الفكرة القائلة: أن أي شخص يعرف الاسم الخاص بالله-«الاسم المكتوم» كما يطلق عليه اليهود - يمكن أن يمتلك القدرة على فعل أشياء عظيمة. ومن المعروف جيداً، على سبيل المثال، أن بعض الكتاب اليهود من العصور القديمة أوضحوا معجزات المسيح من خلال التأكيد على أنه قام بها عن طريق نطق هذا الاسم: «يهوه» وكذلك فإن اسم الملاك «عزرائيل» لا يحتمل العربية وإنما هو اسم عبري.

ولكن لدينا دليل مباشر أكثر من هذا يشير إلى أن الحكاية من أصل يهودي. وهو وارد في «مدراش يالكوت» بهذه الكلمات: «استفهم تلاميذ يوسف الرباني من أستاذهم عن «عزائيل» فقال لهم: لما قام جيل الطوفان (يعني القوم الذين كانوا موجودين في عصر طوفان نوح) ودانوا بالعبادة الباطلة (أي عبادة الأصنام)، سخط عليهم القدوس تبارك اسمه. فقام مَلَكان «شمحزاي» و«عزائيل» وقالا بحضرته: يا رب العالم، ألم نقل لك بحضرتك لما خلقت عالمك: من هو الإنسان حتى تذكره؟ (مزمور ٨: ٤). فقال لهما: وأما العالم فماذا يحصل له؟ فقالا له: يا رب العالم نتسلط عليه. فقال لهما: إنه مكشوف ومعلوم بأنه إذا تسلطتم على الأرض تتسلط عليكم الشهوة الملعونة، وتكونون أكثر من بني آدم

عناداً. فقالا له: ائذن لنا أن نسكن مع المخلوقات، وترى كيف نقدس اسمك. فقالا لهما: اهبطا واسكنا معهم. فنظر «شمحزاي» صبية واسمها إسطهر (أستير) فشخص وقال لها: أطيعيني. فقالت له: لا أصغي لك ما لم تعلمني الاسم المختص (بالله) الذي في ساعة ذكرك إياه أصعد إلى السماء. فعلمها إياه، فذكرته وصعدت إلى السماء أيضاً ولم تدنِّس عرضها. قال القدوس تبارك اسمه: بما أنها نزَّهتْ نفسها عن التجاوز فاذهبوا واجعلوها بين السبعة الكواكب لعلَّكم تكونون طاهرين من جهتها إلى الأبد. فوُضعت بين الثريا. وتنجَّسا مع بنات آدم اللواتي كنَّ جميلات ولم يقدرا على قمع شهواتهما، فقاما واتخذا زوجات وولدا ولدين (هوآء) و(هيآء). فاستعان «عزائيل» بالحلي المتنوعة وأنواع زينة النساء المبهرجة على إغواء بني آدم وإغرائهم على اقتراف التعدّي. (ومما يجب التنبيه إليه أن «عزرائيل»[1] المذكور في «المدراش» هو ذاته في الأسطورة المحمدية وهو نفسه عزائيل المذكور في التلمود).

فمن المستحيل لأحد أن يقارن أسطورة محمد مع الأسطورة اليهودية دون أن يدرك اشتقاقها من هذه الأخيرة، لا كلمة بكلمة بالضبط، ولكن على قدر ما يتعلق بالتناقل الشفاهي للقصة. ومع ذلك ثمة نقاط مثيرة للاهتمام في النموذج المحمدي للخرافة تتطلب اهتماماً قبل التحقيق في السؤال: «من أين تعلم اليهود أنفسهم هذه القصة؟».

إحدى هذه النقاط تتعلق بأصل أسمي «هاروت» و«ماروت» ويقال إن هذين الملاكين كان لديهما أسماء أخرى في الأصل، وهما «عزا» و«عزابيا» على التوالي، وتشكل هذان الاسمان الأخيران من الجذور

---

(١) انظر ص ٩٠، ٩١.

المشتركة بين العبرية والعربية. في «المدراش يالكوت» ومع ذلك، يسمى الملاكان اللذان أخطأا: «شمحزاي» و «عزائيل» في حين أن الأسطورة العربية تقول إنه «عزرائيل» وأنه نزل يرافقه «هاروت» و«ماروت» كعضو ثالث في المجموعة، وعاد بعد ذلك إلى السماء دون ارتكاب الخطيئة الفعلية. ويعتبره المسلمون الآن ملك الموت، وهو الدور الذي يقوم به «سمائيل/شموئيل» عند اليهود. وتقول الاسطورة العربية أن أسمي «هاروت» و«ماروت» لم يطلقا على هذين الملكين إلا بعد أن ارتكبا الخطيئة. ويصبح المعنى الكامن وراء هذا واضحاً عندما نكتشف أن هذين الاسمين هما اسمان لاثنين من الآلهة الأرمنية القديمة، التي كان الأرمن يعبدونها قبل تحوُّلهم إلى المسيحية في القرنين الثالث والرابع من العصر المسيحي. في الأرمينية كانا يسميان «هوروت» و«موروت» ويذكر مؤرخ أرمني حديث أهمية دورهما في الأساطير القديمة من بلاده في هذه الكلمات: -«هوروت وموروت كانا بلا شك من أعوان الإلهة «اسباندارامیت» وهما بطلا جبل «مازيس» (أرارات) و«أمينابيغ» أيضاً. وربما كانت توجد آلهة أخرى لا تزال مجهولة بالنسبة لنا، وكانا من أعظم المساعدين على تقوية الأرض وجعلها مخصبة وفيرة العطاء»[١] و«اسباندارامیت» الأرمنية هي «أفستيك سپنتا آرميتي» «Avestic Spenta Armaiti» رئيس الملائكة الإناث على الأرض وهو الوصي على المرأة الفاضلة. ويظهر «هوروت وموروت» في الأفيستا باسمي: «هورفات/أو هورفاتات وأميريتات» أي «الخصوبة» و «الخلود». وهما الخامس والسادس من أمشاسباندز (أميشا-سولفداس) (Amshaspands Amesha-spentas) أي: «الخالدون الخصبون» الذين هم كبار المساعدين ووزراء،

(١) Entir Hatouadsner, pt. 1, p. 127.

«أهورا مازدا/ أورمزد» خالق كل الأشياء الخيرة. في الأفيستا «هاروفتات» و«اميريتات» صحبة لا تنفصل، كما هو حال «هورووت» و«موروت» في الأساطير الأرمنية. يرأس هذا الأخير أنحاء المملكة النباتية بأكملها. وعندما انتقل هذان الاسمان إلى الفارسية تحرفا تدريجياً ليصبحا: «مُرداد» و«خُرداد» وأطلق اسما هذين الملاكين الصالحين على الشهرين الثالث والخامس من السنة [الفارسية]. الكلمات هي من أصل آري بحت وتظهر تحت شكلها الصحيح في اللغة السنسكريتية «سارفاتا وأمريتا» والأولى ترد «سارفاتي» في نموذج «الفيدا» على الرغم من أنها لم تصبح كائنات أسطورية. وتصنِّف أنصاف الآلهة هذه في الأساطير الآرية بوصفها واهبة الخصوبة للأرض، وتم تصويرها على أنها «سبينتا أرميتي» الموكلة بجميع أنواع الثمار. كانت كائنات مقدسة، وكان نزولها إلى الأرض وفقا لإرادة «أورمزد»، كما هو الحال في الأسطورة المحمدية. ولكن في الأصل لم يترافق تنفيذ مهمتها مع أي تفكير بالخطيئة. استعارة الأسمين من الأساطير القديمة من أرمينيا وبلاد فارس، جعلت محمد (أو من رووا له) يخلط بين هذين الملاكين والملائكة الخاطئين في الأساطير اليهودية. كما سنرى في الوقت المناسب[1]، فهو يستمدّ معلومات متشعبة وليست قليلة من الفارسية، وكذلك من المصادر اليهودية، وكان هناك تشابه على نحو ما بين أسطورتين مستقلتين في الأصل تماماً، وهو ما قاده إلى اعتبارهما واحداً والنظر لهما على انهما الشيء نفسه. ومن هنا جاءت الظاهرة الغريبة بظهور ملاكين آريين باعتبارها الفاعل الرئيسي في مشهد مقتبس من التلمود في ملامحه الأساسية.

(١) الفصل الخامس.

أما الفتاة التي تدعى «أستير» في القصة اليهودية فهي الإلهة «عشتار» في بابل القديمة، وتعبد في فلسطين وسوريا تحت اسم: «عشتروت» وكانت إلهة الحب والعاطفة الآثمة، واقترنت لدى اليونانيين والرومان مع «أفروديت» و«فينوس» على التوالي. كما أنها اقترنت كذلك مع كوكب «فينوس» الذي يسميه العرب «الزُهرة» فمن السهل تصور أن اختلاف الأسماء بين اليهودية والحكايات العربية ليست مسألة لحظة، فالشخصيات الأسطورية المشار إليها هي في الواقع واحدة ومتطابقة.

ومن المعروف جيداً أهمية الدور الذي لعبته «عشتار» في الأساطير البابلية والآشورية. ومن المهم أن نورد هنا إحدى حكاياتها العديدة عن العلاقات الغرامية، لأنها سوف تفسر، في جزء منها، أصل قصة «خطيئة الملائكة» ويظهر لنا كذلك لماذا يقالُ أن «الزهرة» أو «أستير» قد تم تمكينها من الصعود، إلى الجنة ولكنها لم تصعد.

تروي لنا الأسطورة البابلية أن «عشتار» وقعت في حب بطل يدعى «جلجامش» الذي جابهها بالصدود:

«لبس جلجامش تاجه. ولما أرادت الإلهة عشتار أن تستميله إليها قالت له: قبِّلني يا جلجامش، ويا ليتك تكون عريسي. أعطني ثمرك عطية، وليتك كنت زوجي وأنا امرأتك فكنت أركب عربة من لازورد وذهب وعجلتاها من ذهب وعريشاها من الماس، وكنا نقطر البغال العظيمة إليها يوماً. فادخل إلى بيتنا مع عطر السرور[١]. غير أن جلجامش سخر من عشتار وأنَّبها ولم يرضَ أن يتخذها زوجة له. وسخر منها بذكر كثير من الأزواج، الذين وصلوا معها إلى سوء الخاتمة».

---

(١) ترجمت من النسخة الأصلية، والتي تمت طباعتها وترجمتها في:
Trans. Soc. Bibl. Archaeology, vol. II., pt. 1., pp. 104, 105, 115.

وتستمر الحكاية بعد ذلك، لتقول لنا: «فاغتاظت الإلهة عشتار وصعدت إلى السموات ومثلت أمام الإله أنو» وهو إله السماء الذي كان يعبده البابليون، وكانوا يعتقدون أن عشتار هي ابنته.

وهنا نرى صعودها إلى السماء المذكورة، تماماً كما في الأسطورة المحمدية، وفي هذه الأخيرة تقوم بإغراء الملائكة بالخطيئة، تماماً كما في الحكاية البابلية عندما تحاول إغراء جلجامش.

في الأدب السنسكريتي أيضاً نجد تشابهاً ملحوظاً جداً لهذه القصة التي ترتبط بالقرآن والحديث. وهي واقعة «سُوندا» و«أُبْسُوندا»[١] في ماهابهاراتا حيث تروي لنا: كان هناك شقيقان «سُوندا» و«أُبْسُوندا» مارسا التقشف والزهد، مما جعلهما مميزين فاستحقا السيادة على كل من الأرض والسماء. ثم بدأ الإله «براهما» بالخوف منهما لئلا يفقد سيادته المطلقة. ولمنع هذا قرر تدمير مُنافسيه. وكان الأسلوب الذي اتخذه هو إغراؤهما بإرسال إحدى عذراوات الجنة، وهي «الحورية» لدى أتباع محمد و«أبساراساس» لدى الهندوسية القديمة. ولذلك فقد خلق حورية في منتهى الجمال اسمها «تيلوتاما» ووهبها للشقيقين. ولما شاهداها أخذها «سوندا» من يدها اليمنى وأخذها «أبسوندا» من اليسرى، وكل منهما يرغب أن تكون زوجته. وتسببت الغيرة بتأجيج الكراهية والعداء في قلوب الأخوين، وكانت النتيجة أن قتل بعضهم بعضاً. بينما عادت «تيلوتاما» إلى «براهما» الذي لاح السرور على وجهه بعدما مكنته من التخلص من منافسيه فباركها وقال: «ستحيطين بجميع الدنيا التي تشرق عليها الشمس، ولا يمكن لأحد أن يفتح عينيه فيك لعظم بهائك وسنى أشعة زينتك وتفوُّق جمالك الرائع الباهر».

---

(١) Sundopasundopákhyânam

نجد في هذه الحكاية ذكراً لصعود الحورية إلى السماء، وعلى الرغم من أن القصة الهندوسية تتفق مع البابلية وتختلف عن تلك المحمدية في تمثيلها على أنها كانت لها منذ البداية علاقة بالأعالي، إلا أن «أبساراساس» تسكن في السماء، وإن كانت كثيراً ما تزور الأرض، بينما كانت عشتار إلهة. الأخوان في الحكاية الهندوسية كانا في البداية على الأرض، على الرغم من أنهما حصلا على سلطة السماء في نهاية المطاف. وهذا ما يجعلهما يبدوان مختلفين للوهلة الأولى عن الملائكة الذي نزلوا من السماء، وفقاً لليهود والخرافات المحمدية. ولكن الفرق طفيف حتى في هذه المسألة، ذلك أن الأسطورة الهندوسية تصور الأخوين منحدرين من آلهة تدعى «ديتي» التي كانت أيضاً أم «موروتس» أو عاصفة الآلهة. وبالتالي فإن التشابه بين هذه الأساطير المختلفة لافت للنظر جداً.

ومع ذلك، لا نستطيع أن نفترض أن الأشكال المختلفة للقصة الحالية بين كل هذه الأمم المختلفة كانت مستمدة جميعها من أصل واحد. ولا شك أن اليهود استعاروا الحكاية، جزئياً على الأقل، وخاصة اسم «عشتار» أو «أستير» وبعض التفاصيل الأخرى، من البابليين، الذين تعلَّموها بدورهم من الأكديين الذين سبقوهم. تم نسيان مصدرها الوثني، وتبنى التلمود الحكاية، وعلى وفق هذا المرجع اليهودي وردت في القرآن والتراث الإسلامي.

إذا كنا نستفسر كذلك كيف استوعب اليهود الأسطورة؟ فالجواب: أنهم فعلوا ذلك من خلال فهم خاطئ لمعنى إحدى الكلمات العبرية في سفر التكوين وهي كلمة طغاة / نيفيلم بالعبري «Nephilim» الواردة في سفر التكوين السادس. ١-٤ والتي من المفترض أنها مشتقة من الفعل «naphal» «يسقط».«To fall» فسرها جوناثان بن عزيئيل في كتابه على أنها

تعني «الملائكة الساقطة» ومما لا شكّ فيه أنه كان يتبنى الأصل الحالي للكلمة. وبسبب أصل الكلمة كانت القصة في جزء منها مخترعة، وفي الجزء الآخر منها (كما رأينا) استعارها عوام اليهود من الأساطير البابلية، وغالباً بنفس الطريقة المتهافتة التي سبق أن أشرنا إليها، في أصل كلمة «أور» التي انبثقت في قصة خلاص إبراهيم من «أتون نار الكلدانيين».

ومن هنا نجد أن جوناثان في تفسيره للتكوين السادس. ٤ يفسر كلمة طغاة قائلاً: (أن «شمحزاي» و«عزائيل» هبطا من السماء وكانا على الأرض في تلك الأيام) وقد نشأت هذه الأسطورة بالفعل في «المدراش يالكوت» من هذا الخطأ الفادح.

ومع ذلك، حتى قبل قبول الاشتقاق المفترض لكلمة «طغاة / نيفيليم» من معنى فعل «السقوط» فلم يكن من الضروري شرح أصل الاسم في مثل هذه الطريقة: يتصرف «ترجوم أونكيلوس» بحكمة أكثر من خلال فهم «طغاة» على أنهم سموا كذلك لأنهم كانوا أشخاصاً يسقطون بعنف على العاجزين ويقمعونهم. ومن هنا يترجم هذا الترجوم كلمة واحدة تعني «الرجال القساة» أو الطغاة[١]. ورفض آخرون من المتأخرين اشتقاق الكلمة من «naphal» «السقوط»، ويفضل ربطه بالكلمة العربية «نبيل» التي تعني أيضاً: «الماهر في الرماية». وبعد هذا كله، قد تكون الكلمة مثل العديد من الأسماء في الفصول المبكرة من

---

(١) ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أن ترجوم السامري عن أسفار موسى الخمسة (الذي نشره الدكتور أدولف برول، فرانكفورت، ١٨٧٥) يعطي التفسير نفسه عملياً. وهو يعيد صياغة «أبناء الله» بـ «أبناء الحكّام». وهكذا يرد النص العبري:

ויעגלי ברי שלטניה ית בנאת אנשה הלא שפירין אנוי

וגיבריה הוו בארעה ביומיה אנון ואף בתר כן די יעלון ברי שלטניה לות בנאת האדם ואולדו להון אנון גבריה דמן עלם גברי עדיפה:

سفر التكوين، من أصل سومري، ولا علاقة لها بأي جذر في اللغات السامية.

وبما أن أكثر الجهلة من اليهود كانوا يعشقون الخرافات، فقد نمت قصة الملائكة الذين سقطوا في الخطيئة أكثر وأكثر بصورة غريبة وعجيبة. ففي البداية جرى الحديث عن ملاكين هبطا فسقطا في الخطيئة، وكان هذا من قبيل المبالغة في الحكاية البابلية عن محاولة عشتار إغراء جلجامش وحده. ولكن العدد ازداد في الحكايات اليهودية لاحقاً، وصولاً إلى رواية في كتاب «أخنوخ» المنتحل تقول إن عدد الملائكة الذين أنزلوا من السماء بلغ ٢٠٠، وأنهم جميعاً طردوا بسبب الخطيئة مع النساء. المقتطف التالي من هذا الكتاب لا يقل أهمية عن رواية الأسطورة التي نقلت بشكلها الكامل. كما انه يكشف عن اتفاقه مع ما ورد في آخر الأسطورة اليهودية في «المدراش يالكوت» وكذلك في القرآن، في المقطع الذي سننظر فيه لاحقاً: «وحصل انه حين تكاثر البشر، ولد، في تلك الأيام بنات غضات وجميلات. نظر لهن الملائكة، أبناء السماء، اشتهوهن، وقال الواحد منهم للآخر: تعالوا، لنتخذ لأنفسنا زوجات من بنات البشر، وننجب منهن أبناءً لنا. وقال لهم «شمحزاي» رئيسهم: أخاف أن تتراجعوا عن القيام بذلك الفعل، فأكون وحدي مرتكباً للخطيئة الكبرى فأجابوه جميعاً: نقسم يميناً، بأن نلتزم جميعاً ولا نتراجع عن هذه النية حتى ننجز فعلها، فأقسموا جميعاً وحرَّموا أنفسهم بأن لا يتراجعوا عن هذه النية». وبعد ذكر أسماء رؤساء الملائكة المتمردين، تسير القصة على النحو التالي: «واتخذوا لأنفسهم زوجات: اختار كل منهم زوجة لنفسه،... وأنهم علموهم العقاقير والسحر وعلم النبات، وأروهن الأعشاب... وعلم عزائيل البشر صناعة السيوف والحراب والتروس والدروع كما تعلمها من الملائكة، ودلَّهم

على المعادن وطريقة الاشتغال بها، وكيف يصنعون الأساور والحلي والكحل وغسول العين وجميع أنواع الأحجار الكريمة والصبغ»[1]. هذه القصة عن أصل الحلي النسائية هي نفسها التي وجدناها في المدراش (أنظر أعلاه،). وهي تمكننا من فهم معنى المقطع التالي من القرآن، والتعرف على مصدره، وهو يتحدث عن هاروت وماروت، ويقول محمد إن البشر «يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ويضيف: وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ»[2].

ليس من الضروري تقديم أي دليل آخر على أن قصة هاروت وماروت أخذت من مصدر يهودي، على الأقل في أغلب تفاصيلها الأساسية، على الرغم مما نراه في أسماء هذه الملائكة من قوة التأثير الأرمني وربما الفارسي. لقد رأينا أيضاً أن اليهود استمدُّوا صيغتها من الأساطير البابلية، وأن قبولهم لذلك كان إلى حد كبير بسبب سوء فهم حول معنى كلمة عبرية في سفْر التكوين.

وقد حثَّ بعض المسيحيين على فهم التكوين. ١-٤، بالمعنى نفسه الذي ذهب إليه اليهود أو ما زالوا يذهبون إليه، وربما كان هذا الرأي صحيحاً، ولكن حتى بقبول هذا كله، فمن الواضح من المصدر المحرَّف أن محمد أخذ هذه القصة التي لا يمكن أن تكون صحيحة، في شكلها الذي يرتبط بالقرآن والأحاديث.

---

(١) المجتزءات اليونانية من كتاب أخنوخ، الفصول من السادس إلى الثامن، يعطي الدكتور سويت أيضاً نفس مقاطع سانسيلوس. في بحثي «يا نبي الإسلام» بالفارسية اقتبست وترجمت النص عن الأثيوبية، حيث لم تكن لغتي اليونانية، متقنة تماماً في ذلك الوقت.

(٢) السورة الثانية (سورة البقرة، الآية ١٠٢).

٥ ـ أمثلة أخرى

لا يمكننا أن نذكر بنفس الاسهاب في التفاصيل جميع النقاط الأخرى التي استعارها القرآن من الأساطير اليهودية. إن دراسة ما يتعلق بالقرآن في إشارة ليوسف وداود وشاول (طالوت)، على سبيل المثال، سوف تظهر مدى اختلاف هذه الروايات عما جاء به الكتاب المقدس عن هؤلاء الأشخاص في معظم الحالات، إن لم يكن في جميعها. ويكمن سبب الاختلاف في قصة الكتاب المقدس في حقيقة أن محمد اتبع الأساطير اليهودية السائرة في زمنه، بدلاً من التاريخ الحقيقي لهؤلاء الأشخاص كما ورد في النص المقدس. في بعض الأحيان أساء فهم الأساطير، أو قام بتضخيمها من الخيال أو من مصادر أخرى. لكن الأساطير التي قدمت فعلاً بشيء من الإطالة ستكون بمثابة نماذج عن جميع الأساطير الأخرى المماثلة.

ننتقل الآن للتعامل مع الحالات الأخرى التي تظهر بوضوح أن القرآن مدين بها إلى الأساطير اليهودية.

في السورة السابعة (الأعراف، ١٧١) نقرأ: «وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» يخبرنا «الجلالين» وغيره من التفاسير المحمدية من خلال تفسير هذه الآية بأن الله رفع أعلى الجبل (سيناء) من أساسه وأصله ووضعه

فوق رؤوس بني إسرائيل في البرية، مهدِّداً بوقوعه عليهم وسحقهم إذا لم يتقبلوا الوصايا الواردة في شريعة موسى. التي سبق أن رفضوا العمل بها في وقت سابق، بسبب ثقلها عليهم. ولكن عند سماع هذا التهديد تلقى بنو إسرائيل الأحكام. ثم تكلم الله بقية الكلام الوارد في الآية السابقة. ويشار كذلك إلى الأسطورة نفسها في السورة الثانية، سورة البقرة، ٦٠، ٨٧.

ويوجد أصل هذه القصة في الكتاب اليهودي «عبوداه زاراه» الفصل الثاني ونصها: «حيث قيل لنا أنه في تلك الحادثة (لكي يمثل الله قوله لبني إسرائيل) قد سترتكم بالجبل كغطاء».

وكذلك نقرأ في السبت (ص ٨٨، ١) «تعلمنا هذه الكلمات أن القدوس، تبارك، قلب الجبل فوقهم كأنه القِدْر، وقال لهم: إن تتقبلوا التوراة، فخيراً: وإلا سيكون هنا قبركم».

ولعل من نافلة القول إنه لا يوجد مثل هذه الخرافة في أسفار موسى الخمسة. وإنما نشأت من خطأ المفسر اليهودي، الذي أساء فهم كلمات الكتاب المقدس. في الخروج. الثاني والثلاثين: ١٩.

فنحن نعلم أنه عندما نزل موسى من الجبل ولوحا الحجر في يديه، ورأى أن بني إسرائيل يعبدون العجل الذهبي الذي صنعوه. غضب من هذا المنظر المشين، وطرح اللوحين من يديه وكسرهما عند أسفل الجبل.

ويخبرنا الفصل التاسع عشر. ١٧ أنه حين أعطى الله القانون لموسى كان قومه «يقفون في الجزء السفلي من (أو تحت) الجبل» وفي كل الأحوال فإن العبارة تعني «عند سفح الجبل». ولكن يهود العصور المتأخرة المولعين بالغرائب اختاروا الفهم السيئ للعبارة، فشرحوها بـ «تحت الجبل» فاخترعوا حكاية رفع الجبل فوق رؤوس البشر، وعلى

أية حال فهذه الحكاية تشبه إلى حد كبير أسطورة هندوسية وردت في «كتب سانسكريت» بخصوص «كريشنا» أحد آلهتهم، وتقول تلك الأسطورة أن كريشنا أراد ذات يوم أن يقي سكان مدينة «جوكولا» مسقط رأسه من الأمطار الشديدة فرفع جبلاً اسمه «غوفاردانا» من قاعدته الحجرية، وهو أعظم كل الجبال، وعلَّقه سبعة أيام وسبع ليال بأطراف أصابعه فوق رؤوسهم كمظلة!

لا يمكننا أن نفترض أن اليهود اقتبسوا هذه القصة من الهندوس، ولكن من الواضح أن محمداً استمدَّ الحكاية المشار إليها في القرآن من مصادر يهودية، بينما انساق اليهود إلى قبول أو اختراع القصة من خلال التبني الحرفي[1] لمعنى غير طبيعي للعبارة العبرية «أسفل الجبل».

ليست هذه القصة هي الوحيدة الغريبة التي ترد في القرآن فيما يتعلق بما جرى لبني إسرائيل خلال إقامتهم في البرية. وليس أقلّ غرابة منها ما يذكره القرآن عن العجل الذي صنعوه ليعبدوه أثناء غياب موسى، إذ تخبرنا سورة طه[2]، أنه عندما عاد موسى ولام قومه على هذا الفعل: «قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا [في النار]: فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ». ويقول تفسير الجلالين أن العجل كان مخلوقاً من لحم ودم، وأنه خواره كان قوياً لأنَّه مُنِحَ الحياة بحفنة من الغبار من أثر حافر من فرس جبريل، كان «السامري» قد جمعها ووضعها خلال شهر، وفقاً للآية ٩٦ من نفس السورة.

---

(١) لكي ننفهَّم هذا بشكل أفضل، ما علينا إلا النظر في مقدار الخطأ الذي أدخل في الكنيسة المسيحية من خلال تعبير مشابه «هذا هو جسدي».

(٢) آية ٨٦؛ راجع السورة السابعة: ١٤٨.

وهذه الأسطورة مأخوذة من اليهودية أيضاً، كما هو واضح من المقتطف التالي الذي نترجمه من كتاب «فرقي ربي أليعازار» (فصل ٤٥): وهذا العجل خرج خائراً فرآه بنو إسرائيل. وقال «الحاخام يهوداه»: «إن سمائيل كان مختفياً في داخله وكان يخور ليغش إسرائيل» فكرة أن العجل كان قادراً على الخوار على الرغم من أنه مصنوع من الذهب مأخوذة من (سفر الخروج. الثاني الثلاثون ٤): «فَأَخَذَ ذٰلِكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَصَوَّرَهُ بِالإِزْمِيلِ، وَصَنَعَهُ عِجْلاً مَسْبُوكاً. فَقَالُوا: هٰذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ». وكان حياً لأنه «تولَّد» من النار (الآية ٢٤) «فَقُلْتُ لَهُمْ: مَنْ لَهُ ذَهَبٌ فَلْيَنْزِعْهُ وَيُعْطِنِي. فَطَرَحْتُهُ فِي النَّارِ فَخَرَجَ هذَا الْعِجْلُ» هنا، نرى من جديد أن استخدام التعبير التجسُّدي، عندما أخذ حرفياً، أدَّى إلى نمو أسطورة تفسِّر ذلك. إذ يفسر المفسرون المحمديون عبارة «عجل جسد» في القرآن على أنها تدل أنه من «لحم ودم» بل ذهبوا خطوة أخرى للإمام، وذلك لتفسير كيف يمكن أن يكون لهذا الحيوان خوار. ويبدو أن مّحمد فهم معظم الأسطورة اليهودية بشكل صحيح، ولكن كلمة «سمائيل» سببت له حيرة، فلم يفهم أن هذا هو الاسم اليهودي لملك الموت، وربما هي مضللة في طريقة نطقها، فأخطأ بكلمة تشبهها إلى حد ما «السامري» والتي تعني «المنتسب للسامرة» وقد ارتكب هذا الخطأ بطبيعة الحال لأنه يعرف أن اليهود كانوا أعداء السامريين، فعزا صنع العجل إلى أحد هؤلاء السامريين. وأغلب الظن أنه اعتقد ذلك بفعل شيء من الذاكرة المشوَّشة حيث سمع أن «رحبعام» ملك ما كان يسمى بعد ذلك «السامرة» قد «جعل بني اسرائيل يقعون في الخطيئة» عندما قادهم إلى عبادة العجول التي صنعها ووضعها في «دان وبيت إيل» (١ الملوك الثاني عشر. ٢٨، ٢٩).

ولكن بما أن مدينة السامرة لم تُبنَ، أو على الأقل لم تسمَّ بهذا

الاسم، إلا بعد وفاة موسى بمئات من السنين، فالمفارقة التاريخية مسلية على الأقل، وستكون مدهشة في أي كتاب آخر غير القرآن الذي يتضمن الكثير منها غالباً.

ويظهر لافتاً هنا، كما هو الحال في عدد كبير جداً من الأمثلة الأخرى، عدم معرفة محمد بالكتاب المقدس من جهة واطلاعه على الأساطير اليهودية بدلاً من ذلك. ومن نافل القول أن نشير إلى أن صانع العجل الذهبي في التوراة هو هارون، ولا نقرأ شيئاً عن أي من «سيمائيل» أو «السامري».

ونقرأ في السورة الثانية (سورة البقرة، ٥٦/٥٥): «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

هذه الخرافة مستعارة من اليهود كذلك، إذ تخبرنا «رسالة السنهدرين» الفقرة ٥، عن الذين ماتوا من سماع الصوت الإلهي (في الرعد)، إلا أن التوراة نفسها شفعت لهم فأعيدوا إلى الحياة. وإذا كان من الضروري البحث عن أساس لمثل هذه خرافة، فسنجدها في كلام اليهود في سفر الخروج. ٢٠./ ١٩: «تكلم أنت معنا فنسمع. ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت (راجع كذلك سفر التثنية. ٥/ ٢٥) «إن عدنا نسمع صوت الرب إلهنا أيضاً نموت».

يؤمن جميع المسلمين بأن القرآن كتب على «لوح محفوظ» قبل فترة طويلة من خلق العالم. واعتقادهم هذا جاء استناداً إلى ما ورد في السورة الخامسة والثمانين، البروج، ٢١، ٢٢، «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ».

والغريب أنهم لا يعتقدون أن المزامير هي من العصور القديمة نفسها، مع أنه في السورة الحادية والعشرين (الأنبياء، ١٠٥) يصف الله

ذلك في قوله «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ» الإشارة هنا إلى المزمور. السابع والثلاثين. ١١، ٢٩، «أما الودعاء فيرثون الأرض» هذا هو النص الوحيد من العهد القديم الذي اقتبسه القرآن فعلاً، رغم أن هناك نحو ١٣١ آية أو مقطعاً في القرآن ترد فيها تسمية التوراة، والزبور، والإنجيل، وبإجلال دائماً، وكثيراً ما أكد أن الله «أنزلها» على أنبيائه ورسله.

بالنسبة لمعظم الناس يبدو واضحاً أن الكتاب لا يمكن أن يقتبس منه ويشار إليه كمرجع إلا بعد أن يؤلف، وبالتالي فإن أسفار الكتاب المقدس موجودة قبل القرآن. والتاريخ يخبرنا أن هذا هو الحال فعلاً. لكننا لا نجد لمثل هذا الاعتبار أية أهمية لدى المسلمين الذين ما زالوا يتشبَّثون بتأكيدهم أن القرآن موجود منذ عصور طويلة قبل زمن محمد، وإنه كتب على «لوح محفوظ». وحين نشرع في البحث عما ترويه لنا أحاديثهم المتواترة في تفسير هذه العبارة، نجد الجواب في هذه الراوية التي وردت في قصص الأنبياء (ص ٣ و٤): «ومن تحت العرش خلق (الله) لؤلؤة، ومن تلك اللؤلؤة خلق اللوح المحفوظ، وارتفاعه سَفَر سبعمائة سنة وعرض سَفَر ثلاثمائة سنة، وكان مرصَّعاً بالياقوت الأحمر. ثم بقوة الله تعالى صدر الأمر إلى القلم: اكتب علمي في خلقي وما هو كائن إلى يوم القيامة -كتب أولاً في اللوح المحفوظ: بسم الله الرحمن الرحيم، أنا الله لا إله إلا أنا. من يستسلم لقضائي ويصبر على بلائي ويشكر على نعمائي كتبتُه وبعثتُه مع الصديقين. ومن لم يرضَ بقضائي ولم يصبر على بلائي ولم يشكر على نعمائي فليطلب رباً سوائي، ويخرج من تحت سمائي[1]. ثم كتب القلم علم الله في خلق الله تعالى

(١) انظر أرميا: ١٠/١١.

كل شيء أراده إلى يوم البعث، حتى مقدار تحريك الشجرة أو نزولها أو صعودها وكتب كل شيء مثل هذا بقوله تعالى».

وفكرة اللوح المحفوظ مستعارة من اليهود. إذ يخبرنا سفر التثنية (العاشر ١-٥) أنه عندما أمر الله موسى أن ينحت لوحين من الحجر مشابهين لتينك اللذين كان قد كسرهما، كتب الله عليهما الوصايا العشر، وأمر موسى بالحفاظ عليها في تابوت من شيتيم «shittim» أو خشب السنط. الكلمة العبرية للوح المستخدمة هنا متطابقة مع العربية. (١ الملوك الثامن. ٩، والعبرانيين. التاسع. ٣، ٤) ونحن نعلم أن هذين اللوحين تم الاحتفاظ بهما في تابوت العهد الذي صنعه موسى بأمر من الله. هذه هي القصة التي تسرد اللوح المحفوظ المدرج مع وصايا الله، وبقوته نشأت تدريجياً بين اليهود وبعد ذلك بين أتباع محمد. وقد ورد في سورة البروج: ٢١، ٢٢، وذكرت أعلاه، فمن الواضح أنه لم يكن هناك لوح واحد فحسب، في عقل محمد، بل اثنان على الأقل لأن العبارة في العربية وردت بصيغة النكرة «لوح محفوظ» وليس «اللوح المحفوظ» معرفاً، كما يفهمه المحمديون في وقتنا الحاضر. لذلك كان لا بد من إشارة إلى اللوحين الحجريين اللذين أعدَّهما موسى والمحفوظين في تابوت العهد. ولما كانت هذه الألواح محفوظة في الهيكل الذي يرمز إلى حضور الله مع شعبه، فمن الطبيعي أن يجري الحديث عنها بأنها محفوظة بوجود الله. ومن هنا كان أصل الوهم أنها ألواح محفوظة في السماء، ولم يكن صعباً استنتاج قِدَمها من هذا الاعتقاد[1].

---

(١) جاء في سفر التثنية (العاشر ١-٥): «فِي ذلِكَ الْوَقْتِ قَالَ لِيَ الرَّبُّ: انْحَتْ لَكَ لَوْحَيْنِ مِنْ حَجَرٍ مِثْلَ الأَوَّلَيْنِ، وَاصْعَدْ إِلَيَّ إِلَى الْجَبَلِ، وَاصْنَعْ لَكَ تَابُوتاً مِنْ خَشَبٍ *=

ولكن لماذا يؤكد محمد أن القرآن قد كتب على «لوح محفوظ»؟ للإجابة على هذا السؤال لا بد من العودة من جديد إلى اليهود لمعرفة الاعتقاد الشائع، سواء في زمن محمد أو قبله، عما كتب على اللوحين المحفوظين في تابوت العهد. ومع أن سفر التثنية ينص بوضوح على أن الوصايا العشر هي المكتوبة فقط، على هذين اللوحين، إلا أن اعتقاداً آخر نشأ لدى اليهود بعد فترة من الزمان بأن جميع كتب العهد القديم وكذلك التلمود كله كُتبت عليهما أو على الأقل نظر جدياً على انها حفظت إلى جانب اللوحين. فلما سمع محمد هذه المقولة التي قدَّمها اليهود عن كتبهم المقدسة، كان من الطبيعي بالنسبة له التأكيد بأن وحيه قد كتب هو الآخر على أحد هذين اللوحين المحفوظين، وإلا فليس بوسعه الادعاء أنه على درجة من المرجعية مساوية لتلك التي في العهد القديم. ومن المحتمل أن المسلمين وبسبب عدم فهمهم لما تعنيه عبارة «لوح محفوظ» اختلقوا تدريجياً كامل القصة الخرافية عن هذا الموضوع.

للتأكد مما يعتقده اليهود عن مضامين هذين اللوحين علينا مراجعة «رسالة براكوث»: حيث نقرأ للحاخام شمعون بن لاقيش: أما الذي كتب فهو: فَأُعْطِيَكَ لَوْحَيِ الْحِجَارَةِ وَالشَّرِيعَةِ وَالْوَصِيَّةِ الَّتِي كَتَبْتُهَا لِتَعْلِيمِهِمْ» (الخروج ٢٤: ١٢) واللوحان هما الوصايا العشر والتوراة هي التي تُتلى، والوصية هي «المشناه» والتي كتبها هي «الأنبياء والكتب»

=فَأَكْتُبُ عَلَى اللَّوْحَيْنِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى اللَّوْحَيْنِ الأَوَّلَيْنِ اللَّذَيْنِ كَسَرْتَهُمَا، وَتَضَعُهُمَا فِي التَّابُوتِ * فَصَنَعْتُ تَابُوتاً مِنْ خَشَبِ السَّنْطِ، وَنَحَتُّ لَوْحَيْنِ مِنْ حَجَرٍ مِثْلَ الأَوَّلَيْنِ، وَصَعِدْتُ إِلَى الْجَبَلِ وَاللَّوْحَانِ فِي يَدِي * فَكَتَبَ عَلَى اللَّوْحَيْنِ مِثْلَ الْكِتَابَةِ الأُولَى، الْكَلِمَاتِ الْعَشَرَ الَّتِي كَلَّمَكُمْ بِهَا الرَّبُّ فِي الْجَبَلِ مِنْ وَسَطِ النَّارِ فِي يَوْمِ الاجْتِمَاعِ، وَأَعْطَانِيَ الرَّبُّ إِيَّاهَا * ثُمَّ انْصَرَفْتُ وَنَزَلْتُ مِنَ الْجَبَلِ وَوَضَعْتُ اللَّوْحَيْنِ فِي التَّابُوتِ الَّذِي صَنَعْتُ، فَكَانَا هُنَاكَ كَمَا أَمَرَنِيَ الرَّبُّ.» [م].

ولتعلمهم «الجمارا» ويُستفاد من هذا أنه أوحى جميعها لموسى من جبل سيناء.

كل يهودي متنور في الوقت الحاضر يعترف بأن علينا أن نرفض هذا التفسير السخيف للآية المذكورة، لأنه يعلم أن «الميشناه» جمعت حوالي سنة ٢٢٠ ميلادي وكُتب «الجمارا الأورشليمي» نحو سنة ٤٣٠م، وكُتب «الجمارا البابلي» نحو سنة ٥٣٠م. ولأنَّ المسلمين لا يعرفون هذا فيبدو أنهم قبلوا ضمنياً هذه الادعاءات على أنها صحيحة، وطبقوها على قرآنهم أيضاً.

ولاستكمال الدليل على أن كتابة القرآن على لوح محفوظ هي أسطورة مصدرها يهودي، فإنه يبقى فقط أن أذكر أنه ورد في «فرقي أبوت» (باب ٥ وفصل ٦) أن هذين اللوحين مع تسعة أشياء أخرى خُلقت في الوقت الذي خُلِقَ فيه العالم، وقت غروب الشمس قبل أن يبدأ السبت الأول.

ومن المعروف جيداً أن «جبل قاف» الخرافي يلعب دوراً هاماً في الأسطورة المحمدية. وتسمى السورة الخمسون من القرآن باسمه «سورة ق». وهي تبدأ بهذا الحرف. ومن هنا يفترض أن يشير اسمها إلى اسم الجبل المقصود. تفسير «عباسي»[1] يستحسن هذا التفسير وينقل الأحاديث المتوارثة عن ابن عباس لدعمه. يقول ابن عبَّاس: «ق جبل أخضر يحيط بالأرض، وخضرة السماء منه: وبه أقسم الله»[2] وكذلك

(١) المصدر فارسي، وهو تفسير: «تحفه عباسي» لمؤلفه عبد الصمد بن الشريف عبد الباقيَ الكشميري [م].

(٢) يقول تفسير الجلالين: «الله يعلم ما تعنيه قاف».

يوضح صاحب «عرائس المجالس»[1] هذه الكلمات بشكل أكثر تفصيلاً: «خلق الله تعالى جبلاً عظيماً من زمرد أخضر وخُضرة السماء منه، يُقال له جبل قاف فأحاط بها كلها (أي الأرض) وهو الذي أقسم الله به فقال» ق والقرآن المجيد»[2].

وورد في «قصص الأنبياء: ص ٥» أن عبد الله بن سلام سأل محمداً: ما هي أعلى قمة في الأرض؟ قال: هي جبل قاف. فقال: جبل قاف ممَّ هو؟ فقال: من زمرد أخضر وخضرة السماء هي منه. وبعد أن عبَّر السائل عن اعتقاده بأن «رسول الله» قد صدق في هذه المسألة قال: ما هو ارتفاع جبل قاف؟ فأجابه: إنه سَفَر خمسمائة سنة (في الارتفاع). فسأل عبد الله: كم هي المدة التي يقطع الإنسان فيها محيطه؟ فقال: إنها سَفَر ألفي سنة».

لسنا محتاجين للدخول في جَميع الملابسات الأخرى ذات الصلة بهذه المجموعة الخرافية من الجبال التي تمتلئ بها الأساطير الإسلامية. ولكن إذا كان لنا أن نتساءل عن أصل أسطورة وجود مثل هذه المجموعة من الجبال، سنجد الإجابة في الكتاب اليهودي «حكيكاه» (باب ١١ وفصل ١) في تفسير الكلمة العبرية «توهو» النادرة الاستعمال، وقد وردت في سفر التكوين ١ : ٢. ويقول كتاب حكيكاه: «توهو هو الخط الأخضر الذي يحيط العالم بأسره، ومنه تنبعث الظلمة «فالكلمة العبرية التي ترجمناها «الخط» هي «قاف» فلما سمع محمد وأصحابه قصة «قاف» لم يعرفوا أن معناها: خط، وتوهَّموا أنها سلسلة جبال

---

(١) ص ٧ و٨.

(٢) السورة ١/٥٠.

عظيمة اسمها «قاف» تنبعث منها الظلمة. ولعل من الضروري القول إن الجغرافيين استكشفوا العالم كله، ولم يكتشفوا حتى الآن سلسلة جبال[1] ينطبق عليها الوصف الوارد في الأحاديث المحمدية عن «جبل قاف».

ولا بد أن نشير كذلك إلى وجود بضعة أفكار أخرى من الأفكار الكثيرة ذات الأصول اليهودية الواضحة والتي وجدت مدخلاً لها إلى القرآن والأحاديث.

في السورة السابعة عشرة (الإسراء: ٤٤) إشارة إلى سبع سماوات[2] وفي السورة الخامسة عشرة، الحجر: الآية: ٤٤ حديث عن الأبواب السبعة للجحيم. وتستمد هذه المعلومات من الأحاديث اليهودية. في كتابين الأول يسمى «حكيكاه» (باب ٩ فصل ٢) وثانيهما «زوهر» (فصل ٢ ص ١٥٠).

ومن الجدير بالملاحظة أن الهندوس يعتقدون بوجود سبع دركات تحت الأرض وسبع طبقات فوقها. وكل من هذين القسمين مستند على رأس من رؤوس ثعبان ضخم اسمه «سَيشا» له ألف رأس.

السماوات السبع متماثلة مع مدارات الشمس والقمر وكواكب عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل، أن لم نقل هي نفسها تماماً، وكان الاعتقاد السائد زمن محمد أنها تدور حول الأرض. وفقاً لأحاديث محمد التي تقول: إن الأرضون لها سبعة طبقات[3] تقع بين قرني ثور له

(١) راجف الأفيستا جبال بيريز:

Cf. Avestic Mt. Berez (Kanga's Avestic Dict., s. v.).

(٢) كذلك في السورة ٣/٦٧، والسورة: ١٢/٧٨.

(٣) انظر «عرائس المجالس ص: ٩/٥.

أربعون ألف قرن، بين كل قرن وآخر سفر ٥٠٠ سنة. وهذا الثور له العشرات من العيون، والأنوف والأذان والأفواه والألسنة مثلما لديه كل تلك القرون. أما قدماه فتقفان على حوت، يسبح في الماء العميق بمقدار رحلة أربعين عاماً. بينما مرجع آخر يقول إن الأرض وضعت أولاً على رأس ملاك يضع قدميه على صخرة هائلة من ياقوت، ويسنده الثور. هذه الفكرة عن العلاقة بين الأرض والثور هي من أصول آرية على الأرجح(١).

الأسطورة التي تصور الأرض مؤلفة من سبع طبقات ربما ترجع إلى الرغبة في تصويرها تشبه السماء في هذا الصدد. ومع ذلك، فقد نشأت من سوء فهم للبيان الفارسي، فقد وجد في «الأفيستا» أن الأرض تتكون من سبعة «Karshvares» وهي مساحات شاسعة من الأرض تعرف الآن باسم «الأقاليم السبعة». (وهكذا في اليشت التاسع عشر. الفقرة ٣١،) يقال أن «ياما خشائته» أو «جمشيد» قد حكم على الأرض السبعة، وهذه تتوافق مرة أخرى مع جزر الجغرافيا الهندوسية [dvipas] ومع ذلك، من الخطأ أن يتوهم أن كل من هذه الأقاليم تقع تحت الأخرى، إلا بقدر ما يكون الأول من الأقاليم السبعة هضبة جبلية مرتفعة، بينما يكون البعض الآخر أراضي منخفضة.

في السورة الحادية عشرة (هود، ٧) وفي الإشارة إلى «عرش الله» يرد أنه قبل خلق السماوات والأرض «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء» أي في

---

(١) في اللغة السنسكريتية (الثور، البقرة) يقود الأرض في ماهابهاراتا، رامايانا. ويتم استخدام نفس الكلمة في الأفيستا (gao) وكذلك: (gao-speñta) «البقرة المقدسة» تستخدم بشكل مشابه. وفي اليونانية: (βου) و(γαια, γη) وفي الألمانية والقوطية: (Kuh, cow)، وفي كل منها يمكن تتبع نفس العلاقة من الأفكار.

الهواء[1]. وهذا يرد أيضاً لدى المفسر اليهودي «راشي» -اختصار لرابي شلومو يتسحاقي-في معرض تفسيره للتكوين ١ : ٢» حيث يجسد الأحاديث اليهودية المعروفة، ويقول ما يلي: «إن العرش المجيد استقر في الهواء، وعام على المياه»

ويروي لنا الكتاب المحمديون إن الملاك «مالك» الذي ورد اسمه في السورة الثالثة والأربعين (الزخرف آية: ٧٧) هو رئيس الملائكة التسعة عشر وهم «خَزَنة النار» في السورة الرابعة والسبعين (المدثر آية ٣٠) وهو ما يسميه اليهود في كثير من الأحيان بـ «أمير الجحيم» ولكن المسلمين قد اقتبسوا اسم مالك من (مولك)، وهو أحد الآلهة المذكورين في الكتاب المقدس وكان في السابق يعبد من قبل الكنعانيين الذين أحرقوا البشر أحياءً تكريماً له. وهو اسم فاعل باللغة العبرية كما في العربية وتعني «الحاكم».

يرد في السورة السابعة (الأعراف، الآية: ٤٤) إن بين السماء وجهنَّم هناك منطقة تسمى بنفس اسم هذه السورة التي اكتسبت عنوانها في الواقع من ذكر الأعراف في متنها «وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ» وهذه الفكرة مستمدة من المدراش «في تفسير سفر الجامعة ٧: ١٤» أنه لما سألَ بعضهم: ما هي المسافة بين السماء وجهنم؟: أجاب الحبر يوحانان: «إن بينهما حائطاً». وقال الحبر أخاه: «إنها مسافة شبر». وقال أحبار آخرون: «إنهما متقاربان بحيث تنفذ أشعَّة النور من أحدهما إلى الآخر» وربما أخذت هذه الفكرة من كتاب «الأفيستا» للزرادشتيين (أي قدماء الفرس) حيث ذكر هذا التقسيم بين السماء والجحيم تحت

(١) «الجلالين» و«عبّاسي».

اسم «ميسوانوغاتوس» (فركند ١٩) وهو يعادل الأعراف في لغتهم فهو المكان «المخصص لأرواح أولئك الذين تتعادل أعمالهم من الفضيلة والرذيلة مع بعضها»[١]. واسمه باللغة البهلوية «مسوات غاس» ورأى الزرادشتيون أن المسافة بين السماء والجحيم هي نفسها ما بين النور والظلمة. وهكذا جرى تمرير فكرة وجود مكان خاص محجوز لأولئك الذين تتساوي كفة أفعالهم الحسنة والقبيحة إلى الأديان الأخرى.

في السورة الخامسة عشرة الحجر، الآية: ١٨، وهي تتعلق بالشيطان وغيره من الملائكة الذين وقعوا في الخطيئة يرد أن هؤلاء يسعون إلى «استراق السمع» لمعرفة الأوامر التي يصدرها الله للملائكة في السماء. وتتكرر الفكرة نفسها في السورة السابعة والثلاثين، الصافات، ٨، وفي السورة السابعة والستين، الملك الآية: ٥، وهذا المعتقد يأتي من اليهودية، إذ ورد في كتاب «حكيكاه» (باب ٦ فصل ١) عن الشياطين أنهم ينصتون من وراء حجاب ليطّلعوا على الحوادث المستقبلة. ويصور القرآن النجوم «رجوماً» ألقتها عليهم الملائكة، لطردهم.

في السورة الخمسين: ق، آية: ٢٩، يصور الله يوم القيامة بقوله: «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ» وهو صدى لما نقرأه في كتاب «أوثيوث» للحاخام عقيباه حيث يرد على لسان أمير الجحيم: يقول يوماً فيوماً: أعطني طعاماً حتى أستكفي» ويحيل هذا العمل اليهودي إلى (سفر أشعيا.٥ آية ١٤ في أثبات صحّة الحجة.

في السورة الحادية عشرة، (هود، الآية: ٤٠) وكذلك في السورة

---

(١) Kanga's Avestic Dictionary, s. v., p. 408.

الثالثة والعشرين (المؤمنون، ٢٧) يرد أنه في عهد نوح: «فَارَ التَّنُورُ». وهذا يشير بلا شك إلى المعتقد اليهودي في كتاب «روش هشاناه» فصل ١٦ : ٢ وفي رسالة تسمى «سنهدرين» فصل ١٠٨ «إن جيل الطوفان دينوا بالماء المغلي» وكل ما جاء في القرآن حول الطريقة التي سخر بها الكافرون من نوح مأخوذ من هذا الفصل من «رسالة السنهدرين» ومن مفسرين يهود آخرين. وربما من جهل مفسر الجلالين للآية ٤٠ من السورة الحادية عشرة «هود» حيث يقول ان «التنور فارَ» «للخبَّاز بالماء» وأن هذا كان هذا علامة لنوح أن الطوفان كان وشيكاً.

إذا كانت ثمة حاجة إلى دليل آخر على المدى الواسع لتأثير الأحاديث اليهودية على الإسلام فإنه يمكن تقديمه من حقيقة جديرة بالذكر جداً فبالرغم من أن المسلمين تباهوا بأسلوب القرآن ونقاء لغته اللغة العربية وإعجازها كدليل على الأصل الإلهي للكتاب، إلا أننا نجد أنه يحتوي على بعض الكلمات غير العربية على الإطلاق، ولكنها مشتقّة من الآرامية أو العبرية أو الكلدانية. ومنها: تابوت -جنة عدن -جهنم -حَبر -سكينة -طاغوت -فرقان -ماعون -ملكوت-توراة... وغيرها.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الكلمات مشتقة من جذور مشتركة بين جميع اللغات الثلاث التي أشرنا إليها، ولكنها لا تصاغ على وفق قواعد اللغة العربية، بينما تظهر في العبرية والآرامية وتعود إلى تلك اللغات. فكلمة «فردوس» مأخوذة من العبرية المتأخرة، وربما تكون من الفارسية القديمة، وتنتمي إلى تلك اللغة، وإلى السنسكريتية كذلك. كما أنها نفس الكلمة في اليونانية «Παράδεισος» وكثيراً ما وجد المفسرون المحمديون صعوبة في تحديد المعنى الدقيق لهذه الكلمات، بسبب عدم معرفتهم باللغات الأخرى التي اقتبس منها محمد. وعندما نعرف معناها بهذه الطريقة، نجد أنه تناسب السياق. فعلى سبيل المثال، من الخطأ

الشائع أن نتصور أن (ملكوت) تدلُّ على صفة أو مسكن للملائكة، لأنه غير مشتقة من «ملك» وإنما من «ملاك»، ولكن هي الطريقة العربية في كتابة العبرية (מַלְכוּת) من «مملكة».

ومن الجدير بالملاحظة كذلك، هو تأثير الشكل اليهودي للعبادة على أتباع محمد، وسيكون من الخطأ أن نفترض أن أتباع محمد أخذوا من اليهود أقامتهم لشعائر للعبادة برؤوس مغطاة، ففصل الرجال عن النساء في المسجد (عندما سمح لهنَّ بالمشاركة في العبادة العامة) وخلع أحذيتهم، كل هذه من عادات وتقاليد العرب وكذلك الأمم السامية الأخرى منذ أقدم العصور. من المحتمل أن تكون طقوس الوضوء للمسلمين تقليداً اليهود، وإن كان ثمة مجال للشك في هذا أيضاً. بينما كان توجه أتباع محمد نحو أورشليم / القدس عند الصلاة لفترة قصيرة، كما رأينا، تقليداً لليهود، لكن تم استبدالها في نهاية المطاف لتكون مكّة هي القبلة. لقد عرفنا[1] أيضاً أن طقس شهر الصيام مستمدٌّ ليس من اليهود بل من الصابئة. ومع ذلك، فثمة قاعدة ملزمة في هذا الجانب، لا شك في أنها من أصل يهودي. ففي السورة الثانية (البقرة: ١٨٣) يجري إعطاء الإذن بالإفطار ليلاً خلال ذلك الشهر، من خلال إشارة محدَّدة، إذ يقول القرآن: «وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ» معنى ذكر لون الخيوط هو أن المسلمين أمروا بالصيام من الفجر حتى الظلام. وعندما نشأ السؤال عن اللحظة الدقيقة التي يبدأ فيها اليوم، كان لا بد من وضع قاعدة بشأن هذا الموضوع، كما هو الحال في هذه الآية. وهذه القاعدة مأخوذة من اليهود في الموضوع نفسه، وتحديداً من «الميشناه براكوت»

(١) راجع صفحة ٤٦، ٤٧.

(١، الفقرة ٢) حيث تقول إن اليوم يبدأ في اللحظة «التي يمكن فيها للمرء أن يميز الخيط الأسود من الخيط الأبيض».

في جميع البلاد التي يتواجد فيها المسلمون، يجري توجيههم، في كل وقت من الأوقات الخمسة الثابتة للصلاة عندما تحين مواعيدها المقررة، ليؤدوا الصلاة العلنية في أي مكان قد يتواجدون فيه ذلك الوقت، سواء في المنزل، أو المسجد، أو الشارع. وكثير منهم يؤدونها، خاصة في الأماكن العامة. وفي أيامنا هذه تبدو هذه الممارسة خاصة بهم. ولكن إذا بحثنا عن أصلها، فعلينا العودة من جديد إلى اليهود، أولئك الذين عاشوا في شبه الجزيرة العربية في زمن محمد ممن كانوا بتوليين متصوفين، وبقدر ما، أحفاد الفرّيسيين الفعليين الذين وصفوا في الأناجيل بإبطال كلمة الله بالتبجيل المفرط لتقاليدهم[١]. في زمن يسوع أدين هؤلاء الفريسيون بالمحبة! «يحبُّون أن يصلوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع»[٢] من أجل كسب السمعة الظاهرية والتفاخر بتفانيهم أمام الناس. إن التشابه بين ممارسة الفرّيسيين القدامى ومسلمي اليوم لهو أمر مثير للدهشة إلى الدرجة التي دفعت بعض خصوم المسيحية أن يروا فيه دليلاً على أن الانجيل محرَّف الآن، لأنَّ الآيات المذكورة أعلاه هي وصف دقيق لأساليب العبادة المحمدية، ولا بد أن يكون مَنْ كتب تلك الآيات بعض المسيحيين الذين رأوا المسلمين متفانين في شعائرهم وأرادوا إدانتهم! كما أنه لم يكن من الطبيعي أن يتخذ محمد وأتباعه اليهود نماذج لهم في هذه المسألة، فقد كانوا يعرفون أن اليهود أحفاد إبراهيم وهم «أهل الكتاب» وليس من الغريب

(١) متى: ٦/١٥ ومرقص: ١٣/٧

(٢) متى: ٥/٦.

أن يفكروا في أن طريقة التعبُّد اليهودية هي الطريقة الصحيحة. ومن هنا علقوا أهمية لا مبرر لها على أشكال سطحية في العبادة. محمد، بطبيعة الحال، أخبر أتباعه أن جبرائيل هو من لقنه كيفية العبادة، وهو ما يقتدي به المسلمون إلى يومنا في كل سجود.

يجب أن نذكر نقطة أخرى من نقاط عديدة أثرت فيها الممارسات اليهودية بشكل واضح على الإسلام. في السورة ٤، (النساء، ٣) وضع محمد أحكاماً للمستقبل تحدِّد عدد الزوجات اللواتي يحق لكل واحد من أتباعه جمعهن في وقت واحد، بأربع على الأكثر. ويخبرنا المفسرون أن العديد من المسلمين كان لهم أكثر من هذا العدد من الزوجات الشرعيات. لكن هذه الأحكام لم تسر على محمد نفسه، كما تخبرنا السورة الثالثة والثلاثون (الأحزاب، ٤٩) فقد منح امتيازاً خاصاً بالحق في الزواج بأي عدد يشاء. عبارات الحكم المقيدة هي: «وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ» ومنذ ذلك الحين يفسر المفسرون هذه الآية على أنها تمنع المسلمين من الزواج بأكثر من أربع زوجات شرعيات في وقت واحد، على الرغم من تمتعهم بحرية غير محدودة تقريباً في مسألة طلاق أي منهن أو كلهنَّ، والزواج من أخريات لإتمام العدد المسموح به.

عندما نبحث عن المصدر الذي أخذ منه محمد هذه الحكم، ولماذا اختار أربع نساء كأعلى عدد مسموح به من الزوجات الشرعيات لأتباعه في وقت واحد، نجد الجواب مرة أخرى في اللوائح اليهودية حول هذا الموضوع، إحدى هذه اللوائح تقول ما يلي: يجوز للرجل أن يتزوج العديد من الزوجات، لأن ربه يقول إنه من الشرعي أن يفعل ذلك، إن

كان بمقدوره إعالتهن، ومع ذلك أسدى الحكماء نصيحة جيدة، بأنه لا ينبغي للرجل أن يتزوج أكثر من أربع زوجات»[1].

ورداً على الحجّة الواردة في هذا الفصل والذي يليه، فإن لدى المحمديين جواباً واحداً، إلى جانب التأكيد على أن القرآن ليس من تأليف محمد بل هو من الله نفسه. يقولون لنا إن محمد لم يكن يعرف القراءة والكتابة، لذا ليس بإمكانه أن يقرأ الكتب العبرية والآرامية وسواها من الكتب التي أظهرنا أنه أستقى منها فعلاً، بشكل مباشر أو غير مباشر، الكثير مما يظهر الآن في القرآن. أنهم يقولون عنه: «رجل أمي» ويضيفون إنه لا يمكن أن يكون قد راجع مثل هذه الجمهرة الأدبية، خاصة وأن أغلبها مكتوب بلغات لا يجيدها، وهي معروفة جداً لكن لدى عدد قليل من الدراسين في الوقت الحاضر.

وتستند هذه الحجة إلى فرضيتين: الأولى أن محمد لا يعرف القراءة ولا الكتابة، والثانية: أنه من خلال القراءة فقط يمكن أن يتعلم الأحاديث والخرافات المعتمدة من قبل اليهود والمسيحيين والزرادشتيين وسواهم في عصره. وكلتا الفرضيتين تفتقر إلى الإثبات. وقد اختلقت محاولة لإثبات الفرضية الأولى من خلال الإشارة إلى السورة السابعة (الأعراف: ١٥٦) وفيها وصف محمد بـ «النبي الأمي» الذي يقول المسلمون إنها تعني «النبي غير المتعلم أو المثقف». إلا أن الحاخام أبراهام جيجر أوضح بجلاء أن الكلمة التي وردت في هذه الآية تعني «غير اليهودي» أو من «الأغيار» المعادين لليهود. وهذا ما تؤكده حقيقة

---

(١) Arbah Turim, *Ev. Hazaer*, 1 وأنا مدين بهذه الإشارة لملاحظة روذيل في ترجمة القرآن، ص. ٤٥١، انظر أيضاً:

Yad Hachazakah Hilchoth Ishuth, 14, 3.

أنه في السورة الثالثة، (آل عمران: ١٩) أمر النبي أن يتحدث «إلى الأميين وأهل الكتاب» حيث نرى أن العرب في هذه الآية يصنفون بشكل عام «أمميين/ أغياراً» وإضافة إلى ذلك، في السورة التاسعة والعشرين (العنكبوت، ٢٧) وفي السورة الخامسة والأربعين (الجاثية: ١٥) من الواضح أن اللقب النبوي أسبغ على أسرة إسحق ويعقوب، وليس على إسماعيل. ومن هنا يميز محمد نفسه بأنه «النبي الأممي، غير اليهودي» ليختلف في هذا الشأن عن البقية ممن كانوا، عموماً، من سلالة إسحاق. ليس هناك أي دليل على أن محمد كان يجهل القراءة والكتابة، بيد أننا لسنا ملزمين، بما يشبه الوهم، لنستنتج أن الأسلوب الصقيل في القرآن هو دليل على أنه كتب بالكثير من العناية، وكذلك تفصيل السور المختلفة قبل تعلمها عن ظهر قلب وتلاوتها على النُسَّاخ. وربما تمت، هذه الأخيرة، دون القدرة على الكتابة[١].

ولكن حتى لو سلمنا، جدلاً، بأن القراءة والكتابة كانتا فنَّين غير معروفين لمحمد، فأن هذا لا يلغي الدليل على أنه استعار على نطاق واسع من مصادر يهودية وغيرها. وحتى لو كان قادراً على القراءة باللغة العربية، فمن غير المرجح أنه كان يعرف الآرامية، والعبرية، وغيرهما

---

(١) ولكننا لسنا بحاجة إلى الأحاديث، مهما كانت الأهمية المعلقة عليها، التي تؤكد أن محمد يستطيع أن يكتب، وبالتالي يقرأ. البخاري والأحاديث الإسلامية تقول إنه عندما تم التوقيع على صلح الحديبية، أخذ محمد القلم من عَلِيّ وصوَّب الكلمات التي كتبها الأخير «رسول الله» مستبدلاً إياها بخط يده بعبارة «ابن عبد الله» كذلك، يقول الحديث أنه عندما حضرته الوفاة، دعا بصحيفة ودواة لكتابة توجيهات تهدف إلى منع أتباعه من الخلاف حول من يخلفه، ولكن ضعف قوته لم يمكنه من الكتابة، وهذا الحديث الأخير يُروى عن ابن عباس، ونقله عنه البخاري ومسلم، ومن المعروف جيداً أنه يشكل موضوع جدل بين السنة والشيعة.

من اللغات. إن أوجه التشابه التي حددناها بين مقاطع معينة من القرآن وتلك التي تشبهها في كتابات يهودية مختلفة قريبة بما يكفي لإظهار المصدر الحاسم لكثير من القرآن. ولكن ليس ثمة في أي من آيات القرآن التي ناقشناها أية إشارة إلى مصدر من هذا القبيل. الأخطاء العديدة التي تظهر في القرآن تبين أن محمداً تلقّى معلوماته شفهياً، وربما من أشخاص ليس لديهم قدر كبير من التعلم الكتابي أنفسهم. وهذا يلغي الافتراض الثاني للمسلمين.

لا شك أن العديد من الأسباب الواضحة تجعل من المستحيل على محمد أن يرجع إلى عدد كبير من الكتب الآرامية والزرادشتية واليونانية؛ ولكن لم يكن من المستحيل بأي حال من الأحوال أن يتعلم من اليهودية[1]، والفارسية، والمسيحيين ودارسي الحكايات، والخرافات، والأحاديث المعاصرة آنذاك. وأعد أعداؤه ضده في الوقت نفسه تهمة المساعدة من قبل أشخاص في تأليف القرآن، ونحن نعرف من كل من القرآن نفسه ومن اعترافات ابن هشام والمفسرين. من بين أمور أخرى ما ذكر عن «مساعد» في تأليف الكتاب هو يهودي يتحدث في السورة السادسة والأربعين (الأحقاف: ١٠ كـ «شاهد» على التوافق بين القرآن والكتاب اليهودي.

يقول المفسران عباسي والجلالان في تعليقاتهما على هذه الآية إن المقصود هو عبيد الله بن سلام، الذي يعتقد صاحب «روضة الأحباب» أنه كان كاهناً يهودياً أو حاخاماً قبل أن يصبح مسلماً. وتروي لنا السورة

---

(١) في الواقع، في سورة العاشرة، يونس: ٩٤ «أُمر محمد أن يسأل أهل الكتاب للحصول على معلومات واضحة حول شكوكه».

الخامسة والعشرين (الفرقان: ٤، ٥) أن أعداء محمد قالوا: «ساعده آخرون في ذلك» وقالوا إنه لم يكتب سوى بعض «أساطير الأولين»[١].

وهي تملى عليه من قبل جماعته صباحاً ومساءً. ويذكر عبَّاسي إن الأشخاص المشار إليهم هم جبر العبد المسيحي ويسار (ويسمى أيضاً أبو فكيهة)، وأبو تقبيحة، وهو يوناني. في السورة السادسة عشرة (النحل: ١٠٣)، ردَّاً على الاتهام، «إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ».

ويقدم محمد رداً غير كافٍ بأن لغة الرجل الذي جرى التلميح إليه أجنبية، في حين أن القرآن نفسه يتألَّف من العربية الصريحة. هذه الإجابة لا تحاول دحض المعنى الواضح للتهمة، وهو أن التهمة لا تتعلق (بشكل اللغة المستخدمة وأسلوبها) ولكن بالقصص التي رواها في القرآن وهي التي نُقلتْ إلى محمد.

يقول عبَّاسي إن مسيحياً اسمه «قابيل» هو المشار إليه في الآية، في حين يشير تفسير الجلالين من جّديد إلى جبر ويسار. بينما ثمة من أشار إلى سلمان الفارسي حواري محمد المعروف وآخرون إلى صهيب وآخرون إلى راهب يدعى عداس. وقد نلاحظ إشارة إلى عثمان، وورقة، بشكل خاص، وهما أبنا عم خديجة، زوجة محمد الأولى، وكانا على اطلاع بالمسيحية[٢] واليهودية في ذلك الوقت، وأن هؤلاء الأشخاص مارسوا تأثيراً غير قليل على محمَّد خلال سنواته الأولى كنبي، وربما قبل ذلك. كما أن زيد، ابنه بالتبنِّي، كان سورياً، بحسب ابن هشام، ولذلك لا بد أنه أعتنق المسيحية في البداية.

---

(١) «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا».

(٢) انظر الاقتباس من ابن إسحاق، في الفصل السادس لاحقاً.

سنرى أن ثمة أشخاصاً آخرين من بين أصحاب محمد، كان بمقدورهم الحصول بسهولة على معلومات عن الديانات اليهودية والمسيحية والزرادشتية. ومع ذلك فإن المقاطع المستعارة من هذه المصادر متنكرة بصيغها ومن الممكن تماماً أن الذين أستقى محمد منهم لم يعترفوا له بالتدليس، ولعلهم توهموا حقّاً أن هذه المقاطع منزَّلة، كما زعموا، لإثبات صحة جميع العقائد، فإن كان الأمر كذلك، فقد نجح محمد عند هذا الحد، باستخدام تلك المعلومات التي حصل عليها من هؤلاء الأشخاص ببراعة لخداعهم، على الرغم من أنه لم يتمكن من خداع أعدائه. وبالتالي، عندما يئس من إفحام هؤلاء الأعداء، أنقلب عليهم بالسيف في نهاية المطاف.

في الفصل التالي نشرع في البحث عن تأثير آخر، إن وجد! وهو تأثير المسيحية، الأرثوذكسية أو غير الأرثوذكسية، التي مورست على نشوء الإسلام وتأليف القرآن.

الفصل الرابع:

تأثير المسيحية والكتب المسيحية المنتحلة

حين ظهر محمد، لم تكن المسيحية قد حازت على مكانة مهمة بين العرب، على الرغم من مرور خمسة قرون على التبشير المسيحي، ومع هذا يمكننا أن نشير إلى مجموعات مسيحية محدودة ومتناثرة هنا وهناك مثل: بني الحارث في نجران، وبني حنيفة في اليمامة، وقسم من بني طي في تيماء، ومن المرجح أن محمد سمع في شبابه، كما تخبرنا المصادر[١]، شيئاً من الوعظ من قسّ (بن ساعدة) أسقف نجران، والتقى بعدد من الرهبان، ورأى الكثير من معتنقي المسيحية عندما زار سوريا للتجارة قبل إعلانه مهمته النبوية. بيد أنَّ ما رآه وسمعه من الكنيسة لم يكن له تأثير يذكر عليه من أجل الصلاح. ولا يتعين علينا أن نتساءل في هذا: ما الذي وجده محمد وخلفاؤه في كل الاتجاهات، في حين سيوفهم هي من تحدِّد المسار لهم؟، يقول إسحاق تايلور[٢]، متحدثاً عن فترة لاحقة بعض الشيء إلا أن عبارته تصلح لوصف حقبة محمد في بدايتها: «كانت المعتقدات الخرافية فظيعة، والوثنية مستشرية

(١) السير وليم موير، حياة محمد، الطبعة الثالثة، ص ٨٤.

(٢) المسيحية القديمة. المجلد الأول. ص. ٢٦٦.

للغاية، بينما تعاليم الكنيسة متعجرفة للغاية، وممارساتها ماجنة وصبيانية تماماً، لدرجة أشعرت العرب بفكرة قوَّتهم من جديد مما ألهمهم الشعور بأنَّهم رسل الله لمحاسبة البشر على أخطائهم، والمخولون بالانتقام الإلهي لمعاقبة المرتد المسيحي. ويتحدث الراهب اليوناني الذي كتب تاريخ استشهاد أنسطاسيوس الفارسي، عن المعاناة التي كان يتعرض لها الشعب الفلسطيني عندما كانت فلسطين خاضعة للفرس لفترة وجيزة في زمن محمد، راسماً صورة مروِّعة[1] للشر الذي كان عليه معتنقو المسيحية هناك، ولا يتردَّد في القول إن هذا هو السبب الذي من أجله أسلمهم الله إلى قسوة مضطهديهم الزرادشتيين. وفي سفر الرؤيا (التاسع. ٢٠، ٢١) فإن انتشار عبادة الأصنام وغيرها من الخطايا كانت أسباباً أخرى للانتقام الإلهي كتلك التي وصفها الراهب اليوناني، وهو ما مهَّدَ للقوَّة المحمدية لاحقاً لاضطهاد الكنيسة الشرقية. بينما يتحدث موسهيم عن الحقبة نفسها قائلاً[2]: «خلال هذا القرن اندثرت الديانة الحقيقية تحت كتلة ضخمة لا معنى لها من الخرافات، ولم تكن قادرة على رفع رأسها، وبينما كان المسيحيون الأوائل يعبدون الله وابنه فحسب، فإنَّ أولئك الذين يدَّعون المسيحية صاروا، في هذا القرن، يعبدون خشبة الصليب ورسوم القديسين، وعِظَاماً مريبة في أصلها، وفي حين وضع المسيحيون الأوائل الجنة والنار أمام عيون الناس، فإن هؤلاء المتأخرين تحدَّثوا فقط عن نار حتمية معدَّة لإحراق شوائب الروح.

---

(١) **Ποικίλως και πολυτρόπως την αμαρτίαν χειρογραφήσαντες και οιμασιν μεν ανθρωπίνοις την γην φοινίξαντες, πορνείαις δε και μοιχείαις και ταις αλλαισ αναριθμήτοις πονηραίς ... την οργην τον Θεου καθ εαυτων εκκαύσαντες, κτλ.**
Acta Martyrii S. Athanasii Persae, p.2.

(٢) القرن السابع، الجزء. ١١، الفصل الثالث.

المسيحيون الأوائل علموا أن المسيح جعل من موته ودمه كفارة عن خطايا البشر، أما هؤلاء اللاحقون فغرسوا فكرة أن أبواب السماء ستغلق دون من لا يواظب على تقديم التبرعات لإثراء رجال الدين أو الكنيسة، الأولون حافظوا على البساطة الطاهرة واتباع تقوى نقية وعفيفة، بينما وضع اللاحقون جوهر الدين في الطقوس الخارجية والرياضات الجسدية». وتظهر لنا صورة المسيحية التي يعرضها لنا القرآن ما تشكل في ذهن محمد عنها من خلال تجربته المحدودة. فاطلاعه الديني في حدِّه الأدنى، وقع تحت التأثير القوي لمذهب ما يسمى «الجماعة الأرثوذكسية» التي نصبت مريم بقوة «والدة الإله» من خلال التعسف في استخدام مصطلح يساء فهمه بسهولة، ففتحت الطريق لعبادة عذراء اليهود مكان الله. وقد أشار إلى تأثير هذا المفهوم الخاطئ بشكل واضح ابن إسحاق. في روايته لقصة سفراء نصارى نجران، الذين كانوا، كما يقول، على «دين الإمبراطور» الذين بعثهم إلى محمد في المدينة عام ٦٣٢م، ويخبرنا في سرده لتلك القصة بأن السفراء[١] قالوا - كشأن أي مسيحي-: «يسوع هو الله، ابن الله، وثالث ثلاثة»... وأثبتوا أيضاً أنه هو ثالث ثلاثة، وهم: الله، والمسيح، ومريم» بالطبع هذه ليست الراوية الدقيقة من ناحية اللغة المستخدمة، إلا أنها تمثل بشكل دقيق ما فهمه محمد عن العقيدة التي يؤمن بها هؤلاء المسيحيون، وهو ما يتضح من الآيات التالية (السورة الخامسة، آل المائدة، ٧٣) في القرآن: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ» وكذلك حين يقول في الآية ١١٦ من السورة نفسها: «قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ» (سورة الخامسة، ١١٦).

---

(١) مقتبس من أد كويل «محمّد والمحمّدية» ص. ١٣٦.

بعد هذا يبدو السؤال صعباً عمَّا إذا ما كان محمد نبذَ المسيحية كما عرضت عليه؟ فلو رأى مشهداً أنقى للشعائر والعقائد، وشهد المزيد من الإصلاح وعوامل التجديد، ونحن لا نشك في إخلاصه للبحث المبكر عن الحقيقة، فإنه ربما تبنى بإيمان والتزام دين يسوع. وما يبعث على الأسف حقاً هو انعكاس جزء صغير جداً من الشكل النزيه من المسيحية الذي أفصح عنه القساوسة والرهبان في سوريا، وكيف طال التغيير والتشويه حتى هذا الجزء البسيط، فبدلاً من العظمة المبسطة للإنجيل. بوصفه إلهاماً من الله لإصلاح البشرية بنفسه من خلال ابنه- أُجبرت العقيدة المقدَّسة للثالوث على الترحل[1] مع الضلال، والحماس العدواني للأوطاخية والتعصب اليعقوبي، وتقديم عبادة صورة مريم بشكل فاضح مما خلق انطباعاً في ذهن محمد بأنها استثمرت لتغدو الآلهة، إن لم تكن الشخص الثالث وزوجة الإله، ومن المؤكد أن هذا الغلو التجديفي هو ما قاد محمداً إلى رفض العقيدة المسيحية الصحيحة بأن يسوع هو ابن الله، وأدى به إلى وصفه باسم «عيسى بن مريم» وهو اللقب الوحيد المقترن بالمسيح الذي يرد في القرآن.

وينبغي ألا ننسى أن محمداً لم يكن على صلة مع الأناجيل المسيحية الصحيحة. بل اقتصر اطلاعه، عموماً، على نماذج منتحلة من العقيدة، ومن هنا الافتراض العام تقريباً أن صعود الإسلام، مستحق بلا ريب، لأنَّ النفور مما جاء في المسيحية المنتحلة، هو ما منع محمداً من السعي الجاد لاكتشاف الحقيقة الواردة في الأناجيل الصحيحة، وبالتالي دفعه لتأسيس دين جديد مضاد للمسيحية.

---

(١) السير وليم موير، حياة محمد، ص ٢٠، ٢١. وهو يتحدث هنا عن زيارة محمد لسوريا.

لا يبدو أن ثمة أدلَّة كافية على وجود نسخة عربية من العهد الجديد في زمن محمد. فحتى في الكنيسة «الأرثوذكسية» أهمل الإنجيل لصالح أساطير القديسين، التي كانت تروق أكثر للمزاج الشعبي الذي تستهويه الخرافة. وكانت جزيرة العرب ملاذاً لكثير من الزنادقة من مختلف الملل، ويبدو واضحاً من القرآن (كما سنرى) إن العديد من القصص الأسطورية سواء في شكلها المكتوب أو الشفاهي، أو تلك التي ترد في الأناجيل المنتحلة وغيرها من الأعمال المشابهة، إضافة إلى بعض الأفكار المهرطقة حول شتى المواضيع، قد وصلت إلى محمد، واستقبلها على أنها صحيحة. وظنَّ إنها تشكل جزءاً من الإنجيل، الاسم الذي كثيراً ما يرد في القرآن، على نحو يثير الدهشة: والواقع يثبت أن ما من أحد ممن تحوَّل إلى دينه كان جاداً في دراسة المسيحية على نحو دقيق، كذلك لا بد أنه شعر أن الفائدة من المسيحية أقل بكثير مما هي عليه لدى اليهودية التلمودية. فتلك الآيات من القرآن التي تتعامل، على نحو عام تقريباً، مع ما تصوَّر محمد إنها عقائد العهد المسيحي، بنيت على معلومات خرافية هزيلة وفجَّة، ومنذ الفترة التي كان فيها نظامه قد نضج بالفعل، في جانب كبير منه، لا نجد طقساً واحداً أو عقيدة في الإسلام مجسدة بدرجة ما، أو حتى مشوبة، بتعاليم مسيحية خاصة، في حين، على العكس من ذلك، أسبغت اليهودية لونها على النظام برمته، وفرضت عليه صيغة ونوعاً، وإن لم تكن الجوهر الفعلي، للعديد من الشعائر(١).

بيد أنَّ محمداً سعى لاستمالة المسيحيين وكذلك اليهود إلى دينه، في الوقت نفسه، ومع أن المسيحيين أقلَّ عدداً ونفوذاً في الجزيرة

---

(١) حياة محمد، ص ١٤٣، ١٤٤.

العربية مما كان عليه اليهود، إلا أن الدين الرسمي للإمبراطورية البيزنطية الكبيرة حتَّم على محمد بشكل ما أن يضعه نصب عينيه، وخاصة أن تعقيدات سياسية قد تنشأ ما لم ينل تأييداً واضحاً من المسيحيين العرب، بيد أنه لا يمكن تحديد مدى تأثير هذا الإحساس الأخير على محمد. وأياً كانت نسبة ذلك، فقد استنجد بالإنجيل كدليل على بعثته الإلهية، بل وذهب إلى حد الزعم بأن المسيح قد تنبأ بمجيئه(1). وتحدث عن المسيح بأنه «كلمة الله»(2) لكنه ينفي لاهوته وصلبه، وهو ما يدل على عدم معرفة بالعقيدة الصحيحة للإنجيل. على الرغم من أنه يتحدث عن [الإنجيل] في العديد من المقاطع باحترام ويصفه بأنه كتاب سماوي، قائلاً إنه «نزل على يسوع» من السماء، وبأن القرآن نفسه جاء لتأكيده والحفاظ عليه (السورة الخامسة، المائدة، ٤٥-٤٦). ويسجِّل ولادة السيد المسيح من عذراء، ويذكر بعضاً من معجزاته، ولكن حتى هنا نجد هيمنة للنبرة الأسطورية. ويبدو أن محمد قد تعلم شيئاً قليلاً مما يعرفه عن يسوع ورسله من الإشاعات التي لا يمكن الوثوق بها مطلقاً. وسنرى أن الاتفاق في التفاصيل بين ما يرد في القرآن بشأن هذه الموضوعات، وبين ما يرد في الأسفار المنتحلة وفي أدب الهرطقة لافت للنظر إلى حد كبير. وهنا يبدو محمد، من جديد، ذا موهبة عجيبة

---

(1) السورة الحادية والستون «الصف» ٦ : «وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ» وأحمد هو نفس اسم محمد. الذي لا بد أنه سمع النبوة الواردة في يوحنا السادس عشر، ٧، و٦/١٤ و٢٦/١٤، وقد أخطأ من أخبره بها عمداً أو عن جهل، لأنه خلط بين كلمتي: «παράκλητος» و «περικλυτός» لأنَّ هذه الكلمة: «περικλυτός» لم ترد في العهد الجديد.

(2) السورة الثالثة، ٤٠، والرابعة، ١٦٩.

في نبذ الصحيح وقبول الزائف، كما هو الحال مع الأحاديث اليهودية المشار إليها في الفصل السابق.

ونشرع الآن في إثبات ذلك من خلال الإشارة إلى بعض الخرافات التي تتعامل مع الموضوعات المسيحية الواردة في القرآن، مما يشير إلى المصادر التي يبدو أنه قد استمدَّ منها تلك الأساطير والخرافات.

١ ـ أسطورة أصحاب الكهف

أول ما سنعالجه في البحث هو أسطورة أصحاب الكهف، الواردة في السورة الثامنة عشرة، (الكهف، ٨-٢٥):

[أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيم[١] كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ[٢] أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا *هَؤُلاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا * وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ[٣] وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ[٤] ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ

---

(١) المنطقة التي يقع فيها الكهف.

(٢) المؤمنون والكافرون.

(٣) حتى لا تلامسهم.

(٤) أي الكهف.

مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًا مُّرْشِدًا*وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا*كَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْم قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا*كَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا(١) إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا * سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاء ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِنْهُمْ أَحَدًا * [.........] وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا*(٢) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا]

لفهم هذه القصة المرتبكة ينبغي علينا أولاً أن نتذكر، وبحسب ما أفادنا المفسرون، أن بعضاً من الوثنيين(٣) العرب في مكة تحدَّوا محمداً أن يروي لهم قصة أصحاب الكهف، أن استطاع، وذلك بهدف اختبار

(١) أي يوم القيامة.

(٢) محمد.

(٣) ويقول آخرون اليهود، ولكن هذا احتمال بعيد.

ادعائه الوحي. ومن الواضح أن القصة كانت سارية بينهم بشكل أو بآخر، وربما في أكثر من صيغة واحدة للرواية، مما جعلها تنطوي على خلاف حول عدد الأشخاص الذين دخلوا إلى الكهف، فثمة آراء عدَّة ومتباينة حول هذا الموضوع.

وعَدَهُم محمد بالجواب في اليوم التالي، كما يتضح من الآيتين: ٢٢ و٢٣ اللتين قمنا بإغفالهما[١] ويبدو أنه كان ينوي الاستفسار من أحد ما حول هذه المسألة. ومن الواضح، إنه فشل في الحصول على معلومات مؤكَّدة حولها، وبالتالي ترك السؤال عن عدد الفتية الذين كانوا في الكهف مضطرباً، وبدت محاولته للخروج من المأزق متعثِّرة تماماً. كما أنه لم يخبر عن المكان الذي جرت فيه الحادثة ولا زمن وقوعها. لكنه جازف، في محاولة تأكيد حقيقة واحدة فقط: أن الوقت الذي أمضوه في الكهف هو: ٣٠٩ أعوام. لكنه، ولسوء الحظّ، كان مخطئاً حتى في هذه، كما سنرى. ولم يكن لديه شك، بأن الحادثة المسجَّلة في القصة قد حدثت بالفعل. نفهم من خلال الأسلوب العام للآيات أنَّ محمداً لم يكن بحوزته أية وثيقة مكتوبة، ولا راوٍ موثوق في متناول اليد يمكن أن يمدَّه بالتفاصيل الدقيقة عن هذه القضية. ومع ذلك فإنَّ لدينا أكثر من صيغة واحدة للأسطورة التي كتبت قبل زمن محمد: ومن الواضح إن محمد مدين للصيغة الشفوية في التفاصيل الواردة في القرآن، وليس إلى الوحي الإلهي كما يدَّعي. الكاتب السرياني، يعقوب السروجي «توفي ٥٢١م» في عظة نشرت في «أعمال القديسين» يورد الأسطورة بشيء من الإسهاب، إضافة إلى صيغ أخرى سريانية قديمة

---

(١) «وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً» [م].

معروفة للقصة[1]. وتجمع معظم الروايات أن هناك «سبعة نيام» ومن هنا جاءت تسمية الحكاية المعروفة في أوروبا، ولكن هناك مخطوطة سريانية موجودة في المتحف البريطاني وهي تعود للقرن السادس[2] تقول إنَّ عددهم ثمانية. ويرى بعض مفسري القرآن[3] المحمديين استناداً للأحاديث، أنهم كانوا سبعة، بينما يؤكد البعض الآخر أن عددهم ثمانية، وهي نقطة اعترف محمد، عملياً، في القرآن بعجزه عن اتخاذ قرار حاسم بشأنها. وعلى حد علمنا، كان غريغوريوس التوري[4] أول كاتب الأوروبي روى تلك الأسطورة. حيث يخبرنا أنه في عهد الامبراطور «ديسيوس» (٢٤٩-٢٥١م) فر سبعة من الشبان المسيحيين النبلاء من مدينة «أفسس» من الاضطهاد ولجأوا إلى كهف غير بعيد عن المدينة. واكتشف أعداؤهم مخبأهم بعد وقت قصير، فسدُّوا عليهم مدخل الكهف وتركوهم ليموتوا من الجوع. وعندما أصبح «ثيودوسيوس» الثاني على العرش، أي بعد ١٩٦ سنة، عثر أحد الرعاة على الكهف وتم فتحه. فاستيقظ النائمون السبعة من النوم الذي لبثوا فيه الوقت كله، (وهو ما يقوله القرآن أيضاً) فأرسلوا أحدهم إلى المدينة لشراء الطعام. فوجد أن المسيحية قد انتشرت في كل مكان، ولدهشته غير المحدودة. أبرز لصاحب المتجر عملة نقدية تعود إلى عهد «ديسيوس» لدفع ثمن الطعام الذي اشتراه من ذلك المتجر. فاتهمه الناس بأنه اكتشف كنزاً ثميناً مخفياً، وهنا أخبرهم عن قصته ورفاقه. وعندما

---

(١) انظر ابن العبري «تاريخ مختصر الدول». ص ١٤٢. والسمعاني: الكتاب المقدس المشرقي: ص ٣٣٥.

(٢) مصورات المخطوطات السريانية: ١٠٩٠

(٣) انظر: تفسير الجلالين وعبَّاسي بهذا الشأن.

(٤) «مجد الشهداء» فصل. ٩٥.

أرشد الناس إلى الكهف، ظهر أصحابه، وهم لا يزالون شباناً مشرقي الوجوه ببريق سماوي، فثبتت حقيقة قصتهم. وسمع الإمبراطور الخبر، فذهب شخصياً إلى الكهف، حيث أخبره النائمون السبعة أن الله قد حافظ عليهم من أجل إثبات حقيقة خلود الروح. وما أن نقلوا رسالتهم تلك حتى أسلموا الروح.

من غير الضروري التعليق على السخافة المفرطة لهذه القصة كما جاءت في القرآن، وإن كان محمد لا يقع عليه اللوم في هذا الصدد، فقد جرى قبولها على أنها صحيحة لدى الجهلة من المسيحيين أنفسهم، حتى انتشرت على نطاق واسع، مع أنها كانت مجرد اختراع في جميع الاحتمالات. فمن المرجح أن الغرض من القصة أن تكون رمزية، أو حتى نوعاً من الرومانسية الدينية، ومصاغة بنيّة تبشيرية لكي تظهر سرعة انتشار العقيدة المسيحية، من خلال الشجاعة والإخلاص حتى الموت لكثير من آبائها المؤسسين. ولكي يغدو هذا الاستنتاج ممكناً، فقد حصلت هذه الأسطورة، فعلاً، على المزيد التي من المصداقية في أجزاء كثيرة من الشرق، قبل فترة طويلة من عصر محمد، وحتى في مكة وفي زمن محمد، كان هناك من يؤمن بهذه الأسطورة على ما يبدو. ويكمن خطأ محمد في ادعاء تلقِّيه الوحي الإلهي، في حين إن هذه القصة ليست جديرة بالثقة والمصداقية مثلها مثل حكاية «مار جرجس والتنين» (التي ربما كانت رمزية أيضاً) أو (سندريلا والحذاء الزجاجي) أو (معركة الضفادع والفئران) لدى الإغريق، أو الحكايات والمآثر الإعجازية لرستم لدى الفرس[(١)].

---

(١) لا شك أننا يمكن أن نحيل أصل الحكاية السريانية «النائمون السبعة» إلى مصدر=

=يوناني كلاسيكي. ومن الواضح أنها اقتبست من قصة إبيمينيدس «النوم الطويل» كما يرويها ديوجانس اللايرتي بالكلمات التالية:

Ουτός ποτε πεμφθεις παρα του πατρος εις αγρον επι πρόβατον, της οδου κατα μεσημβρίαν εκκλίνας, υπ αντρω τινι κατεκοιμήθη επτα και πεντήκοντα ετη. σιαναστας δε μετα ταυτα, εζήτει το πρόβατον, νομίζων επ ολίγον κεκοιμησθαι. ως δε ουχ ευρισκε, παρεγενετο εις τον αγρον, και μετεσκευασμένα πάντα καταλαβων και παρ ετέρω την κτησιν, πάλιν ηκεν εις αστυ διαπορούμενος κακει δε εις την εαυτου εισιων οικίαν, περιέτυχε τοις πυνθανομένοις, τίς ειη εως τον νεώτερον αδελφον ευρών, τότε ηδη γέροντα οντα, πασαν εμαθε παρ εκείνου την αλήθειαν .... και επανελθων επ οικου μετ ου πολυ μετήλλαξεν, ως φησι Φλέγων εν τω περι μακροβίων, βιους ετη επτα και πεντηκοντα και εκατον ως δε Κρητες λέγουσι, ενος δέοντα τριακόσια ως δε Ξενοφάνης ο Κολοφώνιος ακηκοεναι φησί, τέτταρα προς τοις πεντήκοντα και εκατόν

(Diog. Laertii, De Vitis Philosophorum, lib. I, cap. X. 2, 4)

وقد اكتسبت القصة جرعة جديدة من الحياة في العالم الجديد في نموذج قصة «ريب فان وينكل» وهي مغامرة مماثلة إلى حد ما.

٢ ـ قصة مريم العذراء

قصة مريم، المروية في القرآن والأحاديث النبوية، مأخوذة بالكامل تقريباً من الأناجيل المنتحلة ومن أعمال أخرى من هذا النوع. ومع ذلك، فقد أدخل محمد عنصراً آخر من الخطأ في القصة، وهو الخطأ الذي ينبغي علينا تتبعه قبل الدخول إلى الحكاية نفسه.

في السورة التاسعة عشرة (مريم: ٢٨، ٢٩) يرد أنه عندما جاءت مريم إلى قومها بعد ولادة يسوع، قالوا لها: «يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا» ويتضح من هذه الكلمات أن «مريم» التبست مع «ميريام» أخت موسى وهارون[١] في ذهن محمد، وهو ما يتكشف بصورة أكثر وضوحاً في السورة ٦٦، (التحريم، الآية: ١٢) حيث جعل مريم «ابنة لعمران»، وهذا الأخير هو الشكل العربي لـ «عمرام» الذي يسمى في التوراة والد «هارون وموسى ومريم أختهما» (سفر العدد. السادس والعشرون ٥٩). ومنح صفة «أخت هارون» لميريام في (الخروج الخامس عشر. ٢٠) ولا بد أن محمداً استعار التعبير من هذا المقطع. والسبب في هذا الخطأ

(١) في صحيح مسلم (كتاب الأدب) أن نصارى نجران سألوا المغيرة (بن شعبة) عن هذا الخطأ فراجع محمد في ذلك، ولكن لم يحصل على أية إجابة مقنعة.

الذي خلط فيه بين أم المسيح، وامرأة أخرى عاشت قبل نحو ١٥٧٠ سنة من ولادته يكمن أن اسمي «مريم» و«مريام» هو واحد في الشكل العربي، ويبدو أن صعوبة التسلسل الزمني لتحديد الهوية أوقعت محمداً في هذا الخطأ الذي يدفعنا إلى استذكار حكاية «الشاهنامه» إذ يقول الفردوسي: أن البطل فريدون حينما هزم الضحاك، وجد في قلعة الطاغية شقيقتين لجمشيد كانتا محبوستين هناك. وكان فريدون مغرماً بسحرهن إلخ...[١].

وهذا مثل:

(bonus dormitat Homerus)[٢]

من جانب آخر، سنعرف من أجزاء لاحقة في «الشاهنامة» أن هاتين الفتاتين الفاتنتين ظلتا في عهدة الضحاك منذ بداية عهده، أي قبل ما يقرب من ألف سنة! ومع ذلك فإن خطأ محمد، هو أكثر خطورة زمنياً من خطأ «الشاهنامة» بكثير، وقد يكون مثل هذا الخطأ طبيعياً في الرومانسيات ولكن ليس في الوحي. وقد حاول المفسرون المحمديون، عبثاً، دحض هذه التهمة بعدم الدقّة التاريخية.

وإذا كان لا بد من تقديم تبرير آخر لخطأ محمد، فقد[٣] نجده في

(١) لكن الفردوسي يتابع الأفيستا ليخبرنا أن «فريدون» تزوج من هاتين الفتاتين «أرنواز وشهرناز» راجع اليشتات: الخامس ٣٤؛ التاسع. ١٤؛ الخامس عشر. ٢٤.

(٢) العبارة لهوراس من كتابه فن الشعر وهو يتحدث فيها عن هوميروس، البيت ٣٥٩: وترجمتها: (هوميروس العظيم ينام... أصبحت منزعجاً عندما شَعَر هوميروس العظيم بالنعاس) وهي تحمل معنى ضمنياً أنه حتى الشاعر العظيم يمكن أن يخطئ مع الاستمرار[م].

(٣) أبراهام جيجر «ما الذي أخذه محمد من اليهودية» ص. ١٧٢.

الأحاديث اليهودية التي تروي ما يلي بشأن موت ميريام «إن ملاك الموت لم يتسلَّط عليها، بل على العكس ماتت بقبلة إلهية، والديدان والحشرات لم تتسلَّط عليها». ولكن اليهود، رغم كل ذلك، لم يغامروا في التأكيد على أن «مريام» بقيت على قيد الحياة حتى زمن المسيح، ولا على تماثلها مع «مريم» العذراء.

والآن دعونا نرَ ما يقوله القرآن والأحاديث المتصلة به، فيما يتعلق بهذا الموضوع.

في السورة الثالثة (آل عمران، ٣٧،٣٤) نقرأ: «ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ*».

بالإضافة إلى تفسير هذه القصة، يخبرنا البيضاوي وغيره من المفسرين وعلماء الحديث بما يلي: «كانت زوجة عمران عاقراً وعجوزاً. وفي أحد الأيام، رأت الطيور تطعم صغارها، فتاقت إلى الذرية ودعت الله أن يهبها طفلاً. وقالت: يا رب، أن وهبتني طفلاً، سواء كان أنثى أو ذكراً، فسوف أهبه لخدمة بيتك المقدس. فسمع الله واستجاب لها، وحبلت وولدت ابنتها مريم» ويخبرنا «تفسير الجلالين» أن اسم والدة مريم كان حنَّة. وعندما أحضرت مريم إلى الهيكل وسلمتها للكهنة، وافقوا على النذر وقبلوا مريم في المعبد وعين زكريا

لرعايتها. فوضعها في غرفة، ولم يسمح لأحد سواه[١] بالدخول إليها. وكانت الملائكة تزودها بطعامها اليومي.

وبالعودة إلى القرآن (السورة الثالثة، ٣٧-٤٢)، سنعرف أنه عندما كبرت مريم قالت لها الملائكة: «يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ * ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ[٢] نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ*»

في إشارة إلى ما يروى في هذه الآيات عن «الاقتراع وإلقاء الأقلام» يقول «البيضاوي» و«الجلالين» إنه لما تنافست الأحبار قال زكريا: أنا أحقُّ بها، فقالوا: لا حتى نقترع. فانطلق زكريا وستة وعشرون إلى نهر الأردن وألقوا أقلامهم في الماء على أن من ثبت قلمه في الماء وصعد فهو أولى بها، فثبت قلم زكريا. فأخذ مريم وتكفَّلَ بها.

وننتقل إلى السورة التاسعة عشرة، (مريم، ١٦-٣٤) حيث نجد هناك السرد التالي عن ولادة المسيح: «وَاذْكُرْ[٣] فِي الْكِتَابِ[٤] مَرْيَمَ إِذِ

(١) إشارة إلى القانون الذي يحظر على جميع الكهنة دخول قدس الأقداس.

(٢) أي محمد.

(٣) يسوع.

(٤) أي محمد.

انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا[1] فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا[2] * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا[3] * فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ[4] قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا * فَنَادَاهَا[5] مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا[6] فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا *فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا[7] تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا *يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا *[8] فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ[9] إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ[10]

---

(١) الملاك جبرائيل، وبالتالي يصفه المسلمون بـ: الروح القدس.
(٢) أي عفيفة.
(٣) يسوع.
(٤) لاحظ الفصيلة المحدَّدة من الأشجار.
(٥) يشكُّ المفسرون هنا في ما إذا كان هذا يسوع أو جبرائيل.
(٦) أي «افرحي» وفي الشرق يقال للمرأة عند ولادته صبي «قرّت عينك» للتعبير عن التهنئة كما هي صيغة النص.
(٧) أتت بالطفل.
(٨) أي، عفيفة.
(٩) أي القرآن (المفسرون).
(١٠) الإنجيل.

وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ*».

يمكننا تتبع كل مسألة مذكورة في هذه الآيات ونذكر بعض مصادرها المنتحلة، وسوف يكون واضحاً من المقاطع التي نبدأ الآن بتقديمها.

في كتاب «بروتوفانجيليون» ليعقوب الصغير[١] وفي إشارة إلى ولادة مريم، نقرأ التالي: فرفعت حنَّة عينيها إلى السماء[٢] فرأت عشّ عصافير في شجرة غار، فتنهَّدت ترثي لحالها قائلة: «يا ويلي يا ويلي، من ولدني؟ ويلي ويلي... ومن أُشبِه؟ فلستُ مثل طيور الفضاء لأن الطيور هي أيضاً ذات ثمار أمامك يا رب.... وإذا بملاك الرب وقف بجانبها قائلاً لها: حنَّة...! حنَّة...! إن الربَّ قد سمع دعاءك، فستحبلين وتلدين ويُذاع صيت نسلك في جميع أنحاء العالم. فقالت حنَّة: حيٌّ هو الرب إلهي، إذا ولدت ذكراً كان أو أنثى نذرته للرب إلهي وسيخدمه طول أيام حياته، وأتمَّتْ أشهرها وولدت حنة في الشهر التاسع، وأرضعت الطفلة وسمَّتها مريم».

ثم تنتقل القصة لتخبرنا كيف تركت الطفلة الصغيرة والدتها، وانتقلت للعيش بيت المقدس، أيفاءً بنذر والدتها. ثم يتابع: «إن الكاهن قبِلها[٣] وقَبَّلَها وباركها قائلاً إن الرب الإله عظَّم اسمك بين جميع أجيال

(١) رسالة يعقوب البار، الفصول: ٣، ٤، ٥.
(٢) وكذلك في الأحاديث المحمدية، كما رأينا، فإنَّ أم مريم اسمها: حنَّة.
(٣) المرجع السابق، فصل. ٧، ٨، ٩، ١١.

الأرض، وعليك في آخر الأيام يعلن الرب الإله فداء بني إسرائيل، وربيت مريم كحمامة في هيكل الرب (ἐν τω ναω Κυρίου) وكانت تتناول الأكل من يد ملاك حتى سن الثانية عشرة. ثم التأم مجلس الكهنة فقالوا: إذا بلغت مريم اثنتي عشرة سنة من العمر في هيكل الرب، فما الذي يجب فعله بها؟ فوقف ملاك الرب بجانب زكريا وقال له: يا زكريا، أخرج واجمع أرامل القوم، وليأت كل واحد بقلم، ومن يريه الرب الإله علامة تكون زوجةً له. فخرج المنادون في جميع نواحي اليهودية وبوَّقوا ببوق الله، فأتى الجميع مسرعين. فألقى يوسف قدّومه أيضاً وولج في المجلس. ولما اجتمعوا توجَّهوا إلى الكاهن، فأخذ الكاهن أقلام الجميع ودخل الهيكل وصلى. ولما تمت صلاته خرج وردَّ لكل واحد قلمه، فلم تظهر علامة فيه، غير أن يوسف أخذ القلم الأخير، فخرجت من القلم حمامة وطارت على رأس يوسف، فقال له الكاهن صار لك حق بواسطة القرعة أن تتخذ عذراء الرب، فخُذها وديعة عندك، ولما كان يوسف منزعجاً أخذها وديعة عنده، فأخذت مريم جرَّة وخرجت لتملأها ماء، وإذا بصوت قائل: السلام لك أيتها المنعَم عليها. الرب معك. مباركة أنت في النساء. فأخذت تلتفت يميناً ويساراً لترى من أين أتى هذا الصوت. ولما انزعجت توجهت إلى بيتها ولما وضعت الجرة، جلست على الكرسي، وإذا بملاك الرب قد وقف بجانبها وقال لها: لا تخافي يا مريم لأنك وجدتِ نعمة أمام الله، وستحبلين بكلمته (ἐκ λόγου αὐτου) ولما سمعت هذا قالت مريم في نفسها: هل أحبل كما تلد كل امرأة؟ فقال لها الملاك: ليس كذلك يا مريم، لأن قوة العلي تظللك، فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يُدعى ابن الله وتسمينه يسوع».

ترد أسطورة ترعرع مريم في الهيكل في العديد من الأعمال الملفقة

الأخرى ننقل من أحدها هنا على سبيل المثال، فقد ورد في الكتاب القبطي «سيرة العذراء»[1] أنه لما وضعت حنَّة ابنتها مريم في الهيكل» كانت تطعم في الهيكل مثل حمامة، وكان ملائكة الله يأتون إليها بطعامها من السماء. ولما كانت تسجد في الهيكل كانت ملائكة الله يخدمونها، وكثيراً ما حدث أنهم كانوا يأتون لها بأثمار من شجرة الحياة فكانت تأكلها بسعادة».

وفي عمل القبطي آخر عنوانه «حكاية رحلة يوسف» نقرأ المقطع التالي[2]: كانت مريم تقيم في الهيكل وتعبد الله هناك بقدسية، وترعرعت حتى بلغت الثانية عشرة سنة من عمرها، فأقامت في بيت والديها مدة ثلاث سنين وفي هيكل الرب تسع سنين. ثم لما رأت الكهنة أن تلك العذراء اشتهرت بالعفاف ولم تزل تخشى الرب تشاوروا بعضهم مع بعض قائلين: لنفتش على رجل صالح لتكون خطيبة له إلى أن يحل وقت عرسها. ودعوا فوراً قبيلة يهوذا واختاروا منه اثني عشر رجلاً بحسب عدد أسباط بني إسرائيل، فوقعت القرعة على يوسف ذلك الرجل الشيخ الصالح».

وإذا عدنا إلى «البروتوفانجيليون» يخبرنا أنه عندما شاع خبر حمل مريم، أحضر يوسف وقدم إلى الكهنة للحكم. ثم تمضي القصة على هذا النحو: «فقال الكاهن[3]: يا مريم، لماذا فعلتِ ذلك وثلَمْتِ عَرْضك؟ أنت نسيت الرب إلهك مع أنك تربيتِ في قدس الأقداس وكنت تتناولين الطعام من يد الملاك وكنت تسمعين التراتيل الإلهية،

---

(١) الأناجيل القبطية المنتحلة، ص. ١٥: ج ٢: الآيات: ١٠-١٢.

(٢) المرجع السابق، فصل. ٣، ٤، ص. ١٣٢

(٣) رسالة يعقوب البار، فصل: ١٥.

لماذا فعلتِ هذا؟ فبكت بشدة وقالت: حي هو الرب إنني طاهرة أمامه ولا أعرف رجلاً».

نعرف بعد ذلك أن يوسف ومريم خرجا من الناصرة إلى بيت لحم ولم يجدا محلاً في الخان، فأقاما في مغارة حيث ولد فيها المسيح. وهنا أنقل العبارات الأصلية من ذلك الكتاب بعد حذف كل ما ليس له صلة بغرضنا الحالي ويمكن ترجمة ذلك على النحو بالتالي «ثم إن يوسف[١] وجد مغارة وأدخلها فيها، وأنا يوسف... شخصت بعيني[٢]

(١) المرجع السابق، الفصل. ١٨.

(٢) المشهد المذكور هنا لم يرد ذكره في القرآن نفسه ولا تسجل الأحاديث المحمدية بوضوح البشارة عند ولادة المسيح. ويستفيض ميلتون في وصف هذا المشهد في قصيدته «صباح ميلاد المسيح»:

«لا حربَ، أو صوتَ معركة
يسمعه الناسُ من حولهم:
كان الرمحُ كسولاً والدروع رفعت عالياً،
عرباتُ القتال توقَّفتْ
كلاليبها لا تلوثها دماءُ الإعداء.
البوقُ لا يستنفرُ الحشدَ المسلح.
ولكنْ سلاماً كانَ الليل
حيث أستهلَّ أميرُ النور
عهدَ السلام على الأرض:
بينما طيورُ الهدوءِ جلستْ تتأمّلُ على موجةٍ مسحورة.
والنجومُ، بدهشةٍ عميقةٍ،
اصطفَّتْ ثابتةً تحدِّقُ بإصرار... .»

ولكن شيئاً من هذا ترك أثره في زمن لاحق على أسطورة محمد، في إشارة إلى ولادته، فقد ذكر في «روضة الأحباب»: أن فاطمة ابنة عبد الله، كانت مع آمنة (أم محمد) لما جاءها المُخاض، وتصف تلك الليلة بالقول: نظرتُ إلى السماء فرأيت=

إلى السماء فرأيت قبة[1] السماء واقفة والطيور ترتعد. ثم نظرت إلى الأرض فرأيت قصعة موضوعة والعمال جالسون وأيديهم في القصعة. فالذين كانوا يتناولون الطعام لم يتناولوه. والذين كانوا يضعونه في أفواههم لم يضعوه، بل كانت وجوههم جميعاً مرتفعة إلى فوق. ورأيت غنماً تساق وقد وقفت، فرفع الراعي يده ليضربها فوقفت يده مرفوعة. ثم حوَّلتُ نظري إلى مجرى ماء فرأيت بعض الجداء وكانت أفواهها مرتفعة فوق الماء ولم تشرب، فرأيت أن كل شيء كان في غاية الدهشة».

ويبدو أن حادثة مريم وأشجار النخيل من حيث علاقتها بما ورد أعلاه (السورة التاسعة عشرة، مريم، ٢٣-٦) مأخوذة من عمل منتحل بعنوان «تاريخ ميلاد مريم وطفولة المخلص» على الرغم من أننا يمكننا إحالة جميع الروايات إلى مصدر أخر أكثر قدماً وهو ما سنفعله.

في الكتاب الذي أشرنا إليها أعلاه، يرتبط هذا الحدث مع الرحلة إلى مصر. وتروي الحكاية كيف بدأت العائلة المقدسة الرحلة والسفر لمدة يومين بهدوء. ثم يتابع: «ولكن[2] في اليوم الثالث بعد ارتحاله حدث أن مريم تعبت في البرية من شدة حرارة الشمس. فلما رأت شجرة قالت ليوسف: لنسترِح قليلاً تحت ظل هذه الشجرة. فبادر يوسف وأتى بها إلى تلك النخلة وأنزلها من على دابتها. ولما جلست

=النجوم تتَدَلَّى حتى إني لأقول: لَيَقَعْنَ عَلَى الأرض» وفي رواية أخرى «كانت النجوم تتدلى حتى إني لأقول: لَيَقَعْنَ عَلَيَّ».

(اقتباس من أد. كويل «محمد والمحمدية» ص ٢٥٧)

(١) راجع مسرحية بلوتوس «Amphitruo» الفصل الأول، المشهد الأول ١١٥-٢٠.

(٢) قصة ولادة مريم، فصل: ٢٠.

شخصت بعينيها إلى أعلى النخلة فرأتها ملآى بالثمر، فقالت ليوسف: يا ليتني آخذ قليلاً من ثمر هذا النخل. فقال لها يوسف: يا للعجب! كيف تقولين هذا وأنت ترين أن أفرع هذه النخلة عالية جداً؟ لكني في غاية القلق بخصوص الماء، لأن الماء الذي في قربتنا قد نفد ولا يوجد مكان نملأها منه لنروي ظمأنا. ثم قال الطفل يسوع الذي كان متكئاً على صدر أمه مريم العذراء ووجهه مبتسم: أيتها الشجرة، أَهبِطي أفرعك لتنتعش أمي بثمرك. وحالما سمعت النخلة هذا الكلام أحنت فوراً برأسها عند موطئ قدمي مريم، فالتقط الجميع من الثمر الذي كان عليها وانتعشوا، وبعد ذلك لما التقطوا جميع ثمرها استمرت النخلة حانية رأسها، لأنها كانت تنتظر الارتفاع بأمر مَن قد أحنت رأسها بأمره. فقال لها يسوع: ارفعي رأسك أيتها النخلة وانشرحي صدراً وكوني من أشجاري التي في جنة أبي. ولكن افتحي بجذورك الينبوع المستتر في الأرض، ولتفِض المياه من هذا الينبوع، ففي الحال انتصبت النخلة ونبعت من جذورها مجاري مياه زلال صافية باردة في غاية العذوبة. ولما رأوا مجاري المياه هذه فرحوا فرحاً عظيماً جداً، فرووا ظمأهم مع جميع بهائمهم وخدمتهم وحمدوا الله».

فبدلاً من ربط أشجار النخيل وينبوع الماء المتدفق من تحتها في الرواية بالرحلة إلى مصر، رأينا أن القرآن يربطها بشكل وثيق جداً بميلاد المسيح، ويصوِّره على أنه ولد في ظل الشجرة، ففي تلك اللحظة (وفقا لأحد التفاسير) انحنت الشجرة ليسقط ثمرها لمريم لتأكله، وأخبرت عن الجدول المتدفق. ومن منطلق هذا الإنجيل المنتحل، فإنه من الواضح أن شرح عبارات القرآن من المرجح أن يكون صحيحاً في التفسير الذي ينسب الكلام لجبريل.

ولكن ينبغي علينا الآن أن نبحث عن المصدر الذي استعار منه

القرآن فكرة أن المسيح ولد في ظل شجرة: وأيضاً ما هو أصل أسطورة انحناء الشجرة لتمكن الأم والطفل من أكل ثمرها. وغني عن القول إن كلا من الولادة في ظل الشجرة، وأسطورة انحنائها، ليس لها أدنى أساس، أو تصريح، في الأناجيل الصحيحة.

ومصدر كلتا الحادثين يوجد في كتب شريعة بالي البوذية، والتي أخبرتنا «Maha Vamso» «الوقائع العظمى» أنه تم اختصارها في عهد الملك «فاتاغاماني» «Vattagamani» ملك سيلان، ربما حوالي ٨٠ ق[١]. ولكن يرجح أن أجزاء كبيرة جداً من المؤلفات المكتوبة باللغة «الباليّة» ألفت قبل ذلك بمئات من السنين. وكانت الأساطير الواردة فيها، من عصور متأخرة وحتى من عصور قديمة، تنتشر على نطاق واسع، ليس فقط في الهند وسيلان، فحسب وإنما اتسع تأثيرها ليشمل آسيا الوسطى والصين، والتبت، وأراضي أخرى. ويشير المبشرون البوذيون في (اليشت الثالث عشر، ١٦) إلى إنها ظهرت في بلاد فارس في وقت مبكر من القرن الثاني قبل الميلاد. وكان التأثير الذي مارسته البوذية على الفكر في معظم المناطق الغربية، وكذلك الوسطى والشرقية والجنوبية من آسيا، هائلاً وكانت المانوية، والغنوصية والهرطقات الأخرى إضافة إلى صعود التصوف[٢]. نماذج على مدى قوة ذلك التأثير، وتظهر عدة مقاطع من الأناجيل المنتحلة أن الأفكار ذات الأصول البوذية وجدت طريقها للوصول إلى عقول الكتاب من هذه الأعمال، وعلى الأرجح أن هؤلاء الكتاب لم يكونوا مدركين تماماً للمصدر الحقيقي الذي استلهموا منه، ومن هنا كان من السهل على محمد بالتالي أن يخطئ بالطريقة

(١) انظر «الطريق النبيل الثماني» ص: ٦٩، ٧٠.

(٢) المرجع السابق، ص. ١٩٦ وما بعدها.

ذاتها. ويمكننا أن نشير إلى مقاطع محددة في الكتب الباليَّة التي تمثل أقدم شكل معروف من الأساطير حول الشجرة.

أحد هذه المقاطع موجود في كتاب يدعى «نيداناكاثا جاتاكم» «Nidanakatha Jatakam» حيث نقرأ في (الفصل الاول، ص ٥٠-٣): أن «مايا» التي يفترض أنها أم «غوتاما بوذا» لما حبلت به وعرفت أن وقت ولادتها بات وشيكاً، استأذنت زوجها «سودودانو» للعودة إلى بيت أبيها حتى يحين موعد ولادتها، وفقاً للعرف السائد في ذلك البلد. وفي رحلتها هي ووصيفاتها دخلت غابة جميلة، فأعجبت الأميرة «مايا» بالزهور الكثيرة التي رأتها على بعض الأشجار. في كلمات المقاطع التي نشير إليها، فإن سياق القصة يمتد ونقتطف منه ما يلي[1]: «بعد أن ذهبت إلى أسفل شجرة سال، حسنة الفال، تمنَّت أن تمسك غصناً من تلك الشجرة، فانثنى الغصن نحوها، بعد أن انحنى وكأنه نهاية عصا لانت بالبخار، وصارت في متناول يد الأميرة. وحين مدَّتْ يدَها وأمسكت بالغصن، جاءها المخاض وهي واقفة، وممسكة بغصن شجرة السال».

الاختلافات بين هذه القصة وقصة ولادة المسيح من حيث علاقتها في عبارات القرآن التي أوردناها أعلاه طفيفة. فمحمد يذكر النخلة، وهي أشهر من جميع الأشجار الأخرى في البلاد العربية، بدلاً من الأشجار المزهرة المذكورة في الكتاب البوذي، وبما أن شجرة السال

(1) Sa mangalasalamulam gantva salasakhayam ganhitukama ahosi. Salasakha suseditavettagam viya onamitva deviya hatthapatham upaganchi. Sa hattham pasaretva sakham aggahesi. ... Salasakham gahetva titthamanaya eva c'assa gabbhavutthanam ahosi

التي تشتهر في الهند لا تنمو في الجزيرة العربية. فمن المؤكد أن الأسطورة تغيرت بهذه الطريقة عند انتقالها، كما هو المعتاد في حكايات مشابهة عموماً. الأسطورة الهندية تلمح إلى أن المجهود الذي بذلته أم بوذا للوصول إلى الزهور التي تنمو على الغصن في الأعلى أدى إلى ولادة الطفل بشكل غير متوقع. وقد سعى القرآن لإعطاء سبب وجيه من هذا القبيل في كل ولادة تحدث تحت أشجار النخيل. لكن الواضح أن القصة هي هي. نلاحظ هنا، وكما انحنى غصن الشجرة لكي يتيح لمايا أن تقطف الزهور، فإن القرآن يتيح للرطب الناضج أن يتساقط لمريم.

الرواية الأخرى لهذه الحادثة الأخيرة -التي وردت في الإنجيل المنتحل -ترتبط بالرحلة إلى مصر عندما كان المسيح رضيعاً. وهي تتوازى مع ما نقرأه في «شريعة بالي» «Cariya-Pitakam» (الفصل الاول، القصيدة التاسعة.) حيث نعرف أن بوذا في حياته الحياة السابقة [وفقاً لعقيدة التقمُّص] كان أميراً اسمه ويسنترو «Vessantaro» اضطهده قومه، فنفي من مملكته، مع زوجته واثنين من أطفاله الصغار. فتوجه نحو الجبال البعيدة، بحثاً عن ملجأ، فجاء الأطفال. ثم، يضيف السرد البوذي[1]: «فإذ رأى الطفلان الأشجار المثمرة عند سفح الجبل بكيا

(١) الآيات ٣٤، ٣٥:

«Yadi passanti pavane darika phalite dume,
tesam phalanam hetumhi uparodanti darika.
Rodante darike disva ubbidha vipula duma,
Sayem ev' onamitvana upagacchanti darike.»

قصة ولادة بوذا تحت شجرة وردت أيضاً في الحكايات الرومانسية البوذية، ترجمها بيل من السنسكريتية والصينية (ص ٤٣)، وكذلك في الملك فو-ياو (المرجع نفسه، ص ٣٤٧). والتوهم أن مريم نشأت في الهيكل هو، بطبيعة الحال، مثل اسم والدتها آنا=

للحصول على تلك الثمار. فلما رأت الأشجارُ النبيلة الباسقةُ الولدين باكيين، انحنت دانية لهما»

فمن الواضح أن كلاً من القرآن ومؤلف كتاب «قصة ميلاد مريم» المنتحل قد اقتبسا دون وعي من البوذية مصادر هذه الحوادث الخاصة. هذه الحقيقة بطبيعة الحال تدحض مصداقية القصة. وإذا كان ثمة دليل آخر مطلوب فأنه حتى زمن متأخر من عصر محمد، كانت الأساطير البوذية منتشرة في غرب آسيا وتمَّ تبنيها كتاريخ مسيحي، وسوف يتاح الدليل بوجود قصة «بارلام ويهوشافاط» وهي الأسطورة التي كتبت باللغة اليونانية في القرن السادس ميلادي، على الرغم من أنها تعزى بشكل عام إلى «يوحنا الدمشقي» الذي ازدهر في بلاط الخليفة المنصور (ميلادي ٧٥٣-٧٧٤م). و«يهوشافاط» الأمير المسيحي في القصة، هو بلا شك بوذا نفسه، واسمه هو «corruption of Bodhisattva» وبوديساتفا، واحدة من ألقاب البوذية وتعني «المستنير» المصدر الرئيسي للقصة هو قصة أسطورية سنسكريتية لبوذا وتعرف باسم «لاليتا فيستارا» ويعد يهوشافاط قديساً في كل من اليونان والكنائس الرومانية، حيث تحتفل الأولى منها بـ ٢٦أغسطس كيوم مقدس له، بينما تحتفل الأخيرة بيومه في ٢٧ نوفمبر.

=(حنَّة) مستمدّ من قصة نذر حنَّة أمِّ صموئيل. ولكن هذا دليل على جهل كبير لتصور أن الأمر نفسه ممكن عند ولادة فتاة، والأكثر من ذلك الزعم، كما تفعل الكتب المنتحلة، بأنّ مريم ترعرعت في قدس الأقداس!

٣ ـ قصة طفولة يسوع

تعرَّفنا في ما تقدَّم على شيءٍ مما يعلِّمه القرآن حول هذا الموضوع. لكن علينا الآن التعامل مع الأمر باستفاضة. في السورة الثالثة (آل عمران، الآيات: ٤١، ٤٣) يرد أنه قبل ولادة المسيح قال عنه جبريل: «ويُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ»... وفي السورة التاسعة عشرة (مريم، ٢٩ - ٣١،) كما سبق أن رأينا، أنه عندما وبَّخ الناس مريم العذراء، أشارت إلى الطفل يسوع ليجيب عنها، مما يعني أنها تطلب منهم أن يسألوه عن أصله. فقالوا في دهشة: «كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا؟» ثم تحدث الطفل يسوع، مخاطباً إياهم: «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا».

أصل هذه الأسطورة ليست بعيدة عن المسعى. لقد رأينا بالفعل أن واحدة من الأناجيل المنحولة تصوِّر المسيح، في رحلته إلى مصر في طفولته، وتحدثه مع أشجار النخيل وهو يدعوها أن تنحني وتسمح لوالدته بقطف ثمارها. وربما كان المصدر الذي أخذ منه محمد الحادث كتاباً عربياً اسمه «إنجيل الطفولة» ففي الفصل الأول من هذا العمل نقرأ: «لقد وجدنا أنه دوِّن في كتاب يوسيفوس رئيس الكهنة الذي كان في عهد المسيح (ويدعوه البعض قيافا) إن يسوع تكلم حين كان في المهد وقال لأمِّه مريم: حقّاً أنا يسوع، ابن الله، الكلمة التي ولدتِها كما بشَّرك جبرائيل الملاك، وأبي أرسلني لخلاص العالم».

وبطبيعة الحال لا يمكن لمحمد أن يصوِّر المسيح باستخدام الكلمات ذاتها التي وردت في هذا الإنجيل المنتحل، لأنَّ القرآن ينفي دائماً أن يكون المسيح ابن الله بينما يؤمن وينصّ على أن يسوع تكلَّمَ وهو رضيع في المهد، وضع محمَّد في روايته كلمات على لسان المسيح إذ بدا له ذلك أكثر ملاءمة وأكثر انسجاماً مع الإسلام. وإلا فإن القصة هي نفسها.

بيد أن أسلوب العربية الرديء في هذا الإنجيل المنتحل، أمر سيئ للغاية، إلى الحد الذي يجعل من الصعب علينا أن نصدق أنه يعود إلى عصر محمد. ومع ذلك فليس من الحتمي إنْ تكون اللغة العربية هي اللغة الأصلية التي أؤلِّف بها العمل، وهذه مسألة قليلة أو معدومة النتيجة.

يبدو من دراسة الكتاب أن ثمة شكوكاً بأنه جرت ترجمته إلى اللغة العربية من القبطية، التي قد تكون اللغة الأمّ التي تمَّ بها تأليف الكتاب. وهذا يفسِّر، على الأرجح، الوسيلة التي تعرف بها محمَّد على تلك الأسطورة. فمن المعروف جيداً أن والياً مسيحياً من مصر كان قد أرسل له فتاتين قبطيتين هدية، إحداهما «ماريا القبطية» التي أصبحت إحدى محظياته المفضلات. هذه الفتاة، وإن لم تكن على معرفة تامة بالإنجيل، فلا شك أنها تعرف تلك الأسطورة التي كانت شائعة جداً كما هو الحال مع المعلومات الواردة في «إنجيل الطفولة» في ذلك الوقت.

وربما سمع محمَّد تلك الحكاية منها، وتوهَّم أنها وردت في الأناجيل وأنها مقبولة على نحو عام لدى المسيحيين بوصفها مرجعية إلهية، وعمد إلى دمج هذه القصة في القرآن. ومن الممكن كذلك أن ثمة آخرين غير «ماريا» رووا له الأساطير القبطية، ولكن، أيا كان الراوي أو الرواة، فمن الواضح أن مصدر قصة المعجزة هو واحد مما ذكرنا.

«إنجيل الطفولة» العربي هو واحد من عدد من الأعمال المنتحلة المتأخرة زمنياً أو من تاريخ مجهول، التي لم تكن معتمدة لدى أية طائفة مسيحية، وثمة مصادر أخرى من هذا النوع تركت بصماتها على القرآن مثل «بشارة توما الإسرائيلي»، و «رسالة يعقوب»، و «إنجيل نيقوديموس» (ويسمى أيضاً: أعمال بيلاطس) و«رواية يوسف الرامي» ويبدو أن محمد كما لاحظنا، يتمتع بموهبة غريبة في اكتشاف مصادر معلومات غير موثوقة، لأنه لا يظهر أبداً، أنه اقتبس من مراجع مشبوهة.

هذه الكتب وأخرى وغيرها تشبهها، رغم شعبيتها الكبيرة بين الجهلة من المسيحيين في ذلك الحين وحتى في أوقات لاحقة، إلا أنها لا يمكن أن يقال إنها فرضت نفسها على الجميع، فمن الواضح أنها رومانسيات دينية. تتعامل مع الموضوعات التي تثير الكثير من الفضول بشكل طبيعي، لذلك رحب بها الأشخاص الذين لا يهمهم الاستفسار عمّا إذا كان ما يقرأونه صحيحاً أو خاطئاً. وكانوا راضين تماماً عن اعتقادهم بأن هذه القصص هي تراث قديم، يبحث في الموضوعات التي لم تقدِّم الكتب الكنسية معلومات بشأنها أو أن ما أعطته من معلومات كان شحيحاً ولا يشبع ذلك الفضول.

لا شك أن هناك من مال إلى تصديق هذه الأساطير، ولكن لا يمكن ذكر شخص مثقف واحد فعل ذلك تجاه أي من الكتب التي ذكرناها. حتى أنها لم تنطو على أهمية تؤهلها لتدرج ضمن الـ «أنتيلغومينا» ولعل بعضها أعيد ترميمه على أساس أعمال سابقة مندثرة، ولكن بإضافة العديد من العناصر الخرافية.

وسواء كان الأمر كذلك أم لا، فقد وجد أنها تندمج أحياناً في أساطير العصور الموغلة في القدم، إن لم يكن لها مرجعية موثوقة. لقد

رأينا حالات لقصص معينة يمكن أن تعزى إلى خرافات بوذية قديمة جداً. قصة يسوع متحدثاً إلى الناس وهو لا يزال طفلاً رضيعاً في المهد هي مثال آخر من هذا النوع، على الرغم من أنه لا يمكن إحالتها إلى «شرائع بالي» حيث تقول نفس قصة بوذا في «لاليتا فيستارا» في مجموعة «بوذاكاريتا»[١]، وفي أعمال سنسكريتية أخرى، وفي الأسطورة الرومانسية»[٢]: أن بوذا حالما ولد «سار سبع خطوات في كل الاتجاهات، ومع كل خطوة يسيرها تتفتح من الأرض زهرة لوتس تحت موطئ قدمه، وحين ينظر بثبات في كل اتجاه، ينطق فمه بهذه الكلمات: «في كل أرجاء العالم أنا زعيم حقيقي» وتروى القصة نفسها في عمل آخر[٣] سنسكريتي صيني، مع بعض الاختلاف في عبارة بوذا السابقة إذ ترد على هذا النحو: «هذه الولادة هي ولادة المستنير بوذا: بعدها ما من ولادات متجدِّدة لي: الآن ولدتُ لمرَّةٍ واحدة وأخيرة، لأجل خلاص العالم كله». ويلاحظ أن هذا الاقتباس الأخير يحمل الفارق بين النظام البوذي الروحي والنظام المسيحي. وهو يشبه إلى حد كبير العبارات المنسوبة إلى المسيح الرضيع في اقتباسنا من «إنجيل الطفولة»: وفي الواقع فإن الكلمات الختامية لهذه الأخيرة تكاد تكون ترجمة لفظية عن السابقة[٤].

---

(١) الكتاب الأول: ٣٤، أد. كويل.

(٢) بيل، الأسطورة الرومانسية، ص. ٤٤.

(٣) ترجمة بيل لـ«he Fo-sho-hing-tsan-king» (ص ٣، ٤).

(٤) «في يشت زامياد» الزرادشتي رواية مشابهة إلى حد ما للكلام عند الولادة عن الوحش «سنافيدكا» الذي قال وهو ما زال صغيراً جداً: «ما زلت طفلاً، ولم أكبر بعد: إذا ما كبرتُ فسأجعل الأرض عَجَلة والسماوات عربة: سأنزل الروح الطيبة من السماء العليا المشرقة غارو نمانم (أعلى السماء، مسكن أهورمازدا، الموافق للعرش المحمدي)=

والحقيقة المزعومة أن المسيح تكلَّم في مهده أكَّدها أيضاً المقطع التالي من السورة الخامسة (المائدة، ١٠٩، ١١٠) مع غيرها من المسائل الأخرى التي سوف نتأمَّلها الآن. ومن أجل السهولة نقتبس الآيات بالكامل: «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ».

وما يرتبط هنا بمعجزات المسيح من إبراء الأكمه وتطهير الأبرص وإحياء الموتى، ربما استمدَّتْ من الأناجيل الأربعة الصحيحة، فقد وردت، بشكل غير مباشر، في هذه الأناجيل رغم أن الأحداث المماثلة لا تستبعد أنها استمدَّت كذلك من الأناجيل المنتحلة. ولكن النقطة ذات الأهمية لغرضنا الحالي تتعلَّق بما ذكر عن قصة خلقه الطير من الطين ومنحه الحياة. هذه الحادثة مستمدة من مصدر منتحل هو «بشارة توما الإسرائيلي» في الفصل الثاني منها نقرأ: «هذا الطفل يسوع، بعد أن أصبح في الخامسة من عمره، كان يلعب في جدول، فجمع المياه الجارية إلى بحيرات، وكان يجعلها على الفور نظيفة، ورتَّبها بكلمة

=وسأجعل روح الشر تصعد من الجحيم والبؤس. وسوف تجرُّ عربتي كلٌّ من الروح الطيبة والروح الشريرة، إلا إذا قتلني كرسسبا ذو القلب البشري». ويشير ذكر العربة والعجلة في هذه المقطع إلى التأثير البوذي في بلاد فارس، ويذكرنا بقول بوذا أنه أدار عجلة الحق، أي أنه السيد المطلق. ومن هنا، فإن فكرة الرضيع الذي يتكلم عند الولادة ليست زرادشتية أصلية، أيضاً، وإنما هي أسطورة بوذية.

واحدة، ثم جعل بعض طين ناعماً وصنع منه اثني عشر عصفوراً. وكان يوم السبت لما فعل هذه الأشياء. ومع أنه كان ثمة أولاد كثيرون يلعبون معه إلا أن أحد اليهود لما رأى ما فعله يسوع وأنه يلعب في يوم السبت، ذهب وأخبر والده يوسف قائلاً: إن ابنك عند جداول المياه وقد أخذ طيناً وصنع منه اثني عشر طيراً ونقض يوم السبت. فلما وصل يوسف إلى المكان ورأى ما فعله الطفل صرخ قائلاً له: لماذا تفعل في السبت هذه الأشياء التي لا يحل فعلها؟ فطبق يسوع كفيه الواحد على الآخر وصاح بالعصافير قائلاً لها: اذهبي. فطارت العصافير مزقزقة! فذُهل اليهود الذين شاهدوا هذا، وبعدما انصرفوا أخبروا رؤساءهم بما فعله يسوع».

ومن الجدير بالذكر إن هذه الحكاية ترد مرتين في «إنجيل الطفولة» الأولى في الفصل السادس والثلاثين، والثانية في شكل آخر في الفصل السادس والأربعين. والسبب في ذلك هو أن الجزء الأخير من الكتاب مأخوذ من «بشارة توما الإسرائيلي».

نلاحظ من جديد أنه على الرغم من أن الأسطورة هنا هي على ما هي عليه كما أشير إليها بإيجاز في القرآن، إلا أن الفرق في التفاصيل يكفي لإثبات أن محمداً استنسخ شكلاً مختصراً منها من الذاكرة، ولم يرجع إلى أية وثيقة مكتوبة. ومن هنا فإنه يذكر طيراً واحداً فقط[1] بدلاً من اثني عشر عصفوراً، ويتحدث عن الحياة التي أعطيت له بإذن من الله وليس بأمر من يسوع نفسه. تظهر الإشارة الموجزة إلى حكاية القرآن أن القصة قد حصلت على رصيد واسع وكان هناك من يؤمن بها في ذلك

---

(١) الطير: قد تأتي للجمع وللمفرد... وقد جاءت في القرآن للجمع كما في سورة الفيل: ٤/٣ «وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ ❊ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِن سِجِّيل» [م].

الوقت. وهذا يثبت مرة أخرى مدى معرفة القليل من العهد الجديد هناك في مكة ثم عندما كان في المدينة. ليس فقط لأن مثل هذه الروايات عن المعجزات التي يؤديها يسوع في طفولته لم تسجل في الأناجيل الصحيحة، ولكن يوحنا الثاني: ١١، يبين أن أيا منها لم يحدث إلا بعد المعمودية في سن الثلاثين تقريباً.

٤ ـ قصة المائدة

ترتبط هذه المعجزة المزعومة للمسيح في السورة الخامسة، (المائدة ١١٢-١٥) وأطلق اسمها[١] على السورة. وتبدأ الحكاية على النحو التالي: «إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ[٢] يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاء قَالَ اتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ *[٣] قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا[٤] وَآيَةً مِنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ».

ما لم يكن ثمة شيء من أسطورة أثيوبية في هذا الموضوع انتقلت

---

(١) المائدة تعني طاولة عليها طعام.

(٢) الكلمة الواردة هنا (حواريون) تستخدم عادة لرسل المسيح حصراً. وهي كلمة أثيوبية. هل يظهر هذا أي علاقة بين الخرافة وبعض الأساطير المتداولة في الحبشة؟ وهل كان المهاجرون المحمديون الأوائل إلى الحبشة مجرد لاجئين؟

(٣) إلى المائدة.

(٤) هذه التعبيرات تظهر الإشارة إلى إقامة العشاء الرباني.

مع المهاجرين المسلمين الأوائل الذي عادوا من ذلك البلد، فعلينا عزو هذه الأسطورة إلى سوء فهم لبعض المقاطع في العهد الجديد. إن كان ثمة مثل هذه الأسطورة في مكان آخر ولم نتبعها، فيجب أن يكون لها المصدر الأصلي نفسه. أحد مقاطع العهد الجديد التي ساعدت بلا شك في التسبب في ذلك هي إنجيل (لوقا ٢٢. ٣٠) التي يقول فيها يسوع لتلاميذه: «لِتَأْكُلُوا وَتَشْرَبُوا عَلَى مَائِدَتِي فِي مَلَكُوتِي» عرف محمد بلا شك أن المسيحيين احتفلوا بالعشاء الرباني، وفقاً (لإنجيل متى ٢٦: ٢٠-٢٩) و(إنجيل مرقس ١٤: ١٧-٢٥) و(إنجيل لوقا ٢٢: ١٤-٣٠) و(إنجيل يوحنا ١٣: ١-٣٠) و (١ كو. الحادي عشر. ٢٠-٣٤) ولكن ما قاد إلى فكرة نزول المائدة من السماء، هو بلا شك تلك المقاطع من «أعمال الرسل» (س ٩-١٦) حيث نقرأ الرواية التالية في رؤيا بطرس: «صَعِدَ بُطْرُسُ عَلَى السَّطْحِ لِيُصَلِّيَ نَحْوَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ * فَجَاعَ كَثِيرًا وَاشْتَهَى أَنْ يَأْكُلَ. وَبَيْنَمَا هُمْ يُهَيِّئُونَ لَهُ، وَقَعَتْ عَلَيْهِ غَيْبَةٌ * فَرَأَى السَّمَاءَ مَفْتُوحَةً، وَإِنَاءً نَازِلاً عَلَيْهِ مِثْلَ مُلاَءَةٍ عَظِيمَةٍ مَرْبُوطَةٍ بِأَرْبَعَةِ أَطْرَافٍ وَمُدَلاَةٍ عَلَى الأَرْضِ * وَكَانَ فِيهَا كُلُّ دَوَابِّ الأَرْضِ وَالْوُحُوشِ وَالزَّحَّافَاتِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ * وَصَارَ إِلَيْهِ صَوْتٌ: قُمْ يَا بُطْرُسُ، اذْبَحْ وَكُلْ * فَقَالَ بُطْرُسُ: كَلاَّ يَا رَبُّ! لأَنِّي لَمْ آكُلْ قَطُّ شَيْئاً دَنِساً أَوْ نَجِساً * فَصَارَ إِلَيْهِ أَيْضاً صَوْتٌ ثَانِيَةً: مَا طَهَّرَهُ اللهُ لاَ تُدَنِّسْهُ أَنْتَ! * وَكَانَ هذَا عَلَى ثَلاَثِ مَرَّاتٍ، ثُمَّ ارْتَفَعَ الإِنَاءُ أَيْضاً إِلَى السَّمَاءِ».

وتشكل الكلمات الختامية للمقطع الذي نقلناه من سورة المائدة دليلاً إضافياً على أن محمد كان يفكر في العشاء الرباني، لأنه يبدو صدى خافتاً لتحذير القديس بولص من المشاركة في تناول السر المقدس بدون استحقاق (كورنثوس. الحادي عشر ٢٧).

المقطع كله دليل إضافي على مدى معرفة محمد الطفيفة بالعهد

الجديد. فلا أحد ممن قرأوا الكتاب أو سمعوه يُقرأ، يمكن أن يخلط بين رؤيا بطرس وإقامة العشاء الرباني، أو يحول تلك الرؤيا إلى نزول مائدة الطعام من السماء خلال العمر الجسدي للمسيح. وهذا المقطع نموذج مثير للاهتمام عن الطريقة التي تنمو فيها الأساطير.

٥ ـ سوء فهم محمد لعقيدة الثالوث

في الجزء الأول من هذا الفصل أشرنا بإيجاز إلى هذا الموضوع، ولكن لا بد أن نجدد الملاحظة هنا لتصبح معالجتنا لتأثير الأفكار والممارسات المسيحية على الإسلام أكثر اكتمالاً.

المفهوم الذي شكله محمد عن عقيدة الثالوث المسيحية في الوحدانية لم يكن دقيقاً مطلقاً، مثلما بيَّنت الفقرات القليلة الماضية أنه تسلى بالإشارة إلى إقامة العشاء الرباني. وهذا واضح من الفقرات التالية: «وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ؟» (السورة الخامسة، المائدة: ١١٦. والسورة الرابعة (النساء: ١٧١): «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً».

والسورة الخامسة (المائدة، ٧٣): «لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

يقول المفسران «جلال الدين ويحيى» أن هذه الآيات نزلت رداً على أقوال سمعها محمد من بعض المسيحيين الذين قالوا بثلاثة آلهة، وهي على قولهم: الله الأب، ومريم، ويسوع. فمن الواضح تماماً من هذه الآيات أن محمداً يعتقد فعلاً أن العقيدة المسيحية غرست الإيمان في ثلاثة أقانيم إلهية منفصلة، يشكل يسوع ومريم اثنين منهم. ولكن اقتباسنا الثالث يعني أن محمد -ربما مما رآه من الديانة المسيحية-يعتقد أن الترتيب هو: يسوع، مريم، الله، أو: مريم، يسوع، الله. ما من شخص عاقل إلا وسيتساءل عما دفع محمد إلى الغضب باسم الله على هذا التجديف. وعلينا جميعاً أن نشعر بالأسف لأن العبادة الوثنية لمريم هي من قادت محمد إلى الاعتقاد بأن مَن أطلقوا عليها صفات وأسماء من قبيل «ملكة السماء» و «أم الله» يضفون عليها حقاً سمات الألوهة. فقد لمس بحق أن الله تمت إزاحته عملياً لصالحها. ولو فهم أن عقيدة وحدانية الله هي الأساس الأساسي للإيمان المسيحي (تثنية: السادس (٤) مرقس: الثاني عشر، ٢٩) لكان مصلحاً مسيحياً. لكنه لم يسمع أبداً التفسير الحقيقي لعقيدة الثالوث في الوحدانية، وإلا لفهم أن المسيحيين اللاهوتيين تحدثوا عن الأب ليس كـ «ثالث ثلاثة» ولكن: «Πηγη της Θεότητος»[1] «ينبوع الألوهية».

ومع ذلك، من المهم الإشارة إلى أنه رغم التمجيد المبالغ فيه لمريم العذراء، والذي قاد محمد إلى إغفال المذهب الحقيقي للكتاب المقدس، بما يتناقض مع الإيمان المسيحي، إلا أن هذه الأفكار والممارسات الزائفة ازدهرت بشكل واضح من خلال تعاليم العديد من

(1) Cf. Athanasius, Contra Arianos, iv. 1,
Λεχθείη δ αν και ουτω "μία αρχη θεότητος," και ου δύο αρχαί.

الأناجيل المنتحلة المتأخرة، ولا سيما تلك التي شكلت المصادر الأساسية لمعرفة محمد عن المسيحية.

نذكر ذلك لمنع احتمال أن يفترض أي قارئ محمدي أن بمقدوره إيجاد وسيلة للخروج من المأزق من خلال السعي لإثبات أن كتب مثل «قصة ميلاد مريم»، و «رسالة يعقوب الأولى» و «إنجيل الطفولة» العربي هي آثار أصيلة للإيمان المسيحي المبكر كما يتعلمها المسيحي أكثر من الكتب الصحيحة للعهد الجديد! تجربة الجدل المحمدي تجعل مثل هذا التنويه مبرراً.

٦ - إنكار صلب المسيح

من المعروف أن جميع المحمديين نفوا منذ وقت مبكر موت المسيح على الصليب. معتمدين في هذا النفي على ما جاء في السورة الرابعة (النساء، ١٥٧، ١٥٨) في القرآن حيث يصور الله قول اليهود: «وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ محمد ثم في الرد عليهم يقول: وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ [بشخص آخر]: وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا *بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا».

إن إنكار محمد لموت المسيح على الصليب لا يمكن أن يعزى حتى إلى هذه المراجع غير الموثوقة مثل الأناجيل المنتحلة التي يفضلها. وغني عن القول إنه يتناقض مع كل كتب أنبياء العهد القديم ورسل العهد الجديد، ولا شك أن مصدره عدم المعرفة. وبدا له أن ينال من مكانة المسيح في الصلب وإعدامه من قبل أعدائه، وكان محمد أكثر اقتناعاً بذلك حين وجد أعداءه اليهود يبتهجون بمقتل يسوع. ومن ثم، فقد تبنى بكل سرور آراء بعض الهراطقة، الذين كان له بعض القواسم المشتركة معهم في جوانب أخرى. فالعديد من هؤلاء الهراطقة، قبل حقبة طويلة من عصر محمد، نفى الآلام الحقيقية للمسيح. ويخبرنا «إيريناوس» في إشارته إلى آراء «باسيليدس» . وهو مهرطق غنوصي عاش

حوالي ١٢٠ ميلادي-أن الأخير في حديثه عن يسوع، وهو يدرِّس أتباعه المضللين قال: «أنه[١] لم يعان، وأن شخصاً اسمه سمعان القيرواني تولى حمل الصليب، وأن هذا الرجل هو الذي صلب خطأ وجهلاً، وإن المسيح غيَّر شكل هذا الرجل، بحيث جعلهم يتوهمون أنه المسيح نفسه». وتتوافق هذه اللغة بشكل وثيق مع لغة القرآن في هذه المسألة. ومع إن إنكار محمد لفكرة الصلب متماثل مع رأي «باسيليدس» لكن بناء على ما ذكره «إيريناوس» فأن «باسيليدس» ينطلق في فكرته من مبدأ أخر مختلف إذ يقول: أن يسوع كان متطابقاً مع «νους» أو العقل أو هو الفيض الأول[٢] من الإله المجهول وأنه لا يمكن أن يمر بتجربة الآلام ولا يعاني لأنه ليس له جسد بشر مادي. وهذا الرأي يعارض ما ورد في القرآن تماماً، الذي يؤكد أن يسوع، رغم أنه نبي ورسول، إلا إنه مجرد بشر، له جسد مادي، وولد من أم بشرية، ومصيره الموت عاجلاً أم آجلاً.

من هنا نرى أن محمداً عارض المبدأ الذي استخلص منه «باسيليدس» نتيجة محدَّدة، ولكنه قَبِلَ هذه النتيجة ودوَّنها في القرآن. وهذا إجراء غير منطقي تماماً لا يمكن إحالته إلى شيء سوى عدم المعرفة.

---

(1) Neque passum eum; et Simonem quendam Cyrenaeum angariatum portasse crucem eius pro eo; et hunc secundum ignorantiam et errorem crucifixum, transfiguratum ab eo, uti putaretur ipse esse Iesus.

(٢) لأغراضنا الحالية لا لزوم للإشارة إلى الفرق بين رواية «إيريناوس» وتلك التي قدمها «هيبوليتوس» في كتابه «فيلوسوفومينا» ومع اختلاف الروايتين في نواح معينة، فإنهما تتفقان بشكل كاف في إظهار الحقيقة الكلية لأفكار باسيليدس الغنوصية في هذه الموضوعات.

لكن هذا الرأي حول موت المسيح -الظاهري وليس الحقيقي-لم يقتصر على «باسيليدس» إذ يذكر «فوتوس» (٨٢٠-٩١ تقريباً) في كتابه «Bibliotheca» «المكتبة» (الرقم ١١٤) أنه في كتاب منتحل يسمى «أسفار الرسل»[١] تأكيد على أن «المسيح لم يصلب، ولكن صلب آخر بدلاً عنه». كما أن «ماني» -أو مانيس-النبي المزيَّف المشهور الذي كان له في وقت ما تأثير كبير في بلاد فارس، رأى بطريقة مشابهة أن «أمير الظلام هو من تم تقييده على الصليب، وأن هذا الشخص هو من حمل أكليل الشوك»[٢] ومن هنا لا يمكن القول هل نفى محمد موت المسيح بمراجع صحيحة، أم أنه فعل ذلك لأنه من هذه الصحبة الصالحة!

ولكن في أماكن عدة في القرآن ذكر لحقيقة أن يسوع يموت، مثل بقية البشر. على سبيل المثال، في السورة الثالثة (آل عمران، ٥٥) يرد: «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ».

وكذلك في السورة التاسعة عشرة (مريم، الآية: ٣٤) يصوِّر يسوع

(١) Περίοδοι Αποστόλων نقلاً عن رودويل «القرآن» ص ٤٧١ الهامش:
και τον Χριστον μη σταυρωθηναι, αλλ ετερον αντ αυτου

(٢) المانوية:
Ep. Fund., ap. Evodium: "Princeps itaque tenebrarum cruci est affixus, idemque coronam spineam portavit.

وليس من الضروري هنا أن نراجع ما جاء في «إنجيل برنابا» أن يهوذا قد صلب بدلاً من المسيح، لأنَّ هذا العمل كتب بعد فترة طويلة من عصر محمد. الأحاديث الإسلامية نفسها مختلفة ومتناقضة إلى حد ما فيما يتعلق بمسألة ما إذا كان المسيح قد مات أم لا، وإذا مات؟ فكم من الزمن بقي ميتاً؟ ومن الذي صلب مكانه؟ ويمكن الاطلاع على معالجة هذا في كتابي «دين الهلال» الملحق أ.

وهو في المهد بقوله: «وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّا».

لا يتفق المفسرون تماماً على المعنى الدقيق لهذه الآيات. إذ يرى البعض أنه عندما أراد اليهود صلب المسيح، قبضوا عليه وسجنوه هو وحواريه في المساء الذي يسبق عيد الفصح، حيث اعتزموا أن يقتلوه صباح اليوم التالي. ولكن الله أرسل له في الليل رسالة «لا بدَّ أن تجتاز الموت من خلالي، ولكن بعدها مباشرة سأرفعك نحوي وتتحرَّر من سطوة الكفار».

وفقاً لذلك قضى يسوع وظل ميتاً لثلاث ساعات. البعض الآخر يذكر مدة أطول، ثمَّ ظهر جبرائيل وحمله من خلال نافذة السجن ورفعه نحو السماء، دون أن يراه أحد. بينما جيء بأحد الجواسيس اليهود كان قد ارتكب جريمة وصلب بدلاً عنه[1]. لكن الرأي الأكثر شيوعاً، في الواقع، ويمثل الرأي العام للمسلمين في الوقت الحالي، هو ما تدعمه الأحاديث الواردة في أعمال قصص الأنبياء[2] و (عرائس التيجان)[3].

تفيدنا هذه الكتب أنه عندما حاصر اليهود المنزل الذي فيه يسوع وحواريه، أخذ جبريل يسوع بعيداً من خلال السقف أو النافذة وحمله وهو على قيد الحياة إلى السماء الرابعة. ودخل «شيوغ» «ملك اليهود»، أو صديق له يدعى «فالطيانوس» إلى المنزل لقتل يسوع، فاشتبهوا به وقتلوه، ولكن مع ذلك لا بد ليسوع أن يموت، وسيعود إلى الأرض لفعل ذلك! وهذا هو ما تنطوي عليه السورة الثالثة: ٥٥؛ والتاسعة

---

(١) ويل، «أساطير المسلمين التوراتية» ص. ٢٩٦ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٤، ٢٧٥.

(٣) المرجع السابق، ص. ٥٤٩، ٥٥٠.

عشرة: ٣٣؛ وكذلك السورة الرابعة: ١٥٩. وفي هذه الأخيرة يرد: «وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدا» وتشير هذه الآية إلى موت المسيح، كما يعتقد كثيرون. لأنه «عندما يظهر المسيح الدجال[1] ويضلِّل البشر ويشيع الكفر بينهم[2]، يكون الإمام المهدي في القدس مع عدد من المسلمين، ثم يأتي يسوع ويقاتل الدجال فيقتله، ويدعو أتباعه لاعتناق دين محمد، وسيدخل يسوع نفسه في دين محمد، وسيهب الرحمة لكل من يؤمن بالإسلام، ويقتل كل من لا يؤمن به، من الشرق إلى الغرب، وهو يُخضع العالم كله ويجعل قومه مسلمين، ويثبت صحة الدين المحمدي حتى أنه لن يبقى كافر واحد، في العالم كله، وسيصبح العالم متحضراً تماماً يسود فيه الرخاء والأمن والسعادة. وينجز العدل حتى تشرب الذئاب والغنم من ماء واحد معاً، وسيسخط على الأشرار ثم يعيش على هذا النحو أربعين سنة، في إصلاح العالم، وهو أيضاً سيتذوّق مرارة الموت، ويغادر العالم. ثم يدفنه المسلمون بالقرب من حُجرة محمد المصطفى».

ما يقال عن عودة المسيح وإقامة مملكته على الأرض كلها، واضح إنه مأخوذ من الكتاب المقدس، وخاصة من المقاطع مثل «أعمال الرسل»: ١/ ١١؛ و«سفر الرؤيا»: ١/٧ و«أشعيا»: ١١: ١-١٠. ولكن للأسف! فإنَّ «ذيل الثعبان هو فوق كل شيء» لأنه يؤكد أن المسيح ينشر الإسلام بالسيف! في إشارة إلى القضاء على المسيح الدجال كما هو واضح اعتماداً على «الرسالة الثانية إلى أهل تسالونيكي» الإصحاح ٢: ٨-١٠، والمقاطع متماثلة تقريباً. ولكن لا بد لنا أن نستفسر عن المصدر

---

(١) هذا هو لقب المسيح الدجَّال.

(٢) «قصص الأنبياء» ص. ٢٧٥؛ وراجع كذلك «عرائس التيجان» ص. ٥٥٤

الذي استمدَّ منه محمد فكرة أن المسيح سيموت بعد مجيئه الثاني، إذا كان هذا هو المعنى الحقيقي لآيات القرآن التي نقلناها، وفيما إذا كان ثمة اعتماد على الأحاديث التي يوردها البيهقي وآخرون كما هو مبين على لسان محمد في هذا المعنى، لأن كل مسيحي يعرف أن مثل هذا الوهم يتناقض تماماً مع الكتاب المقدس «على سبيل المثال سفر الرؤيا الأول: ١٨/١٧».

تعود الأعمال المنحولة لمساعدتنا من جديد هنا. ففي كتاب عربي «يرجح إنه من أصل قبطي» عنوانه «وفاة أبينا المقدس الشيخ يوسف النجار» نقرأ في سياق الحديث عن صعود «أخنوخ» و«إيليا» إلى السماء دون أن يموتا: «هذان الرجلان سيأتيان إلى العالم في نهاية الزمان، في أيام الضيق والخوف والضنك والقهر، ولا بدّ أن يموتا (الفصل الحادي والثلاثون)[١].

وفي عمل مشابه إلى حد ما عنوانه «قصة رقاد مريم» نقرأ الكلمات نفسها تقريباً: «أما بالنسبة لأخنوخ وإيليا-فلا بدَّ لهما، هما أيضاً، أن يتذوَّقا الموت أخيراً»[٢]. ولا بد أن محمداً سمع مثل هذه العبارة، لأنه يقول مرتين في القرآن (السورة الثالثة (آل عمران، ١٨٥) والسورة التاسعة والعشرون (العنكبوت، ٥٧)، «كلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتَ»[٣].

ويبدو أن تمسكه بفكرة صعود يسوع إلى السماء حيّاً (السورة الثالثة،

---

(١) نص العبارة بالعربي: ينبغي لأولئك أن يأتوا إلى العالم في آخر الزمان في يوم القلق والخوف والشدة والضيق ويموتوا.

(٢) الأناجيل القبطية المنتحلة، ص ١٠٨، ١٠٩.

(٣) كذلك يرد التعبير مرة ثالثة في سورة الأنبياء ٢٥ الآية ٣٤ «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ[م].

٤٨) فرض على ذهنه بطبيعة الحال، أن يتبع كذلك فكرة أن المسيح مثل «أخنوخ» و«إيليا» لا بد أن يموت بعد مجيئه الثاني. وبالتالي فإن قبر المسيح شاغر الآن بالانتظار ومهيأ له في المدينة، بين قبري محمد وأبي بكر!

كما تخبرنا الأحاديث المحمدية أن المسيح سيتخذ زوجة عند مجيئه الثاني[1]. ويعود ذلك إلى سوء فهم لهذه المقاطع في سفر الرؤيا: ١٩/ ٧-٨ حيث نقرأ: «لِنَفْرَحْ وَنَتَهَلَّلْ وَنُعْطِهِ الْمَجْدَ! لأَنَّ عُرْسَ الْخَرُوفِ قَدْ جَاءَ، وَامْرَأَتُهُ هَيَّأَتْ نَفْسَهَا * وَأُعْطِيَتْ أَنْ تَلْبَسَ بَزًّا نَقِيًّا بَهِيًّا، لأَنَّ الْبَزَّ هُوَ تَبَرُّرَاتُ الْقِدِّيسِينَ * وَقَالَ لِيَ: اكْتُبْ: طُوبَى لِلْمَدْعُوِّينَ إِلَى عَشَاءِ عُرْسِ الْخَرُوفِ!». وَقَالَ: «هذِهِ هِيَ أَقْوَالُ اللهِ الصَّادِقَةُ».

وبطبيعة الحال فإن معنى هذا المقطع المجازي يجري تفسيره بالكامل في مكان آخر (على سبيل المثال الرؤيا: ٢/٢١ رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس: ٥/ ٢٢-٣٢) بأنه يشير إلى إلى المحبة الكاملة والاتحاد التام في المسائل الروحية التي ستبقى بعد ذلك بين المخلِّص وطهره والكنيسة المخلّصة.

أما الحديث الذي يقول بأن المسيح سيعيش أربعينَ عاماً[2] على الأرض بعد عودته فلا بدَّ أنه نشأ من سوء فهم لأعمال الرسل: ٣/١ حيث نعلم أنه ظهر لحواريه مدة أربعين يوماً بعد قيامته وقبل صعوده.

---

(١) «عرائس المجالس» ص. ٥٥٤.

(٢) «قصص الأنبياء» ص. ٢٧٥.

٧ ـ نبوءة المسيح المزعومة بمجيء محمَّد

ثمة الكثير من المقاطع في الكتاب المقدس التي يسعى الجدليون المحمديون من خلالها للبرهنة على نبوءة محمد. بيد أننا سنتعامل هنا مع مجموعة صغيرة من الآيات، لأننا في مكان واحد فقط في القرآن نجد تأكيداً واضحاً بأن المسيح أخبر حواريه أن يترقَّبوا ظهور محمد، ومن بعض الآيات في إنجيل القديس يوحنا الذي يشير لذلك بوضوح.

في (سورة الصف: ٦) نقرأ: «وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ».

الإشارة هنا إلى مجيء الفارقليط أو «المعزِّي» الذي ورد ذكره في يوحنا الرابع عشر ١٤: ١٦ و٢٦ و١٥: ٢٦ و١٦: ٧. لقد سبق لنا الإشارة[١] إلى أن محمداً قد تضلَّل من جانب بعض الجهلة والمرتدين المتعصبين أو سواهم من الأتباع، الذين خلطوا بين كلمة «παράκλητος» المستخدمة في هذه الآيات مع كلمة يونانية أخرى هي «περικλυτός» والتي يمكن أن تفسر دون مخيلة واسعة بالكلمة العربية «أحمد» «الحمد الكثير» ولسوء حظ محمد، فإن كلمة: «περικλυτός»

---

(١) ص. ١٤٢، الهامش: ١.

ليست هي الكلمة المستخدمة، وبقليل من الجهد يمكن ترجمة المصطلح الذي استخدمه المسيح على أنه أحمد بـ «المعرفة القليلة» وقد تعني في اليونانية: «الأمر الخطير» وبالتأكيد فإن المثال لم يتضح بشكل أفضل مما هو عليه في القرآن. وبالطبع فإن كل من يقرأ المقاطع في «إنجيل القديس يوحنا» بعناية سيرى أنها لا تتضمَّن نبوءة عن أيِّ نبيٍّ قادم، ولا يمكن أن تكون ملائمة ليدعيها أيُّ إنسان قط. وعلاوة على ذلك، فإن كل مسيحي يعرف كيف يتم إنجاز الوعد (أعمال الثاني ١-١١). إنه الخطأ، الذي قاد محمد من ناحية أخرى، إلى التوهُّم أنه «الروح القدس» الذي يخلط المسلمون بينه وبين جبرائيل.

قبل أن نخرج من هذا الموضوع ينبغي تذكير القارئ أن محمداً لم يكن أول من استعان بهذه الآيات لينسب النبوءة لنفسه. فمن المعروف أن «ماني»[١] أو -مانيس-المشهور في الأساطير الفارسية كرسَّام مبدع، تبنَّى الادعاء نفسه بأنه «الشخص» الذي أشار إليه المسيح. فقد ادعى ماني بوضوح بأنه «الفارقليط» «المعزي» (مثل محمد) من أجل استمالة المسيحيين المطلعين على الكتاب المقدس وكسبهم إلى جانبه. وهذا أمر لافت للنظر، لأنه رفض يسوع التاريخي واخترع آخر لنفسه، مسيح لا يعاني ولا يموت (المسيح المستحيل). ثمة نقطة ثالثة تجمع محمد في ادعائه إنه آخر الأنبياء وأعظمهم مع «سفير النور» ماني الذي عينه الإله. غير أن هذا الأخير كان أقل حظاً من محمد، إذ انتهى «مخوزقاً» بأمر من بهرام الأول، من بلاد فارس، حوالي ٢٧٦ ميلادي[٢]. وأخيراً،

---

(١) وكان المانويون قد لجأوا إلى الجزيرة العربية قبل فترة طويلة من زمن محمد (إسحاق دي بوسوبر: «تاريخ المانوية» جزء. ١. الفصل الرابع).

(٢) معظم المعلومات التي لدينا حول ماني نفسه مصدرها «الفهرست» على الرغم من أنه=

خرج بكتاب سماه «أرزانج/ آرتانج»[1] كتبه كتاب مشرقيون وقال إنه أنزل عليه من السماء ويحتوي على الوحي النهائي للبشرية. ومنشأ إنكاره لمعاناة المسيح من تبنيه للفكرة الغنوصية القائلة بأن الشر جوهري بجميع المسائل، مما جعله ينكر أن يسوع الحقيقي له جسد بشري. وفي هذا الصدد فقد اتبع ماني فكرة «باسيليدس» بمنطقية أكثر مما فعله محمد، كما رأينا.

=من الصعب معرفة المراجع التي اعتمدها مؤلف هذا العمل. ولد ماني عام ٢١٦ م على الأرجح، المؤلفات البطريركية تتضمن الكثير من المعلومات حول تعاليمه.

(١) ربما يعني «الكتاب النفيس» من ارته أو أريتا + أنغا: الحواشي، الاجزاء. [كتب تيسدال اسم الكتاب على هذا النحو: «Artang» بينما هناك صيغ أخرى لكتابة الاسم لكاتب ماني: «Arjang Artng, Arzhang» وبالفارسية: ارژنگ: وبهذا يحتمل الأمر استنتاجات أخرى إلى جانب استنتاجه في تأويل اسم الكتاب [م]

٨ ـ خلق آدم وسجود الملائكة له

نقرأ في السورة الثالثة، (آل عمران، ٥٩): «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ»[١].

وفيما يتعلق بخلق آدم من التراب، يخبرنا الحديث أنه عندما أراد الله خلقه، بعث الملائكة واحداً تلو الآخر لكي يأتوا بقبضة من أديم الأرض. ولما خاب مسعاهم نزل أخيراً عزرائيل ووضع يده وأخذ قبضة من أديم كل الأرض، وكانت الأرض تدرك أن الكثيرين من ذرية آدم سيعاقبون بنار الجحيم، لهذا تضرعت للملائكة أن لا يأخذوا منها شيئاً، وبعد أن فشل مسعى كل هؤلاء الملائكة، عادوا جميعاً خالي الوفاض. ما عدا عزرائيل فقد وضع يده وأخذ قبضة من التراب رغم تضرع الأرض -يقول البعض إنه أخذها من المكان الذي بنيت عليه الكعبة بعد ذلك، والبعض الآخر يقول من أديم الأرض كلها-وأتى بها إلى الله[٢] قائلاً: يا الله أنت تعرف ها أتيت به. وقال أبو الفداء نقلاً عن «الكامل في التاريخ» لابن الأثير: قال النبي (ص) إن الله تعالى خلق آدم عليه

(١) انظر الهامش ٣ ص. ٤٨ أعلاه.

(٢) «قصص الأنبياء» ص. ١١.

السلام من قبضة قبضها من جميع الأرض، وإنما سُمي آدم لأنه خُلق من أديم الأرض».

هذا الحديث مثير للاهتمام لأنه يتيح مثالاً آخر على مدى مديونية الإسلام لأفكار هرطقية. فالخرافة كلها مستعارة من «مرقيون» ونعرف ذلك من اقتباس فقرة من كتاباته يوردها الكاتب الأرمني «يذنيق» في عمله المعنون «تفنيد البدع» وذلك في سياق حديثه عن الهرطقة في القرن الثاني، أذ يقتبس «يذنيق»(١) المقطع التالي الذي يتضمن بعض وجهات نظره الغريبة: «ولما رأى إله التوراة أن هذا العالم جميل عزم على خلق الإنسان منه، ولما نزل إلى الأرض إلى المادة (υλη) قال: أعطيني شيئاً من طينك وأنا أعطيك نسمة روح مني، ولما أعطته المادة شيئاً من أديمها خلقه (أي آدم) ونفخ فيه الروح... ولهذا السبب سُمي آدم لأنه خُلق من أديم الأرض».

لفهم هذا الاقتباس من المهم أن نذكر أن مرقيون جمع الثنائية الفارسية القديمة إلى حد كبير، وهي الثنائية التي تعتقد بوجود علتين قديمتين في العالم، أحداهما الخير المطلق والأخرى الشر المطلق. ف «ديميورجوس» أو «خالق العالم المادي السفلي» الذي يتحدث عنه هو إله التوراة لأنه هو من أعطى اليهود شريعة موسى، الشريعة فحسب، ولكن ليس الخير المطلق ولا الشر المطلق، بل هو في صراع دائم مع مبدأ الشر. ولذلك فهو بمثابة رئيس ملائكة الله، وفي الأسطورة المحمدية يبدو على هذا النحو. ووفقاً لفكرة «مرقيون» فإن «ديميورجوس» سكن في الأصل في السماء الثانية، وأنه لم يكن أول

---

(١) الكتاب الرابع.

الأمر يعلم بوجود المبدأ الأعلى للخير الذي سمَّاه مرقيون «الإله المجهول» ولمَّا علم بوجوده، أصبح عدواً له، وحاول منع البشر من معرفة الله، لئلا يعبدوه. ولذلك أرسل الله يسوع المسيح إلى العالم لتدمير قوة إله التوراة، ومصدر الشر، وإرشاد البشر إلى معرفة الله الحق. وكان يسوع قد تعرض للهجوم من كائنات الشر هذه، ولكنها لم تلحق به أذى، لأنه ذو جسد ظاهري فقط بحيث يبدو مرئياً للبشر، ولكن ليس الجسد الجوهري. وهنا نجد أيضاً عقيدة «الدوسيتية» التي رغم تناقضها مع أفكار محمد العامة، إلا أنهما تتفقان على إنكار صلب المسيح.

ويتفق الكثير مما قاله «مرقيون» عن «الديميورجوس» مع الأسطورة المحمدية عن «عزازيل» الذي يسكن في السماء الثانية أيضاً (ووفقاً لبعض الأحاديث في جميع السماوات) قبل أن يُطرد ويطلق عليه اسم: إبليس والشيطان «διάβολος» لكن طروحات كل من «مرقيون» ومحمد حول هذه النقطة استعيرت بشكل واضح من الأساطير الزرادشتية التي سنؤجل بحثها إلى الفصل التالي[1].

ومن الجدير بالذكر أن «مرقيون» وأتباعه أطلقوا على «ديميورجوس» أسماء عدة بينها: «رب العالمين» «خالق المخلوقات» و «أمير هذا العالم». والاسمان الأولان منها ينتميان بشكل دقيق إلى الله، ويستخدمان من قبل كل من اليهود والمسلمين. أما الاسم الثالث فهو مستعار من يوحنا: ١٤/٣٠، حيث يطلق هذا الاسم على الشيطان. فمن خلال خطأ فادح، يفهم المحمديون هذه الآية دليلاً على نبوءة محمد، كأنهم يريدون تطبيق هذا اللقب على نبيهم في المحصلة!

---

(١) ص. ٢١٢، وما بعدها.

وعلى صلة بقصّة خلق آدم، يؤكد القرآن مراراً وتكراراً أن الله أمر الملائكة أن يسجدوا له. من بين آيات أخرى لهذا الغرض، يمكننا تقديم ما يلي: السورة الثانية، (البقرة: ٣٤): «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ...». والسورة السابعة عشرة (الإسراء: ٦١) والسورة الثامنة (الكهف: ٥٠) والسورة العشرون (طه: ١١٦) تحتوي على العبارات نفسها وبالكلمات ذاتها تقريباً.

لا يمكن أن تكون هذه الفكرة مستمدة من التلمود، فعلى الرغم من أنها تخبرنا أن الملائكة لم يجدوا مبرراً لإطاعة آدم، ولكن من الواضح أن ثمة خطأ قد ارتكب. ومما لا شك فيه أنها اقتبست من سوء فهم «رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين»: ١/٦: «وَأَيْضاً مَتَى أَدْخَلَ الْبِكْرَ إِلَى الْعَالَمِ يَقُولُ: وَلْتَسْجُدْ لَهُ كُلُّ مَلائِكَةِ اللهِ» ويبدو أن محمداً أصيب بدهشة كبيرة إزاء هذه الآية، وبما أنه -كالمعتاد- يسيء فهمها من خلال التوهم أن «أوّل من خُلق»[1] ليس المسيح بل آدم، فقد طرح مراراً وتكراراً ما يوازيها في القرآن، وقد يكون هذا بمثابة حجّة مضادة لعقيدة تأليه المسيح (السورة الثالثة، ٥٩) تخبرنا أن يسوع في نظر الله مثل آدم تماماً، في عدم وجود أب بشري (كما يفسر عباسي والجلالان ذلك) لكنه لا ينبغي أن يكون تبريراً للألوهية على وفق هذه الرواية.

---

(١) ربما خلط محمد بين مصطلح «النشأة الأولى» في هذه الفقرة وعبارة «أول الخلق» وهو الوصف الذي يتكرر عند الحديث عن آدم في «عهد إبراهيم».

٩ ـ كلُّ البشر يجب أن يُلقوا في النار!

هكذا تتضح هذه الفكرة الغريبة في السورة التاسعة عشرة (مريم، ٦٩-٧٣): «فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا *ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا* ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا*وَإِن مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيًّا».

وقد تسبَّب هذا المقطع بالكثير من الشقاء للمسلمين الأتقياء، على الرغم من أنهم يأملون في ألا تطالهم نار الجحيم بأذاها.

لقد سعى المفسرون بجدية لشرح المعنى الواضح للكلمات (رغم أنهم لم يتفقوا بأي حال من الأحوال في هذا الرأي) وقالوا إن المقصود هو أن جميع البشر، بمن فيهم المسلمون الحقيقيون لا بد أن يردوا نار الجحيم، وأنهم يفعلون ذلك حين يمرون يوم القيامة على جسر[1] يسمونه الصراط. وإذا قبلنا هذا التفسير، مؤقتاً -قبل أن نبحثه بتفصيل واستفاضة في الفصل الخامس، عندما نتأمل في تأثير الزرادشتية على أصل الإسلام-فإن المرجح من لغة الآيات التي نقلناها هنا أن محمداً يعبِّر عن اعتقاده بالمطهِّر. وإذا كان الأمر كذلك، فقد أخذه من مسيحيي

(١) ص. ٢٢٠، وما بعدها.

عصره. وقد بذلت محاولات لاستنتاج هذا المذهب من (إنجيل مرقس: ٩: ٤٩) و(١كورنثوس: ٣: ١٣) فمن الممكن، بالطبع، أن محمداً سمع هذه الآيات تقرأ، وأساء فهم معناها، ولكن من المرجح أكثر أنه استعار الخطأ جاهزاً. إذ يخبرنا «عهد إبراهيم» بأن صحيفة أعمال كل إنسان تختبر بالنار، فإذا أحرقت النار صحيفة أعماله فسيقوده الملاك الذي يرأس النار إلى مكان العذاب. ومع ذلك، فإن معنى هذا المقاطع المنفصلة في القرآن غير مؤكد إلى حد ما، ونحن بحاجة إلى البحث أكثر في أصل عقيدة المطهّر.

١٠ ـ «الميزان»

يشار إلى الميزان (الذي توزن فيه الأعمال الحسنات والسيئات يوم القيامة) في أماكن عدَّة من القرآن أهمها التالية: السورة السابعة (الأعراف: ٨، ٩): «وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ».

السورة الحادية والعشرون (الأنبياء: ٤٧): «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ».

السورة الثانية والأربعون (الشورى: ١٧): «اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ».

السورة ١٠١ (القارعة: ٦، ٩): «فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ».

يقول المفسرون، لهذه الآيات استناداً إلى أحاديث موثوقة: أن الله سوف ينصب يوم القيامة بين السماء والأرض ميزاناً له لسان وكفَّتان، مخصص لهذه المهمَّة حصراً وهي وزن أعمال البشر الحسنات والسيئات، أو الصحائف التي يتم تحديدها.

فالمؤمنون الحقيقيون سيرون أن الكفَّة الذي وضعت عليها حسناتهم تترجَّح على الكفَّة الأخرى التي وضعت عليها سيئاتهم: في حين أن الكفَّة التي وضعت عليها حسنات الكافرين ستكون خفيفة، وتترجَّح عليها كفَّة سيئاتهم. ولن يطرح من أفعال المؤمنين، ولا يضاف أيّ شيء إلى خطاياهم. فأولئك الذين حسناتهم راجحة سيدخلون الجنة، بينما الذين حسناتهم غير راجحة قياساً لسيئاتهم سيلقون في نار الجحيم.

وأشير هنا إلى أن فكرة وزن أعمال البشر تظهر في التلمود، على سبيل المثال. في «روش هاشناه» فصل: ١٧. وقد تكون هذه مستمدة من سفر دانيال: ٥/ ٢٧. ولكن الميزان في هذه الحالة هو لفظ مجازي، وعملية وزن «بلشاصر» لا تحدث يوم القيامة، أو حتى بعد موته، ولكن وهو بعد على قيد الحياة. ينبغي علينا، إذن، أن نفتش في مكان آخر عن أصل التصور المحمدي، وسنجده مرة أخرى في الكتاب المنتحل «عهد إبراهيم»[١] ويبدو أن هذا العمل قد كتب أصلاً في مصر. وكان معروفاً عند «أوريجانوس» وربمّا تم تأليفه في القرن الثاني من عصرنا، أو في زمن لا يتجاوز القرن الثالث، ومؤلفه يهودي تحوَّل إلى المسيحية، وهو موجود في نسختين يونانيتين وأخرى بالعربية. التشابه بين بعض المقاطع في هذا الكتاب وآيات معينة من القرآن، وكذلك الأحاديث المحمدية اللاحقة أكبر من أن يكون مجرد صدفة[٢]. وهو ما يمكن ملاحظته بشكل خاص فيما رأيناه في «عهد إبراهيم» من إشارة إلى «الميزان».

فقد ورد فيه أنه لما جاء ملاك الموت بأمر الله لقبض روح إبراهيم، طلب منه خليل الله أن يعاين غرائب السماء والأرض قبل أن يموت.

---

(١) نشرت في نصوص ودراسات، المجلد. الثاني، لا. ٢.

(٢) انظر الأمثلة في «دين الهلال» الملحق ج، ص. ٢٤٢ وما بعدها.

فلما أُذِن له عرج إلى السماء وشاهد كل شيء، وبعد هنيهة دخل السماء الثانية ونظر الميزان يزن فيه أحد الملائكة أعمال الناس.

ونص تلك العبارة[1] «إن كرسياً كان موضوعاً في وسط البابين، وكان جالساً عليه رجل عجيب، وأمامه مائدة تشبه البلور وكلها من ذهب وكتان رفيع. وعلى المائدة كتاب سُمكه ست أذرع وعرضه عشر أذرع. وعلى يمينها ويسارها ملاكان[2] يمسكان بورقة ودواة وقلم.

وأمام المائدة ملاكٌ يشبه النور يمسك ميزاناً بيده، وعلى اليسار ملاك من نار عليه علامات القسوة والفظاظة والغلظة يمسك بوقاً فيه نار آكلة، لامتحان الخطاة. وكان الرجل العجيب الجالس على الكرسي يدين ويمتحن الأرواح، والملاكان اللذان عن اليمين واليسار يكتبان ويسجّلان أعمال الناس. فكان الملاك الذي على اليمين يكتب ويسجّل الأعمال الصالحة، والملاك الذي على اليسار يكتب الخطايا. أما الملاك الذي أمام المائدة والممسك بالميزان فكان يزن الأرواح، والملاك الناري الممسك بالنار كان يمتحن الأرواح. فاستفهم إبراهيم من ميخائيل رئيس الملائكة: ما هذه الأشياء التي نشاهدها؟ فقال له رئيس الملائكة: إن ما تراه أيها الفاضل إبراهيم هو الحساب والعقاب والثواب.

ويذهب السرد إلى القول إن إبراهيم رأى أن كل نفس كانت أفعالها الحسنة والسيئة متساوية لم تكن من بين الناجين ولا بين الخاسرين، لكنها أخذت مكاناً وسط الاثنين. هذه المسألة الأخيرة تتفق تماماً مع الاعتقاد المحمدي الذي يرد في السورة السابعة (الأعراف،٧: ٤٦):

---

(١) «عهد إبراهيم» المراجعة: أ، الفصل. الثاني عشر، ص. ٩١: راجع ص. ٩٢، ٩٣، ١١٣، ١١٤. والفصل الثالث عشر، والرابع عشر، والمراجعة: ب، الفصل السابع.

(٢) راجع السورة الخمسين «قاف»: ١٦، ١٧، ٢٠.

«وَبَيْنَهُمَا (الجنة والنار) حِجَابٌ، وَعَلى الأَعْرَافِ رِجَالٌ...» ويستند كذلك إلى الحديث.

ويبدو من المستحيل الشك في أن محمد مدين، بشكل مباشر أو غير مباشر، في مذهبه حول الميزان لهذا العمل المنتحل، أو لنفس الفكرة الشفاهية السائدة آنذاك، والمستمدَّة في نهاية المطاف من مصر. الاحتمال هو أنه عرفها من «ماريا» محظيته القبطية. إن تصور مثل هذا «الميزان» في وزن أعمال البشر، الحسنة والسيئة، هو قديم جداً في مصر. نجده في «مشهد المحاكمة» من كتاب الموتى، وقد وجدت العديد من النسخ من هذا الكتاب في المقابر المصرية القديمة. وفيما يتعلق بهذا العمل، يقول الدكتور «بادج»[1]: «من المؤكد أن كتاب الموتى، بالشكل المترابط، قديم قِدمَ الحضارة المصرية، وأن مصادره تنتمي إلى عصور ما قبل التاريخ التي يستحيل تحديد تاريخها. ونحن نلامس أول أرض صلبة في التاريخ من خلال كتاب الموتى في فترة السلالات المبكرة، وإذا قبلنا أول تراث قائم في مصر منذ ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد، فنحن على حق في الاعتقاد بأن أجزاء معينة منه هي، في شكلها الحالي، قديمة قدم زمن السلالة الأولى». وفيما يتعلق بتأليفه يقول: «منذ زمن[2] سحيق كان الإله «تحوت» كاهن العقل الذي علم الخليقة نطق الكلمات التي صدرت من الإلهين: «بتاح» و«خنوم» وكاتب الآلهة، ونقلها للمخلوقات، وله صلة بتأليف «كتاب الموتى». وكان الاعتقاد المرتبط بدفن نسخة من هذا الكتاب إلى جنب المومياء أن الشخص الميت سيحتاج أن يتعلم منه، لتجنب المخاطر المختلفة التي

---

(١) كتاب الموتى، المجلد. الثالث، ص. ٤٧.

(٢) المرجع السابق، ص: ٧٥.

سيواجهها في العالم الآخر. ونتعرف من خلال هذا الكتاب على الكثير من الأفكار الدينية للمصريين. إن النقوش التي تمثل محاكمة الروح، والتي-مثلما ورد في «عهد إبراهيم» -حدثت بعد الموت مباشرة، وهي تختلف باختلاف نسخ الكتاب، رغم أنها جميعاً تحافظ على المخطَّط العام نفسه. فالنموذج المشترك غالباً[(١)] يظهر لنا الإلهين، «حورس» و«أنوبيس» يشاركان في وزن قلب الميت الذي وضع على إحدى الكفَّتين بينما وضعت صورة «ماعت» إلهة الحقيقة والعدل، على الكفة الأخرى من الميزان بينما هناك إله آخر، هو «تحوت» -في الخلف يكتب نتيجة الوزن. على الميزان كتب «حياة أوسوريس مبرأة، والميزان في مكانه مستوي وسط قاعة المحكمة الإلهية، ويقول: أما عن قلبه، فاسمحوا لقلبه أن يدخل إلى موضعه في أوزوريس فهو بريء» عسى تسمع تحوت، الإله العظيم في مدينة «حسيريت» سيد مدينة «هيرموبوليس» رب الكلام تحوت، يقول هذا: «إن إطلاق اسم أوزوريس على الرجل الميت وكذلك اسمه الشخصي (لإدراجه في المكان الذي ترك شاغراً) يدل على أنه، مبرأ في المحكمة، وقد أصبح مع الإله «أوزوريس» الإله الأعلى للمصريين القدامى، وبالتالي فهو آمن من هجمات قوى الشرّ.

مقابل الكاتب الإلهي «تحوت» يقف حيوان رهيب، كائن مثل الكلبة. من المفترض أنه مستعد لالتهام الأشرار. مكتوب أعلى رأسه: «قاهرة الأعداء بابتلاعهم، سيدة من هاديس، كلب الجحيم» بالقرب من هذا الحيوان مذبح ممتلئ بالقرابين التي قدِّمتْ أمام مدخل الضريح الداخلي. داخل الضريح، ثمة جالسٌ على العرش، هو «أوزوريس»

---

(١) انظر ملاحظة، ص. ٨ أعلاه.

نفسه «الكينونة الخيرة» يمسك بإحدى يديه صولجاناً وبالأخرى سوطاً. يجلس قاضياً، مستعداً للتعامل مع روح الميت وفقاً لما يكتبه «تحوت» في لفافة حول نتيجة وزنه لقلبه في الميزان. أمام «أوزوريس» نقش يضم بعض ألقابه. قد يقرأ على النحو التالي: «أوزوريس، كينونة الخير، الإله، رب الحياة، والإله العظيم، رب المجد، رئيس الجنة والنار، في «هاديس» والإله العظيم، رب مدينة «عبت» ملك ما بعد الأبدية، الإله» وتحت عرشه كتبت عبارة: «الحياة والصحة» عدة مرات.

يتضح من المقارنة بين هذه الصورة وما قرأناه في «عهد إبراهيم» وفي القرآن أن «الميزان» المذكور في القرآن وأحاديث محمد مستمدٌ في نهاية المطاف من الأساطير المصرية القديمة، عن طريق الأفكار المسيحية القبطية[1] التي وردت في «عهد إبراهيم» وتم تداولها شفاهياً جيلاً بعد جيل في مصر، الأرض التي ولدوا فيها.

---

(١) في الأساطير الزرادشتية يظهر الميزان كذلك وبطريقة مشابهة جداً لاستخدامه في مصر. راشنو، أحد القضاة الثلاثة للموتى (راجع القصة اليونانية من نفس العمل المسندة إلى مينوس، رادامانثوس وأكوس، في محاورات أفلاطون، الفصل: ٧٩) يحمل الميزان، وفيه الأعمال الجيدة والأعمال السيئة للأشخاص وتوزن بعد موتهم. القضاة الآخرون هم «ميثرا وسروشا» (مهر وسروش) في الأساطير الفارسية لاحقاً). وفي العصور الوسطى في أوروبا كانوا يزعمون أن ميكائيل هو من يحمل الميزان.

١١ ـ فرح آدم وحزنه في السماء

في السورة السابعة عشرة (الإسراء: ١) نقرأ وصفاً موجزاً لرحلة محمد الأسطورية إلى السماء، التي تحتلُّ مكاناً واسعاً جداً في الحديث النبوي. ويمكن تقديم عبارات هذه الآية على النحو التالي: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ[١] إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى[٢] الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا».

ينبغي علينا التعامل مع هذه الرحلة أو «معراج محمد» كما يسمى في التراث الإسلامي، بشيء من التفصيل في الفصل التالي[٣]. لكننا نكتفي هنا بالإشارة لها من أجل الدخول في الحديث المتعلق بالجزء الأول من تجربة محمد في الرحلة المشهورة. يصف لنا كتاب «مشكاة المصابيح» المشهد الذي رآه محمد عند دخوله السماء الدنيا من السماوات السبع[٤] على هذا النحو: «فلما فتح علونا السماء الدنيا إذا رجل قاعد على يمينه وعلى يساره أسودة. إذا نظر قِبلَ يمينه ضحك، وإذا نظر قِبلَ شماله

---

(١) الكعبة في مكة.

(٢) معبد في القدس.

(٣) ص. ١٩١ وما بعدها.

(٤) المرجع السابق، ص. ٥٢١.

بكى. فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت لجبرائيل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار. فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى».

ويمكن إرجاع هذا الحديث أيضاً إلى الكتاب المنتحل «عهد إبراهيم» كما يثبت المقتطف التالي[1]: «فحوَّل ميخائيل العربة وحمل إبراهيم إلى جهة الشرق في أول باب السماء، فرأى إبراهيم طريقين إحداهما طريق كرب وضيقة والأخرى واسعة وعريضة. ورأى هناك بابين أحدهما واسع يوصل إلى الطريق الواسعة، وباب ضيق يوصل إلى الطريق الضيقة. ورأيت هناك خارج البابين رجلاً جالساً على كرسي مرصَّع بالذهب وكانت هيئته مهيبة كهيبة السيد. ورأيت أرواحاً كثيرة تسوقها الملائكة وتُدخِلها من الباب الواسع، ورأيت أرواحاً أخرى وهي قليلة العدد تحملها الملائكة وتُدخِلها في الباب الضيق. ولما رأى الرجل العجيب الذي كان مستوياً على الكرسي الذهبي أن الذين يدخلون من الباب الضيق قليلون، والذين يدخلون من الباب الواسع كثيرون، أمسك هذا الرجل العجيب شعر رأسه وجانبَي لحيته وألقى بنفسه من الكرسي إلى الأرض ينوح ويندب. ولما رأى أرواحاً كثيرة تدخل من الباب الضيق كان يقوم من على الأرض ويجلس على كرسيه مهللاً. ثم استفهم إبراهيم من رئيس الملائكة وقال له: يا مولاي الرئيس، من هذا الرجل العجيب الموشح بمثل هذا المجد وهو تارة يبكي ويولول وأخرى يفرح ويهلل؟ فقال له: إن هذا الشخص المجرد من الجسد (الملاك) هو آدم، أول شخص خُلق، وهو في هذا المجد العظيم يشاهد العالم لأن

(١) «عهد إبراهيم» المراجعة: أ، الفصل الحادي عشر.

الجميع تناسلوا منه. فإذا رأى أرواحاً كثيرة تدخل من الباب الضيق يقوم ويجلس على كرسيه فرحاً ومهللاً من السرور، لأن الباب الضيق هو باب الصالحين المؤدي إلى الحياة، والذين يدخلون منه يذهبون إلى جنة النعيم. ولهذا السبب يفرح لأنه يرى الأنفس تفوز بالنجاة. ولما يرى أنفساً كثيرة تدخل من الباب الواسع ينتف شعر رأسه ويلقي بنفسه على الأرض باكياً ومولولاً بحُرقة، لأن الباب الواسع هو باب الخطاة الذي يؤدي إلى الهلاك والعقاب الأبدي».

١٢ ـ الاستعارة من العهد الجديد

وأخيراً قد يُسأل، هل استعار محمد شيئاً من العهد الجديد نفسه، بما أنه قد استمدَّ مثل هذا الكم الكبير من تعاليمه من المصادر المسيحية المنتحلة؟

في الإجابة على هذا نحن مضطرون إلى الاعتراف بأنه استعار القليل جداً في الواقع من العهد الجديد. من ذلك ما قاله بشكل غير مباشر أن يسوع ولد بلا أب بشري، وأنه مكلَّفٌ إلهياً ولديه معجزات، وعدد من الحواريين، وإنه صعد إلى السماء. لكن محمد نفى ربوبية المسيح، وموته «الكفارة البديلة» (وبالتالي قيامته)، وطرح قدراً كبيراً مما يتناقض مع العقائد الأساسية في الإنجيل، رغبة منه أن يحل محل المسيح ويهيمن على البشر ليعترفوا بادعائه أنه آخر وأعظم أنبياء الله. لقد لمسنا في القرآن والأحاديث وجود إحالات محرَّفة إلى مقاطع معينة من العهد الجديد، على سبيل المثال في ما قيلَ عن نزول المائدة، والنبوءة المزعومة عن مجيء محمد. ولكن هناك مقطع واحد فقط في القرآن يمكن أن يقال عنه إنه يحتوي اقتباساً مباشراً من الأناجيل الكنسية الصحيحة. وهو يرد في السورة السابعة (الأعراف: ٣٨) حيث نقرأ: «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ».

وهذه الآية أقرب إلى الاقتباس الحرفي من لوقا الثامن عشر. ٢٥: «لأَنَّ دُخُولَ جَمَلٍ مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ اللهِ!». وتظهر أيضاً بكلمات مشابهة جداً في (متى. التاسع عشر. ٢٤) و(إنجيل مرقس العاشر ٢٥).

وإضافة إلى هذا الاقتباس المباشر في القرآن يرد في الحديث، أيضاً، مثال آخر لافت للنظر مقتبس من الرسائل الإنجيلية، وهو أثير لدى العديد من الدارسين المسلمين الذين ليس لديهم أدنى فكرة بأنه جاء من الكتاب المقدس. فقد روى أبو هريرة[١] أن محمداً نسب إلى الله هذا القول: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطر على قلب بشر». وسيكون الاعتراف سهلاً أن هذه الكلمات هي اقتباس من (كورنثوس الأولى الثاني. ٩).: «مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ إِنْسَانٍ: مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَهُ».

فإذا كان الحديث الذي رواه أبو هريرة، الملقَّب بالكذاب، عن لسان محمد موضع شك، فإن السورة الخامسة والسبعين (القيامة ٢٢، ٢٣) يرد فيها «وجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» وهو يشير إلى «الرؤية السعيدة»[٢] المذكورة في (١ يوحنا الثالث ٢) و (١ كورنثوس الثالث عشر، ١٢) التي تؤيد هذا الطرح.

من الدراسة المتأنية للموضوع الذي عالجه هذا الفصل نخلص إلى أن تأثير العقيدة المسيحية الصحيحة والأصيلة على القرآن وعلى الإسلام

---

(١) «مشكاة المصابيح» ص. ٤٨٧.

(٢) عن العقيدة المحمدية حول هذا، ينظر «دين الهلال» ص ١١٦، ١١٨.

بشكل عام طفيف جداً، في حين نجد، من جانب آخر، أنّ التراث المنتحل وبعض مبادئ العقائد الهرطقية يمكن الادعاء بأنها شكّلت واحدة من المصادر الأصلية للديانة المحمَّدية[١].

(١) في كتابه «دراسات محمدية» (المجلد الثاني، ص ٣٨٢ وما بعدها) يقدم البروفيسور غولدزيهر رواية مثيرة للاهتمام عن طريقة استعارة «الأحاديث» لاحقاً من مصادر مسيحية. ولكن يبقى هذا الأمر أبعد من بحثنا الحالي.

الفصل الخامس:

عناصر الزرادشتية في القرآن والأحاديث الإسلامية

كان النفوذ السياسي الذي مارسه الفرس على أجزاء معينة من شبه الجزيرة العربية والدول المجاورة في زمن محمد وقبله كبيراً جداً. وهو ما يخبرنا به المؤرخون العربّ واليونانيون على حد سواء، إذ يذكر أبو الفداء، على سبيل المثال، أن «خسرو الأول» الفاتح الفارسي الكبير (أو كسرى أنوشروان كما يسميه العرب) غزا في القرن السابع الميلادي، مملكة الحيرة على ضفاف الفرات، حيث خلع ملكها، وولى على العرش بدلاً منه شخصاً من رعاياه، اسمه «المنذر بن ماء السماء» ولم يمض وقت طويل حتى أرسل «أنوشروان» جيشاً إلى اليمن، بقيادة «وهرز» لطرد الأحباش الذين استولوا على تلك البلاد، وكان أول ما فعله «وهرز» هذا أنه طرد الأحباش وولى «أبا سيف بن يزن» على مملكة أسلافه[1]. لكن القوَّة الفارسية بقيت في البلاد، وفي آخر الأمر تولى

(١) أبو الفداء، الفصل الثاني.

«وهرز» نفسه عرش اليمن وأورثه لأحفاده[١]. يقول أبو الفداء[٢] «كان الأمراء من عائلة المنذر الذي خلَّفه على الحيرة، ولاة لملوك فارس على عرب العراق». ويشير إلى أن اليمن حكمها أربعة حكام من الحبشة وثمانية من الفرس قبل أن يؤول حكمها لمحمَّد[٣]. بيد أنه حتى ما قبل عصر محمد كان ثمة الكثير من التواصل والاختلاط بين الشمال الغربي والغرب من شبه الجزيرة العربية، والممالك الفارسية. وتفيدنا المصادر بأن نوفل ومطلب (اللذين كانا أخوي الجد الأكبر لمحمد)، وهما من الزعماء الرئيسيين في قريش، أبرما معاهدة مع الفرس، سمحت لتجار مكة بالتجارة مع العراق وفارس (في بلاد فارس القديمة). وفي عام ٦٠٦، أو نحو ذلك الوقت، وصلت مجموعة من التجار برئاسة أبو سفيان عاصمة الفرس واستقبلوا بحضور الملك[٤].

عندما أعلن محمد مهمته النبوية في ٦١٢ ميلادية، كان الفرس قد احتلوا وتغلغلوا في أجزاء من سوريا وفلسطين، وآسيا الصغرى. وفي زمن الهجرة في ٦٢٢ ميلادي، بدأ الإمبراطور هرقل محاولة لاسترداد أملاك الإمبراطورية البيزنطية من الفرس، ولم يمض وقت طويل حتى اضطر إلى الدعوة للسلام. وفي أعقاب ذلك وجد «باذان» الحاكم الفارسي لليمن، نفسه يائساً من أي أمل بالدعم الداخلي، مما اضطرَّه

---

(١) سيرة الرسول، ص ٢٤، ٢٥.

(٢) على النحو الوارد أعلاه: كانت المناذرة آل نصر بن ربيعة عمالاً للأكاسرة على عرب العراق.

(٣) ثم ملك اليمن بعدهم من الحبشة أربع، ومن الفرس ثمانية، ثم صارت اليمن للإسلام.

(٤) السير وليم موير، حياة محمد، ص. ٣١ و٣٢.

هو الآخر أن يقدم لمحمد عرضاً على دفع الجزية (. ٦٢٨م). وفي غضون سنوات قليلة بعد وفاة محمد كانت الجيوش الإسلامية قد اجتاحت بلاد فارس وقامت بتغيير عقيدة السواد الأعظم من الشعب بحد السيف.

وعندما يحدث التواصل بين أمتين، تكون إحداهما في ذروة صعودها الحضاري، والأخرى في حالة من الجهل مقارنة بالأولى، فعادة ما تمارس الأولى تأثيراً كبيراً جداً على الثانية. وقائع التاريخ كله تعلمنا هذا الدرس. وفي عصر محمد لم يكن العرب في حالة استنارة حقيقية. ولهذا يطلق المؤرخون المختصون بهذه الحقبة على فترة ما قبل الإسلام اسم «عصر الجاهلية» بينما كان الفرس، على الجانب الآخر، وعلى الأقل خلال العصور الأولى، متحضرين للغاية، وهو ما نفهمه من نصوص «الأفيستا» وكذلك من النقوش المسمارية لـ«داريوس» و«خشايارشا» ومن الآثار التي ما زالت شاخصة في «برسيبوليس» ومما ورد في شهادات الكتاب الإغريق.

ولذلك فمن الطبيعي أن يؤدي التواصل معهم، إلى خلق حالة من الإعجاب لدى العرب بهذه الحضارة. ويتضح مما أورده المؤرخون العرب ومن طروحات القرآن والمفسرين، أن الأساطير الرومانسية والأشعار الفارسية حظيت بدرجة كبيرة جداً من الانتشار بين العرب في زمن محمد. وكانت متداولة على نطاق واسع، ومن بين الحكايات المعروفة بين قريش أن محمداً اتهم من قبل أعدائه باستعارتها أو تقليدها في القرآن. ويذكر «ابن هشام» على سبيل المثال، إن الناس اجتمعوا يوماً عند محمد في مجلسٍ، فدعا إلى الله تعالى وتلا فيه القرآن وحذر قريشاً مما أصاب الأمم الخالية، فخلفه النّضر بن الحارث في مجلسه إذا قام، فحدّثهم عن «رستم السّنديد» وعن «أسفنديار» وملوك فارس، ثمّ

يقول: واللّه ما محمد بأحسن حديثاً مني، وما أحاديثه إلاّ أساطير الأوّلين، اكتتبَها كما اكتتبتُها. فأنزل اللّه فيه(١): «وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً، قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً».

ونزل بحق النضر كذلك الآية(٢): «إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» ونَزل فيه(٣): «وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيم، يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»(٤).

لم يكن ردّ محمّد على التهمة التي وجهت إليه مقنعاً تماماً لأتباعه، ولا يمكن أن نراه كافياً لكي يثنينا عن التساؤل عمَّا إذا كان فحص آيات معينة من القرآن ينفي تلك التهمة التي وجهها لها المعارضون القدامى.

قصص «رستم وإسفانديار وملوك فارس» التي أشار إليها النضر هي بلا شك من بين تلك التي جمعها «الفردوسي» بعد أجيال من عصر

---

(١) السورة الخامسة والعشرون، الفرقان: ٥، ٦.

(٢) سورة القلم: ١٥.

(٣) السورة الخامسة والاربعون، الجاثية: ٧، ٨.

(٤) والنّضرُ بنُ الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدّار بن قُصي، كان إذا جلس رسولُ اللّه -صلّى اللّهُ عليه وسلّم-مجلساً، فدعا فيه إلى الله تعالى وتلا فيه القرآن وحذر قُريشاً ما أصاب الأمم الخالية، خلفه في مجلسه إذا قام، فحدّثهُم عن رُستم السّنديد، وعن أسفنديار، ومُلُوك فارس، ثُمّ يقُولُ: واللّه ما محمد بأحسن حديثاً مني، وما أحاديثُه إلاّ أساطيرُ الأوّلين، اكتتبها كما اكتتبتها. فأنزل اللّهُ فيه: «وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً، قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً» وَنَزَلَ فِيهِ: «إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» ونزلَ فِيهِ: «وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ».

محمد، وكتب بها الملحمة الأكثر شهرة في أدب بلاد فارس، والتي كانت أساساً مجموعة من القصص لأحد الفلاحين تركها لنا الفردوسي في الشكل الشعري المعروف الآن بـ «الشاه نامه» ومما لا شكَّ فيه أن جميع هذه الحكايات قديمة جداً بشكل أو بآخر، لكنَّنا لن نعتمد على «الشاه نامه» أو نرجع إليها فيما ينبغي علينا أن نقتبسه من مقاطع، وهذا أفضل، لأنَّ «الشاه نامه» في شكلها الشعري الحالي تعود إلى ما بعد عصر محمد، ولذا فقد لا تعدّ مرجعاً وافياً. غير أنه لحسن الحظ لدينا معلومات في «الأفيستا» وغيرها من كتب الفرس أو الزرادشتيين، التي لا يمكن التشكيك فيها، أو في انتمائها إلى العصور القديمة، ومن هذه سنقدِّم محاكمتنا للنصوص.

يمكن أن نستنتج باطمئنان أن حكايات ملوك بلاد فارس كانت موضع اهتمام العرب وإنهم سمعوها عن «رستم» و«إسفانديار» وكانت متواترة بينهم، فمن غير المترجح أن يكونوا جاهلين تماماً بقصة «جمشيد» كما أنه ليس من المحتمل أن الأساطير الفارسية فيما يتعلق بصعود «أرتاويراف» و«زرادشت» من قبله إلى السماء، ووصف الجنة وصراط «چينوت» وشجرة «حوابة» وقصة خروج «أهرمان» من الظلمة الأولى، وغيرها الكثير من هذه الحكايات الخرافية، مجهولة تماماً بالنسبة للعرب.

فإذا كانت معروفة، فمن الطبيعي أن محمداً استخدم بعضاً منها، كما فعل مع الأساطير المسيحية اليهودية. لذا لا بد لنا من التساؤل عما إذا تركت هذه التخيلات أثرها على القرآن والأحاديث الحالية بين المسلمين. سنرى أن هذا ليس هو الحال فقط، ولكن بعض هذه الحكايات الفارسية هي بلا شك من أصول آرية وليست ذات أصول سامية والتي وجدت في صياغات معدَّلة بعض الشيء في الهند أيضاً.

في الواقع كان بعض تلك الحكايات والأساطير، إذا جاز التعبير، جزءاً من التراث الديني والفكري لكلتا الأمتين وعندما انفصل الفرس والهندوس عن بعضهم البعض، وتركوا موطنهم القديم المشترك Air-yanem Vaejo-[1] بالقرب من «هراة» وهاجروا إلى بلاد فارس والهند على التوالي، فقد نقلوا بعضاً من هذا التراث في الذهن الشعبي. والبعض الآخر من هذه الأفكار ربما نشأ في بلاد فارس في وقت لاحق إلى حد ما، وانتشرت إلى الهند عبر مراحل الزمن. وسنرى أنها قد وصلت بالتأكيد إلى أسماع محمد، ولم يكن القرآن والأحاديث بعيدَين عن تأثيراتها. رغم زعم أتباع محمد المخلصين، أنهم سمعوا تلك الأحاديث منه شفاهياً.

---

(١) ونديداد، الأول: ١، ٢.

١ ـ ليلة الإسراء

المسألة الأولى التي ينبغي أن نتعامل معها هي القصة المشهورة عن إسراء محمد. وهي ما يشار إليها في السورة التي سبق أن نقلنا مقتطفاً منها[١] (السورة السابعة عشرة، الإسراء) وتسمى أيضاً سورة بني اسرائيل: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ».

ومن المعروف تماماً أن مفسري القرآن اختلفوا اختلافاً كبيراً في ما يتعلق بتفسير هذه الآية، إذ قال بعضهم أن محمداً حلم بقيامه بتلك الرحلة المذكورة، بينما فسَّرها البعض الآخر بالمعنى الحرفي وأضاف الكثير من التفاصيل للقصة من الحديث، ويرى غيرهم أنها تمت بالشعور الصوفي أو المجازي. ابن إسحاق، على سبيل المثال، ينقل لنا، استناداً إلى حديث عن الزوجة المفضلة لمحمد (عائشة) قولها: «ما فُقد جسد رسول الله-ص-ولكن الله أسرى بروحه».

وورد في حديث آخر أن محمداً نفسه قال: «تنام عيني وقلبي يقظان»[٢]. المفسِّر الصوفي المعروف محي الدين [بن عربي] فسَّر قصة

(١) ص ١٧٨، ١٧٩.

(٢) سيرة الرسول، ص. ١٣٩.

المعراج والإسراء كلها بطريقة مجازية واستعارية[١]. ومع ذلك، لسنا قلقين بشكل جدي من مناقشة مسألة حدوث «الإسراء» ولا نحتاج إلى مزيد من التعامل مع هذا الرأي. ومن المؤكد أن السواد الأعظم من المفسرين المحمديين والمحدثين يعتقدون أن محمد أسرى فعلاً من مكة إلى القدس، وزار السماء كذلك، ويقدِّمون قصصاً طويلة، من دافع المصلحة العميقة والالتزام بالإسلام، بخصوص ما فعله وما رآه. وانطلاقاً من هذه الأحاديث التي يتعيّن علينا التعامل معها، سنرى أنه من السهل تتبع أصول ملامحها الرئيسية في الأساطير السابقة، ولا سيما المصادر الزرادشتية. وسيكون هذا صحيحاً، إذا اعتقدنا مع شريحة واسعة من المحمديين أن محمد نفسه أدلى بمثل هذه القصة عن معراجه، وهو ما سنمضي الآن في شرحه، أو الاستنتاج بأن الأسطورة بأكملها جرت صياغتها في وقت لاحق نسبياً[٢].

---

(١) لمزيد من الفائدة لمن لا يعرف مثل هذه الموضوعات أضيف تفسيره لهذه الرواية: (سبحان الذي أسرى) أي أنْزَهَهُ عن اللواحق المادية والنقائص التشبيهية بلسان حال التجرد والكمال في مقام العبودية الذي لا تصرف فيه أصلاً. (ليلاً) أي في ظلمة الغواشي البدنية والتعلقات الطبيعية، لأن العروج والترقي لا يكون إلا بواسطة البدن. (من المسجد الحرام) أي من مقام القلب المحرم عن أن يطوف به مشرك القوى البدنية ويرتكب فيه فواحشها وخطاياها ويحجه غوى القُوى الحيوانية من البهيمية والسبعية المنكشفة سواء إفراطها وتفريطها لعروسها عن لباس الفضيلة. (إلى المسجد الأقصى) الذي هو مقام الروح الأبعد من العالم الجسماني بشهود تجليات وسبحات الوجه وتذكر ما ذكرنا أن تصحيح كل مقام لا يكون إلا بعد الترقي إلى ما فوقه، لتفهم من قوله (لنريه من آياتنا) مشاهدة الصفات، فإن مطالعة تجليات الصفات وإن كانت في مقام القلب، لكن الذات الموصوفة بتلك الصفات لا تشاهد على الكمال بصفة الجلال إلا عند الترقي إلى مقام الروح، أي لنريه آيات صفاتنا من جهة أنها منسوبة إلينا. ونحن المشاهدون بها البارزون بصورها.

(٢) خلاف هذه الفرضية الأخيرة، لا بد من النظر في حقيقة أنه في سورة النجم: =

نقتبس، أولاً، رواية ابن إسحاق، لأنها الأقرب زمنياً لزمن الحادثة مما وصل إلينا من مصادر، ويذكرها ابن هشام، محرر سيرته والمستدرك عليها، على النحو الوارد أدناه، فبعد أن يؤكد أن محمداً قال إن جبريل أيقظه مرتين وأنه نام ثانية، يسوق الكلام قائلاً: «فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه، فجلستُ. فأخذ يعضدني. فقمت معه فخرج إلى باب المسجد فإذا دابة أبيض، بين البغل والحمار، في فخذيه جناحان يحفز بها رجلين. يضع يده في منتهى طرفه، فحملني عليه ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته». قال ابن إسحق: وحدثت عن قتادة أنه قال: حدثت أن رسول الله قال: «لما دنوتُ لأركبه شَمُسَ، فوضعَ جبريل يدَهُ على مَعْرَفته، ثم قال: ألا تستحي يا بُراق مما تصنع؟ فوالله يا براقُ ما ركبك عبدٌ لله قبل محمد أكرم على الله منه. قال: فاستحيا حتى ارفضَّ عرقاً، ثم قرَّ حتى ركبته. قال في حديثه: فمضى رسول الله ومضى جبريل معه حتى انتهى به إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء، فألهم رسول الله فصلى بهم، ثم أتى بإناءين في أحدهما خمر وفي الآخر لبن. قال: فأخذ رسول الله(ص) إناء اللبن

=١٢-١٨، يؤكد محمد بوضوح أنه رأى «سدرة المنتهى» والتي تتنصب في أعلى السماء. وهذه الآيات تشير إلى المعراج، وتقدَّم كالتالي:
«وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (محمد رأى جبريل)
عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى
عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى
إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى
مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى
لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى»

فشرب منه وترك الخمر. فقال له جبريل: هُديت للفطرة وهُديت أمتك يا محمد، وحرمت عليكم الخمر. ثم انصرف رسول الله إلى مكة. فلما أصبح غدا على قريش فأخبرهم الخبر، فقال أكثر الناس: «هذا والله الأمر البين. إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة، وشهراً مقبلة. أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة»(١).

وبناء على هذه الرواية، فقد ذهب محمد من مكّة إلى القدس ثم عاد في ليلة واحدة فقط. الأحاديث المتأخرة نسبياً تضخم الرحلة إلى حد كبير، ومع ذلك، ومن أجل تقديم القصة للقارئ كما جاءت على لسان محمد نفسه نقتبس من «مشكاة المصابيح» حيث ترد القصة على النحو التالي، مع سندها (السلسلة المعتادة من أسماء الذين نقل الحديث من خلالهم)(٢): «بينما أنا في الحطيم وبما قال في الحجر، مضطجعاً، أن أتاني آت، فشق ما بين هذه وهذه (يعني من ثغرة نحره إلى شعرته) فاستخرج قلبي، ثم أُتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً، فغسل قلبي ثم حشي، ثم أعيد. وفي رواية: غُسل البطن بماء زمزم ثم مُلئ إيماناً وحكمة. ثم أُتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار، أبيض، يُقال له البراق، يضع خطوة عند أقصى طرفه. فحُملت عليه فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا، فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنِعم المجيء. جاء ففتح. فلما خلصت فإذا فيها آدم. فقال: هذا أبوك آدم فسلِّم عليه. فسلمتُ عليه فردَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي حتى السماء الخامسة فاستفتح.

---

(١) السيرة النبوية، ص ١٣٨، ١٣٩.

(٢) مشكاة، ص ٥١٨-٢٠.

قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فنعم المجيء. جاء ففتح. فلما خلصت فإذا هارون. قال: هذا هارون فسلم عليه فسلمت عليه، فردَّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً، فنعم المجيء. جاء ففتح. فلما خلصت فإذا موسى. قال: هذا موسى فسلِّم عليه. فسلمتُ عليه، فردَّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. فلما جاوزتُ بكى. قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بُعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي. ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبرائيل. قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء. فلما خلصت فإذا إبراهيم. قال: هذا أبوك إبراهيم فسلِّم عليه، فسلمتُ عليه، فردَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح. ثم رُفعت إلى المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة. قال: هذه «سدرة المنتهى»[١]. فإذا أربعة أنهار، نهران باطنان ونهران ظاهران. قلت: ما هذا يا جبرائيل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات»

وتمضي المقاطع لتروي المزيد من التفاصيل الأخرى عن الرحلة، من بينها واقعة بكاء آدم، وهو ما تحدثنا[٢] عنه بالفعل. وليس من الضروري ذكرها كلها.

---

(١) «سدرة المنتهى» وتسمى هكذا لأنَّ حتى جبريل نفسه لا يستطيع اجتيازها.

(٢) ص. ٢٠٦ وما بعدها.

من بين الأعمال الأكثر شهرة[1] التي يسعى السواد الأعظم من المسلمين في العصر الحديث للحصول عليها لمعرفة حياة نبيهم، تعدُّ قصة المعراج أكثرها امتلاءً وشحناً بالأعاجيب. فعندما وصل محمد «سدرة المنتهى» والتي لا يجرؤ حتى جبريل على تجاوزها والمضي قدماً معه، تولى الملاك إسرافيل مهمة إيصال محمد إلى ملكوت الله، حيث اقترب النبي من عرش الله جداً، وهنا سمع من عند الله صوت يناديه إلا يخلع نعليه، لأن وطأة[2] نعليه ستكون بركة للمكان المقدَّس.

بعد بعض التفاصيل الأخرى التي تبدو حتى للعقول العادية تجديفاً صبيانياً يخلو من التشويق، يروى في قصة المعراج أن محمداً دخل وراء حجاب[3] وأن الله قال له: «السلام عليك ورحمة الله وبركته أيها النبي» نجد في أماكن أخرى لاحقة من قصة المعراج أن الأساطير منفلتة من أي اعتبار لسبب أو لحقيقة.

لا بد لنا الآن من الاستفسار عن المصدر الذي استمدّت منه فكرة الرحلة الليلية لمحمد هذه. ومن المرجح أن الأسطورة ذات الصلة التي رواها محمد نفسه تقوم على الحلم، ولا يبدو أنها تتضمَّن أية قصة عن المعراج، إذا اعتبرنا إن سورة النجم، ١٣-١٨، جاءت في وقت لاحق. ولكن علينا أن نتعامل مع الرواية الواردة في الأحاديث، وهذه تدخل في تفاصيل دقيقة للغاية فيما يتعلق بالمعراج أو الصعود. سنرى أن هناك

---

(١) مثل «قصص الأنبياء» و«عرائس التيجان» و«روضة الأحباب».

(٢) «قصص الأنبياء» ص ٣٣٧، ٣٣٨. ونص العبارة «أراد أن يخلع نعليه عند عروجه إلى السّماء كما خلع موسى عليه السّلام عند صعوده إلى الطور، فقالت الملائكة: «يا نبيّ اللّه لا تخلع، فإنّا نريد أن تصل بركة نعليك إلى أمكنتنا»[م].

(٣) ولعله اختراع لجعله قابلاً للمقارنة مع المسيح: راجع العبرانيين. السادس. ١٩، ٢٠.

سبباً وجيهاً للاعتقاد بأن الأسطورة في شكلها هذا مخترعة، مثل غيرها من الموضوعات الأخرى، لإظهار أن محمداً أكثر تميزاً من أي نبي آخر. كما أدخلت على القصة عناصر من جهات شتى، ولكن يبدو أنها قامت بشكل رئيسي على أساس رواية صعود «أرتاويراف» الواردة في كتاب بهلوي يسمى «أرتاويراف نامه»[١] الذي جرى تأليفه في أيام «أردشير باباجان» ملك بلاد فارس، قبل حوالي ٤٠٠ سنة من هجرة محمد، إذا جاز لنا أن نعتمد على الروايات الزرادشتية.

وقد كتب هذا العمل من قبل كهنة المجوس بعد أن وجدوا أن العقيدة الزرادشتية فقدت هيمنتها وتأثيرها على عقول شعوب الإمبراطورية الفارسية إلى حد كبير، فقرروا إعادة دعمها وترميمها ببراهين جديدة لاستعادة الإيمان، وتحمَّسَ «أردشير» لهذه الفكرة واضطلع بتنفيذها. لذلك اختاروا كاهناً شاباً ورع السيرة، وأعدوا له شعائر رسمية متنوعة للصعود إلى السماء، من أجل أن يطلع على ما يراه في السماء ويأتيهم بالأنباء من هناك، وإذا ما كانت تلك الأنباء تتوافق مع الروايات الواردة في كتبهم الدينية أم لا. وعندما كان هذا الشاب «أرتاويراف» في حالة من النشوة، صعد بروحه إلى السماء بتوجيه من رئيس الملائكة الذي يدعى «ساروش» فتدرج من طبقة إلى أخرى، وترقَّى تدريجياً أعلى فأعلى حتى وصل إلى حضرة «أورمزد»[٢] نفسه. وعندما رأى «أرتاويراف» كل شيء في السماوات واطلع على العيش الرغيد لسكانها، أمره «أورمزد» بالعودة إلى الأرض على أنه رسول من عنده مكلَّف بنقل ما رآه للزرادشتيين. وكل ما قدمه من رؤى ذات الصلة

---

(١) «أرتاويراف نامه».

(٢) «أورمزد» هو الشكل اللاحق في الأفيستا «لأهورا مازدا» إله الخير في الزرادشتية.

دوَّنها بشكل كامل في الكتاب الذي يحمل اسمه. وليس من الضروري أن أقتبس منه مطولاً، ولكن بعض من الاقتباسات ستساعد على إظهار أن تلك القصة هي النموذج الأول للأسطورة المحمدية لمعراج محمد.

في كتاب «أرتاويراف نامه» (فصل ٧ فقرة ١-٤) نقرأ: «وقدمت القدم الأولى حتى ارتقيت إلى طبقة الكواكب في «حومت» ورأيت أرواح أولئك المقدسين الذين ينبعث منهم النور كما من كوكب ساطع. ويوجد عرش ومقعد باهٍ باهر رفيع زاهر جداً. ثم استفهمت من «سروش» المقدس ومن الملاك «آذر» ما هذا المكان، ومن هم هؤلاء الأشخاص؟».

في تفسير هذا المقطع تجدر الإشارة إلى أن «طبقة الكواكب» هي الحياط الأول أو الأدنى من فردوس الزرادشتية، وأن «آذر» هو الملاك الذي له الرئاسة على النار، و«سروش» هو ملاك الطاعة وهو أحد المقدسين المؤبدين، أي الملائكة المقرَّبين لديانة «زرادشت» وهو الذي أرشد «أرتاويراف» إلى جميع أنحاء السماء وأطرافها المتنوعة، كما فعل جبرائيل مع محمَّد.

ويمضي السرد ليربط كيفية وصول «أرتاويراف» إلى طبقة القمر، وهي الطبقة الثانية، ثم تليها طبقة الشمس وهي الطبقة الثالثة في السماوات. وبالطريقة نفسها أرشده على باقي السماوات...، حتى أنه قدم إلى حضرة «أورمزد» وجرى اللقاء الذي تم تفصيله في الفصل الحادي عشر في هذه الكلمات: «وأخيراً قام رئيس الملائكة «بهمن» من عرشه المرصَّع بالذهب فأخذني من يدي وأتى بي إلى «حومت» و«حوخت» و«هورست»[1] بين «أورمزد» ورؤساء الملائكة وباقي

---

(١) ثلاثة منازل للجنة، وتسمى في الأفيستا: هوماتا «الفكر الخير» وهوخاتا «الكلمة=

المقدسين، وجوهر «زرادشت» السامي العقل والإدراك وسائر الأمناء وأئمة الدين. ولم أرَ أبهى منهم رِواء ولا أبصر منهم هيئة. وقال بهمن: هذا «أورمزد» ثم أني أردت أن أسلِّم عليه، فقال لي: السلام عليك يا «أرتاويراف» مرحباً أنك أتيت من ذلك العالم الفاني إلى هذا المكان الباهي الزاهر. ثم أمر «سروش» المقدس والملاك «آذر» قائلاً: احملا «أرتاويراف» وأرياه العرش وثواب الصالحين وعقاب الظالمين أيضاً وأخيراً أمسكني «سروش» المقدس والملاك «آذر» من يدي وحملاني من مكان إلى آخر، فرأيت رؤساء الملائكة أولئك، ورأيت باقي الملائكة».

ونسهب في سرد كيف زار «أرتاويراف» الجنة والجحيم، وما رآه في كل منهما. فبعد زيارته إلى الجحيم تذهب الحكاية إلى القول: «أخيراً أخذني[1] سروش المقدس والملاك آذر من يدي وأخرجاني من ذلك المحل المظلم المخيف المرجف وحملاني إلى محل البهاء ذلك وإلى حضرة «أورمزد» ورؤساء الملائكة فرغبت في تقديم السلام أمام «أورمزد» فأظهر لي التّلطف. وقال: يا «أرتاويراف» المقدس العبد الأمين، يا رسول عبدة «أورمزد» اذهب إلى العالم المادي وتكلم بالحق للخلائق حسب ما رأيت وعرفت، بأني أنا الذي هو «أورمزد» موجود هنا. من يتكلم بالاستقامة والحق أنا أسمعه وأعرفه. تكلم أنت للحكماء. ولما قال «أورمزد» هذا وقفتُ مبهوتاً لأني رأيتُ نوراً ولم أرَ جسماً، وسمعت صوتاً وعرفت أن هذا هو أورمزد».

وليس من الضروري أن ننوِّه إلى مدى التشابه الهائل بين كل من هذه الأسطورة والأسطورة المحمدية عن معراج محمد.

=الطيبة» وهورستا «العمل الصالح» وهي تتوافق مع منازل الكواكب (طبقات الكواكب)، منزل القمر، ومنزل الشمس على التوالي.

(١) فصل: ٧ فقرة ١-٤.

وفي «زرادشت نامه» وهو العمل الذي ربما جرى تأليفه في القرن الثالث عشر ميلادي، ثمة أسطورة تربط قصة الصعود إلى السماء بزرادشت نفسه، وكان ذلك قبل زمن «أرتاويراف» بعدة أجيال حيث صعد إلى السماء، ثم استأذن لمشاهدة جهنم أيضاً، فرأى فيها «أهرمان» الذي يتوافق بشكل وثيق مع إبليس في القرآن.

ولا تقتصر هذه الأساطير على الجزء الفارسي من العالم الآري. فلدينا في اللغة السنسكريتية أيضاً حكايات مماثلة، من بينها يمكن ذكر «Indralokagamanam» أو «الرحلة إلى عالم إندرا» إله الجو. حيث تخبرنا أن البطل «أرجونا» قام برحلة عبر السماء، حيث رأى قصر إندرا السماوي، واسمه «وايونتي» ويقع في بستان يسمى «نافدانام» وتخبرنا الكتب الهندوسية أن الينابيع الأبدية تتدفق بالمياه العذبة لتروي النباتات الخضراء التي تنمو في هذا المكان الجميل، وفي وسط البستان تقف شجرة تسمى «باكشاجاتي» تحمل ثمار «أمريتا» اي الخلود وهي «αμβροσια» «طعام الآلهة» لدى الشعراء اليونانيين، من يأكل منها لا يموت أبداً. وتزين هذه الشجرة الزهور الجميلة بألوانها الزاهية المتنوعة. وأي شخص يتفيأ ظلها، فإنها تفي له بأية امنية يتمنَّاها في قلبه.

لدى الزرادشتيين أيضاً قصة عن وجود شجرة خرافية، تسمى في أفِيستا «حوابة» وتُسمى باللغة البهلوية «حوميا» ومعناها في اللغتين (المروية بماء رائق عذب). ووصفها كتاب «ونديداد»: بصفاء تتدفق المياه[1] من بحر «بويتكا» إلى بحر «فوروكاشا» ومن ثمَّ إلى شجرة حوابة حيث تنبت هناك كل النباتات على اختلاف أنواعها وهذه الشجرة

(١) ونديداد، الفصل الخامس.

متطابقة مع شحرة الطوبى أو «شجرة الخير» في الجنة المحمدية، وهي معروفة جداً ولا تحتاج إلى وصف هنا.

ومع ذلك، لا بد من الإشارة إلى أن أساطير مماثلة تماماً وجدت في بعض الأعمال المسيحية المنتحلة أيضاً، وخاصة في «رؤيا بولس» و «عهد إبراهيم» وهذا الأخير تكررت الإحالة له أكثر من مرة. في «رؤيا بولص» يروى أن بولص عرج إلى السماوات ورأى أنهار الجنة الأربعة. كذلك رأى إبراهيم عجائب السماوات في كتابه الأسطوري «العهد» وكانت عودته إلى الأرض ليروي ما رآه، تماماً كما فعل كل من «أرتاويراف» ومحمد. ويرد في «عهد إبراهيم»[١] : «ونزل رئيس الملائكة ميكائيل وأخذ إبراهيم في عربة ملائكية ورفعه في أثير السماء وأتى به وبستّين ملاكاً من الملائكة على السحاب، فساح إبراهيم فوق كل الأرض المأهولة في مركب».

هذه «العربة الملائكية» تقارب شكلاً آخر في الأسطورة المحمدية، بركوب محمد حيواناً يدعى «البراق» والركوب يستخدم في العربية أكثر من القيادة. وكلمة البراق مشتقَّة ربما من العبرية باراك، أي «البرق»، وهي في اللغة العربية «البرق» أيضاً مع أنه يمكن أن يكون اشتقاقها من البهلوية وارداً أيضاً.

قبل أن نمعن النظر في نقاط أخرى، ينبغي أن نلاحظ أن كتاب «آخنوخ» يحتوي على قصة طويلة عن عجائب الأرض والجحيم والسماء التي شاهدها أخنوخ في رؤيته[٢] «ὁράσει» وكان لهذا العمل المنتحل

(١) «عهد إبراهيم» السجل ١ فصل ١٠.

(٢) ليبر هينوش، الفصل. الرابع عشر، والخامس عشر، وما بعدهما.

تأثيره الأكيد على الأساطير الواردة في «رؤيا بولص» و «عهد إبراهيم» وبالتالي على الأسطورة المحمدية. ولكن لا يمكننا أن نفترض أن «أرتاويراف نامه» قد تأثرت، إلا بشكل غير مباشر، بهذه الأعمال. بيد أن هذا سؤال لا يؤثر على تحقيقنا الحالي.

الآن فيما يتعلق بشجرة الحياة في جنة عدن فإن لدى اليهود العديد من الأساطير الخرافية(١)، التي ربما استمدت من الحكايات الأكادية عن «الشجرة إريتو المقدسة»، المذكورة في واحدة من أقدم النقوش التي عثر عليها الدكتور «هيلبريخت» في «نيبور». وهنا لا نحتاج الدخول في أية استفاضة، بل مجرد مراقبة مدى التباين الكبير بين كل هذه الأساطير والسرد البسيط للحقيقة الواردة في سفر التكوين. وقد أثرت الأساطير اليهودية على الراوية المحمدية عن الجنة السماوية، لأن الاعتقاد الإسلامي هو أن جنة عدن تقع في السماء، وبالتالي فإنهم ينتقلون إلى الجنة السماوية كثيراً، بينما اليهود لديهم علاقة بشأن أرضي.

في هذا الصدد ربما كان منشأ هذا الخطأ يعود إلى الكتب المسيحية المنتحلة، لوصف الأنهار الأربعة، الواردة في «رؤيا بولس» (الفصل الخامس والاربعون) والواضح إنه ينبع من الوهم نفسه. وغني عن القول إن هذه الكتب المنتحلة لم تقبل أبداً من قبل أي شريحة من الكنيسة المسيحية من أي وزن أو سلطة، على الرغم من أن بعضاً منها كان، في

---

(١) في ترجوم جوناثان، على سبيل المثال، أن شجرة الحياة على بعد سفر ٥٠٠ عام ارتفاعاً! ويخلط المسلمون هذه الشجرة مع شجرة معرفة الخير والشر، التي تكونت من نبتة القمح. وأنها هي التي أغرت آدم ليأكل منها. وقد صعد آدم سفر ٥٠٠ سنة لتجنب اغرائها، لكنَّها استمرت في النموّ كل هذه المسافة حتى وصلت عند فمه (قصص الأنبياء، ص. ١٧).

وقت ما، على درجة كبيرة من الشهرة مع كثرة الجهلة. وكان بعض هذه الكتب معروفاً منذ فترة طويلة، أما البعض الآخر فقد تمَّ استردادها بعد أن فقدت قرون عدَّة. والسؤال عما إذا أستمدَّ المحمديون رواياتهم عن «شجرة الطوبى» من الزرادشتية أو من الخرافات اليهودية، أو من كلتيهما (كونهما من أصل مشترك) لن يكون له أي تأثير على القصة، بل أننا لا نحتاج السؤال نفسه.

الأنهار الأربعة التي رآها محمد وردت في «رؤيا بولس» وهذه الأنهار متطابقة مع أنهار عدن، بسبب الخطأ الذي لاحظناه أعلاه. ويمكن التساؤل: إذا كان مصدر القصة التوراتية عن صعود أخنوخ وإيليا والمسيح و «واختطافه إلى السماء الثالثة»[1] هو الشخص الذي من المفترض أنه القديس بولس، فما الحاجة للمصادر الأصلية لجميع الخرافات التي ذكرناها؟[2] من الصعب إلى حد ما، ولا لزوم أن

(١) ٢ كورنثوس. الثاني عشر. ٢-٤.

(٢) يضيف المؤلفون المحمديون: «إذا رفضنا رواية معراج محمد، فكيف يمكننا أن نقبل صعود أخنوخ، وإيليا، والمسيح؟» الجواب ليس بعيد الالتماس. فالأدلة التاريخية لصعود المسيح لا جدال فيها، ونحن نقبل الروايات الأخرى وفق مرجعيتها. وعلاوة على ذلك، فالقول إننا لا نقبل العملات النقدية الصحيحة، لأن هناك عملات نقدية مزورة في التداول أمر ليس منطقياً على الإطلاق. فنحن نعرف كل العملات النقدية الزائفة من خلال وجود العملة النقدية الصحيحة. وبالتالي فإن وجود هذا العدد الكبير من أساطير الصعود يجب أن يقودنا إلى استنتاج أنها تستند على واحدة أو أكثر من الروايات الحقيقية عن مثل هذه الحوادث. وعلاوة على ذلك، فالمعدن الحقيقي يميز عن الزائف برنينه!، لذلك فإنَّ المقارنة بين الروايات التوراتية (سفر التكوين الآية: ٢٤؛ ٢ الملوك الثاني ١١، ١٢، أعمال ط ٩/١١.) والأخرى التي تعاملنا معها تكفي لإظهار الفرق الهائل بينهما. على سبيل المثال، يخبرنا القديس بولص أن المسيح (رغم أنه لا يعرف سواء في الجسد أو لا) «اختُطف إلى السماء الثالثة... وسمع=

نفترض ذلك بالنظر لوجود الحكايات الفارسية والهندية التي أشرنا إليها، حتى وإن بدا ذلك مقبولاً للآخرين. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فسنجد أن الأسطورة الإسلامية لصعود محمد، مثل الكثير من الأساطير الأخرى[1] عن محمد، قد اختُرِعتْ، على غرار روايات أخرى مثل تلك الواردة في «أرتاويراف نامه» بهدف جعله يظهر في بعض النواحي مماثلاً، بل متفوقاً، على المسيح والأنبياء الآخرين الذين سبقوه.

=كلمات لا يُنطق بها، ولا يسوغ لإنسان أن يتكلَّم بها».

ولكن سفر «رؤيا بولص» المنتحل بقول إن بولص هو الشخص المشار إليه، ويضع على لسانه رواية طويلة عما رآه وسمعه هناك. فالفرق بين الأناجيل الموضوعة والأناجيل الصحيحة، كالفرق الموجود بين شهادة مؤرخ رصين والحكايات الخرافية الواردة في ألف ليلة وليلة.

(١) كويل، «محمد والمحمدية» ص. ٢٤٦.

٢ ـ الجنة المحمدية وحورها
مع هؤلاء يجوز لنا الاقتران بالغلمان...
الجن، وملك الموت وذرات الكائنات

كأمثلة على الأوصاف التي يقدِّمها في القرآن عن الجنة، نقتبس المقاطع التالية[1]: السورة الخامسة والخمسون (الرحمن، ٤٦ وما بعدها): «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ*كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ*فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَاء الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ».

وكذلك في السورة السادسة والخمسين (الواقعة: الآية ١١ وما بعدها) نجد رواية مشابهة عن المتع المدخرة في الجنة «للصحابة

(١) ثمة مقاطع مماثلة في السور: الثانية، الرابعة، الثالثة عشرة، السادسة والثلاثين، السابعة والثلاثين، السابعة والأربعين، الثالثة والثمانين.

أصحاب اليمين» وهذا هو مشهد ادخارها يوم القيامة: «أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ* مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ* يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ[١] * لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا تَأْثِيماً إِلاَّ قِيلا سَلاماً سَلاماً * وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ* وَمَاء مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً * لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ»[٢].

سنرى أن جزءاً كبيراً من هذا الوصف مشتق من الأفكار الفارسية والهندوسية عن الجنة، وإن كان معظم التفاصيل والمفاهيم البغيضة هي بلا شك وليدة الطبيعة الحسية الخاصة لمحمد.

ففكرة الحور مقتبسة من الأساطير الفارسية القديمة عن «بيركان» والتي تسميها الشعوب الإيرانية المتأخرة «بريان» ويعتقد الزرادشتيون أن أرواح هؤلاء الإناث تعيش في الفضاء وترتبط ارتباطاً وثيقاً مع الكواكب والنور. وهي مخلوقات جميلة جداً تأسر قلوب الرجال.

كلمة «حور» التي ترد في القرآن لوصف نساء الجنة، يُفترض عموماً أن تكون من الاشتقاق العربي، وتعني «سوداوات العيون». وهذا ممكن

---

(١) ويظهر أن النبيذ هو المقصود من السياق الذي يتحدث عن «أنهار من الخمر» في السورة السابعة والأربعين، ١٦.

(٢) تقدَّم الأحاديث أكثر من ذلك من المشاهد التي تصور الجنة وملذاتها. انظر «صحيح البخاري» و«مشكاة المصابيح» حول هذا الموضوع.

جداً. ولكن الاحتمال الأرجح إنها كلمة فارسية مشتقة من الكلمة التي ترد في الأفيستا: «هوار» وفي البهلوية «هور» وفي الفارسية الحديثة: خور، وتدل في الأصل على: «النور»، و: «البريق»، و: «الشروق»: «الشمس» وفي النهاية، لَمَّا استعار العرب مفهوم العذراء «المضيئة» و «المشرقة» من الفرس، فربما استعاروا كذلك الكلمة التي تصفهنَّ بشكل أفضل.

وكان من الطبيعي بالنسبة للعرب أن يجدوا معنى خاصاً للكلمة بلغتهم، تماماً كما أصبح، بطريقة مماثلة، الهليون «عصفور العشب» و«renegade»: المرتد أصلها: runagate «الضال» و«جيراسول» التي تعني بالإيطالية «زهرة عباد الشمس» إلى «أورشليم» المدينة، أو في اليونانية الكلمة العربية «وادي»، بعد أن أصبحت تحت الشكل الهلنستي «οασις» والتي من المفترض أنها جاءت من «αυω» «بستان الظلام» في اللاتينية، كلمة «فردوس» نفسها، واحدة من الكلمات التي وردت في القرآن هي كلمة فارسية. وهناك كلمات عدَّة أخرى من هذه اللغة[١] ترد في المقاطع التي قمنا بترجمتها أعلاه. وليس من الأهمية الكبيرة التأكد من اشتقاق كلمة «حور» فالأمر الذي نهدف إلى توضيحه هنا أن الكلمة ذات أصل آري، مثل كلمة «غلمان» ويعتقد الهندوس بوجود الجميع (الحور والغلمان) فيسمون الحور في اللغة السنسكريتية «أَبْسارساس» والغلمان «كاندهاروس» ويزعمون أنهم يسكنون في السماء أساساً، وإن كانوا كثيراً ما يزورون الأرض.

ويروي المؤرخون المسلمون العديد من الحكايات التي تظهر المشهد الذي يصور مدى ترحيب حور الجنة بالمحاربين القتلى، من

(١) انظر: الكندي في الاعتذار: ترجمة السير وليم موير، ص ٧٩، ٨٠، والهوامش.

أجل تحريض الكثير من المحاربين المحمديين الشباب على الاندفاع في المعركة بجرأة والموت فيها. هذا الاعتقاد مشابه تماماً للفكرة الآرية القديمة لمكافأة أولئك الذين قتلوا في الحروب بعد أن أثخنوا بجراحهم في الميدان. يقول «لمانو» في كتابه «شرائع منوا»[١]: «الملوك الذين تنازعوا في الحروب باختيارهم، وبرغبة متبادلة في قتل بعضهم بعضاً، الذين لا يصرفون وجوههم عن خصومهم، ذهبوا بعد ذلك بشجاعتهم إلى الجنَّة».

وكذلك ورد في كتاب «قصة نالا» قول الإله إندرا للملك نالا[٢]: «أما حراس الأرض (أي الملوك) والمحاربون الذين تخلوا عن (كل أمل الحياة) الذاهبون في الوقت المناسب إلى الهلاك بالسلاح دون أن يصرفوا وجوههم أن لهم هذا العالم الذي لا يفنى: جنة إندرا».

ولم تقتصر هذه الأفكار على الهند، لأن أسلافنا الشماليين استخدموا أيام الوثنية الاعتقاد بأن الفالكيريين السماويين، أو «مختاري القتلى» سيزورون[٣] ميدان الحرب ويحملون أرواح المحاربين الشجعان الذين سقطوا في المعركة. إلى جنة أودين، إلى فالهالا، «قاعة القتلى».

الجن هم صنف من الأرواح الشريرة والخبيثة التي لديها قوة عظيمة

(1) «Ahaveshumitho ’nyo ’nyam jighamsanto mahikshitsh Yudhyamanah paramsaktyasvargam yantyaparanmukhah.»
- Dharmasastra, bk. vii, sl. 89

(2) Dharmajnah prithivipalas tyaktajivitayodhinah Sastrena nidhanam kale ye gacchantyaparanmukhah Ayam loko ’kshayas tesham." - Nalopakhyanam, ii. 17, 18.

(٣) راجع الأرمنية .Aralezk’h (Ezniq Goghbatsi, ’Eghds Aghandots, "BK ط.، ص٩٤، ٩٥).

وهم مصدرٌ للإرهاب في أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي. لقد رأينا بالفعل[1] إنهم خضعوا لسليمان، وورد ذكرهم كثيراً في القرآن[2]، حيث ذكر إنهم خلقوا من النار[3]، وكذلك الملائكة والشياطين. ويبدو أن الكلمة نفسها فارسية، الصيغة المفردة للكلمة وردت في الأفيستا «جني»[4] وهي روح أنثى شريرة.

رأينا في دراسة مسألة أصل الأسطورة المحمدية فيما يتعلق بـ «الميزان» أنه جاء في الأحاديث عن معراج محمد أنه لما عرج إلى السماء، رأى آدم يضحك إذا نظر[5] إلى الأسودة عن يمينه، وإذا نظر إلى التي عن يساره ناح وبكى.

وهذه الرموز السوداء هي أرواح ذريته التي لم تولد بعد. وتسمَّى عموماً «الذرات الكائنات» وهي تختلف عن الكائنات المذكورة في «عهد إبراهيم» (التي يتم استعارتها في السمات الرئيسية لهذا الجزء من الحكاية) في حقيقة أن الأرواح المذكورة في «عهد إبراهيم» هي أرواح الأموات، غير أن الأسودة المذكورة في الأحاديث المحمدية هم أرواح

---

(١) ص. ٧١ وما بعدها.

(٢) السورة السادسة، ١٠٠، ١٢٨؛ الخامسة عشرة، ٢٧؛ السادسة والعشرون، ٢١٢؛ الحادية والأربعين: ٢٤، ٢٩.

(٣) السورة الخامسة عشرة، الآية: ٢٧.

(٤) ياسنا، ١٠، ٤: ٢، ٥٣. لو كانت هذه الكلمة عربية، ومشتقة من الفعل «جن» فلا يكون الاسم «جن» ولكن جنين (قياساً على: قليل: قَلّ). كما أنها ليست مشتقة من «الجنة» لينسب لها اسم «الجني» ثم إن الجنَّ لا علاقة لهم الجنة، وهم ليسوا ممن يدخلونها.

(٥) ص ١٧٨، ١٧٩.

الأشخاص الذين لم يولدوا بعد، وهم موجودون على شكل «الذرات الكائنات».

إن الاسم الذي تعرف به هذه الكائنات في الأعمال الدينية المحمدية هو عربي صرف بلا شكٍّ. لكن الفكرة نفسها استمدَّتْ، على ما يبدو، من الزرادشتيين، حيث تسمي كل ذرة كائنة من هذه الكائنات في الأفيستا «فروشي» بينما تسمى في البهلوي «فروهر»[1] وثمة من يرى أن هذه الفكرة ربما تبنَّاها الفرس من المصريين القدماء، إلا أنَّ هذا لا يبدو مرجحاً. وسواء حدث ذلك أم لا، فإن المسلمين مدينون للزرادشتيين في اعتقادهم بـ «ما قبل الوجود» في ما يتعلق بأرواح الأشخاص.

كثيراً ما يتحدث المسلمون عن ملك الموت كما يفعل اليهود، على الرغم من أن اليهود يقولون ان اسمه «سمائيل» في حين يسميه المسلمون «عزرائيل» ولكن هذا الاسم ليس عربياً بل هو عبري، وهو ما يُظهر من جديد مدى التأثير الذي مارسته اليهودية على الإسلام الناشئ. كما أن اسم هذا الملاك لم يذكر في الكتاب المقدس، فمن الواضح أن ما يتحدث عنه اليهود والمسلمون لا بد أنهم اقتبسوه من مصدر آخر. وعلى الأرجح هو فارسي، وتخبرنا «الأفيستا» عن ملاك يسمى «أستوفيدهوتس» أو «فيدهاتوس» أي «المفرِّق» الذي يكلف بفصل الروح عن الجسد. فإذا سقط رجل في النار أو الماء واحترق حتى

---

(١) «الفروهر» أو «الفروشي» هو نموذج الروح والملائك الحارس، المكلف بحماية مخلوقات «أورمزد» جميعها، سواء الذين ولدوا أو الذين لم يولدوا بعد، فجميعهم لديهم «فرّوشي»، وبما في ذلك «أورمزد» نفسه، و«أمشاسباندز» و«إزادس» «سليل المياه» العبقري الموكل بالولادة والخصوبة التي يبعثها الفروهر بأجسادهم. انظر: «اليشت» الثامن، ٣٤.

الموت أو غرق، فإن الزرادشتيين يؤمنون بأن وفاته لا يمكن أن تكون بسبب النار أو المياه. لأنهم يعتقدون أن هذه «عناصر» خيرة لا يمكن أن تؤذي البشر- وإنما من قام بذلك هو ملك الموت «فيدهاتوس»[1].

(١) ونديداد، الفصل الخامس، الأبيات ٢٥-٣٥.

٣ ـ قصة خروج عزازيل من جهنم

عزازيل، وفقاً للأحاديث الإسلامية، كان الاسم الأصلي للشيطان أو إبليس. وعزازيل اسم عبري يرد في النص الأصلي لسفر اللاويين (السادس عشر. ٨، ١٠، ٢٦). لكن القصة نفسها ليست يهودية تماماً في أصلها، لكنها أكثر قرباً للزرادشتية، ولعلَّ المقارنة التالية بين الأسطورة الإسلامية والأسطورة الزرادشتية تثبت تلك الأصول.

في قصص الأنبياء (ص ٩)، نقرأ: «خلق الله عزازيل، فعبد عزازيل الله تعالى ألف سنة في سجِّين[١]، ثم طلع إلى الأرض فكان يعبد الله تعالى في كل طبقة[٢] ألف سنة، إلى أن طلع على الأرض الدنيا، وأعلى الطبقة، التي يسكنها البشر. ثم أعطاه الله زوجاً من الأجنحة مصنوعة من الزمرد، صعد بهما إلى السماء الأولى. هناك عَبَدَ الله لألف سنة، ثم وصل إلى السماء الثانية، وهلمَّ جرَّاً، وكان يعبدُ الله ألف سنة في كل مرحلة من مراحل صعوده، وتلقَّى من الملائكة الساكنين من كل

---

(١) أي «الزنزانة» وهو اسم الدركة السابعة من الأرض وقيل أدنى دركات الجحيم، وهناك حفظ الكتاب الذي دونت فيه الجن الأعمال السيئة للكفار والفجار من المنافقين (سورة الثالث والثمانون، ٧-١٠).

(٢) وكما قيل من قبل، فالأرض، مثل الجحيم والسماء، تتكوَّن من سبع دركات.

سماء اسماً خاصاً. وفي السماء الخامسة سمّي للمرة الأولى-وفقاً لهذا النموذج من الأسطورة -«عزازيل» ثمَّ صعد إلى السماء السادسة فالسابعة، ثم قام بالكثير من العبادة لدرجة أنه لم يترك في الأرض أو السماء بقعة واحدة بحجم كف يد الإنسان إلا وسجد عليها متعبداً. بعد ذلك قيل لنا أنه طرد من الجنة بسبب خطيئة رفض السجود لآدم[١]. ويخبرنا صاحب «عرائس المجالس»[٢] أن إبليس أقام ثلاثة آلاف سنة عند باب الجنة بأمل أن يضر آدم وحواء لامتلاء قلبه بالحسد لهما.

ولنر الآن ما هي الرواية الزرادشتية التي تقدم حول هذه المسألة، من الواضح إن المسألة نفسها ترد في «Bundahishnih» «بونداهيشنا» وهو كتاب بهلوي معناه «الخلق». وتجدر الإشارة إلى أن أهرمان في البهلوية يعني «روح الشر» وهي مشتقة من «Anro Mainyus» أي «العقل المدمِّر» وهو الاسم المعروف في الأفيستا.

في الفصلين الأول والثاني من «البونداهيشنا» نقرأ: «كان أهرمان ولا يزال في الظلام[٣] غير عالم بالأشياء إلا بعد وقوعها، وحريصاً على إلحاق الأذى بالآخرين وكان في الهاوية».

وهذا الميل للأذى وتلك الظلمة هما المكان الذي يسمونه «إقليم الظلام». وكان «أورمزد» يعرف بعلمه المطلق بوجود «أهرمان» لأن «أهرمان» يهيج روحه ويمزجها بالميل للحسد إلى ما لا نهاية. وكان

---

(١) «قصص الأنبياء» ص. ١٢: انظر أعلاه، ص. ١٩٥.

(٢) «عرائس المجالس» ص. ٤٣.

(٣) وهذا يعني أن «أهرمان» ليس له علم بالمستقبل وإنما بالماضي فقط. بينما «أورمزد» له علم بما سيحدث لاحقاً-في الإغريقية «επιμηθεια» (بروميثيوس المناقض لابيمثيوس)-لهذا يقهره أورمزد في نهاية المطاف لأنه وحده يمتلك المعرفة المسبقة.

أورمزد وأهرمان مدة ثلاثة آلاف سنة بالروح، أي أنهما كانا بدون تغيير ولا حركة. فالروح المؤذية لم يعرف بوجود «أورمزد» لقصور معرفته. وأخيراً طلع من تلك الهاوية وأتى إلى المحل الباهي. ولما شاهد نور «أورمزد» ذلك اشتغل بالأضرار وتصرف بحسد وعكف على التدمير.

نجد، بالضرورة، اختلافاً في الشكل بين الأسطورة كما نشأت لدى الزرادشتية القائمة على الثنوية والجانب الذي يفترض أنه توحيدي عند المسلمين. ومن هنا فإن مبدأ الشر ليس مخلوقاً من «أورمزد» فهو لا يعرف بوجوده في البداية، في حين هو في نهاية الأمر، أحد مخلوقات الله بالطبع. فهو في الأسطورة المحمدية يصعد تدريجياً أعلى وأعلى بفعل تقواه، بينما نجد أن التقوى في الرواية الزرادشتية لا علاقة لها بهذا الأمر. ولكن في كلتا الحالتين فإن الروح الشريرة تقيم أولاً في الظلام والجهل ثمَّ تأتي إلى النور، وفي كلتا الحالتين تبذل جهداً من أجل إلحاق الأذى بمخلوقات الله من خلال الحسد وخبث النية. إن الاثنتي عشرة ألف سنة من الصراع بين الخير والشر، وفقاً للأفكار الزرادشتية، تنقسم إلى أربع فترات كل منها ثلاثة آلاف سنة. وربما نجد إشارة إلى ذلك في ثلاثة آلاف سنة، يكمن خلالها عزازيل (إبليس) كما رأينا في الانتظار لتدمير آدم.

قبل مغادرة هذا الموضوع قد يكون من المهم أن نشير إلى أن الطاووس له بعض التوافق مع الروح الشريرة سواء في الأسطورة المحمدية أو الزرادشتية إذ ورد في «قصص الأنبياء» أنه لما جلس عزازيل أمام باب الجنة ورغب في الدخول فيها رأى الطاووس الذي كان جالساً على الجنة واحداً يتلو أسماء الله العظمى الحسنى. فسأله الطاووس: من أنت؟ فقال له: أنا أحد ملائكة الله. فسأله الطاووس: لماذا أنت جالس هنا؟ فقال له عزازيل: أنظر الجنة وأتمني الدخول

إليها. فقال له الطاووس: لم أومر بإدخال أحد إلى الجنة ما دام آدم عليه السلام فيها. فقال له: إذا كنت تأذن لي بالدخول إليها أعلّمك صلاة من تلاها نال ثلاثة أشياء: أحدها أنه لا يكبر، وثانيها أنه لا يصير عاصياً، وثالثها أنه لا يطرد من الجنة. فأخبره إبليس بهذه الصلاة فتلاها الطاووس فطار من سور الجنة إلى الجنة ذاتها وأخبر الحية بما سمعه من إبليس. وذكر بعد هذا أنه لما أهبط الله آدم وحواء وإبليس من الجنة إلى الأرض طرد الطاووس معهم كذلك[١].

ومن الجدير بالذكر أن الزرادشتية تعتقد أيضاً بالعلاقة بين أهرمان والطاووس، وإن الأخير مساعد لأهرمان، ففي كتاب أرمني قديم لمؤلف يسمى «يذنيق» الذي سبق أن نقلنا منه الفعل في مناسبة مختلفة: «أن الزرادشتيين يقولون في تلك العصور[٢]: إن أهرمان قال: إن عدم عملي لشيء من الخير ليس لأني لا أقدر عليه، ولكني لا أريده. وخلق الطاووس لإثبات هذا الكلام». فإذا كان أهرمان هو الذي خلق الطاووس في الأسطورة الزرادشتية فلا غرابة إذا كان هو الذي من علم إبليس في المحمدية، وصار معينه وطرد معه من الجنة.

(١) «قصص الأنبياء» ص ١٦، ١٧.

(٢) «تفنيد البدع» الكتاب الثاني.

٤ ـ أسطورة «نور محمد»

على الرغم من عدم ذكرها في القرآن، فإن قصة نور محمد، التي تروي إشراق النور على جبهته، وأن جوهره سابق للوجود، إذا جاز التعبير، تحتل مكانة مهمة للغاية في الأحاديث. إذ تمتلئ صفحات كاملة بمثل هذه الأحاديث، ففي كتب مثل «روضة الأحباب» نقرأ: «لما خُلق آدم وضع الله على جبهته ذلك النور، وقال: يا آدم، إن هذا النور وضعتُه على جبهتك هو نور ابنك الأفضل الأشرف، وهو نور رئيس الأنبياء الذي يُبعَث». ثم جاء أن ذلك النور انتقل من آدم إلى شيث ومن شيث إلى ذريته، وهكذا بالتعاقب إلى أن وصل إلى عبد الله بن عبد المطلب، ومنه إلى آمنة لما حبلت بمحمد[1].

ومن المحتمل أن المحمديين أرادوا في قصصهم عن هذا النور

(١) يذكر حديث آخر الحقائق التالية التي تظهر أهمية هذا النور. قال محمد: «أول ما خلق الله نوري» قصص الأنبياء ص ٢، انظر أيضاً ص ٢٨٢) «إن الله قسم النور إلى أربعة أقسام، وخلق العرش من قسم من هذه الأقسام، وخلق القلم من قسم وخلق الجنة من قسم وخلق المؤمنين من قسم، ثم قسم هذه إلى أربعة أقسام أخرى، فمن أفضل وأشرف القسم الأول خلقني أنا الرسول، ومن القسم الثاني خلق العقل وجعله في رأس المؤمنين، ومن القسم الثالث خلق الحياء وجعله في أعين المؤمنين، ومن القسم الرابع خلق العشق وجعله في قلوب المؤمنين». (قصص الأنبياء، ص ٢).

المحمدي تمجيد سيدهم بحيث تتطابق مع ما يرد عن المسيح في إنجيل يوحنا ١. ٤ و٥ (راجع الثاني عشر. ٤١)، وأن خلطاً حدث في أذهانهم بين الأول من هذه المقاطع وسفر التكوين ١٢/ ٣. وفي الوقت نفسه، سيتبين من المقاطع التي نشرع الآن باقتباسها، إن التفاصيل، على الرغم من المبالغة الخرافية والمخترعة، أخذت في مخططها الرئيسي، من الأسطورة الزرادشتية.

في كتاب فارسي قديم اسمه «مينوخرد» أُلِّفَ أيام ملوك الساسانية باللغة البهلوية نقرأ أن «أورمزد» خلق هذا العالم وجميع مخلوقاته، والملائكة، والعقل السماوي، من نوره الذاتي، مع تسابيح ومباركة من «زروان أكرانا» أو «الزمن اللا متناهي» وفي عمل آخر أقدم من «المينوخرد» توجد حكاية النور في معتقدات بلاد فارس. وهي مذكورة في الأفيستا بخصوص «ياما خشائته» أي الياما الكبرى أو ياما «البهاء»، الذي استمد منه اسمه، ثم حرِّفَ بعد ذلك إلى جمشيد في الفارسية الحديثة. وهو متطابق مع «ياما» السنسكريتية، الذي يتحدث في «الريج فيدا» عن أول البشر الذي ارتكب الخطيئة بإغراء شقيقته التوأم «يامي» ويعدّ الحاكم على أرواح الموتى بعد الموت. و«ياما» في التراث الفارسي من جهة أخرى هو مؤسس الحضارة الفارسية. اسم والده، «فيفانهفات»[1] وهو نفسه «فيفاسفات» في الأسطورة الهندية، الذي هو الشمس، وهو والد ياما. وعلى جبين «ياما» أشرق «كافيم هفارينو» أو «البهاء الملكي»، منبثقاً من البهاء الإلهي، حتى فقده بسبب الخطيئة.

---

(١) في الأسطورة الفارسية «فيفانهفات» هو الخامس في النسب من «جايا ماريتان» الإنسان الأول (ياسنا، التاسع، ٤).

ويرد في الأفيستا بالوصف التالي[1]: «كان البهاء الملكي العظيم ملازماً لجمشيد صاحب القطيع الصالح مدة طويلة، بينما كان متسلطاً على أقاليم الأرض السبعة: على الجن والأنس والسحرة والجنيات والأرواح الشريرة والعرافين والكهنة. ثم لما خطر بباله أن تلك الكلمة خاطئة ولا قيمة لها، زال منه البهاء الظاهر بصورة طير. وهو «جمشيد» صاحب القطيع الصالح، لما لم يرَ بعد ذلك البهاء تحسر «جم» ولما اضطرب عمل على إحداث العداوة على الأرض. وأول ما زال ذلك البهاء زال من «جمشيد» وزال ذلك البهاء من «جم» ابن الشمس بصورة طير وراغ[2] أخذت «ميثرا» ذلك البهاء. ولما زال البهاء ثانيةً من «جمشيد» زال ذلك البهاء من «جم» ابن الشمس، وفارقه بصورة طير وراغ، فأخذ «فريدون» ابن القبيلة الآثويانية ابن القبيلة المشهورة بالبسالة ذلك البهاء، لأن «فريدون» هو أعظم مَنتصر بين المنتصرين. ولما زال البهاء من جمشيد ثالثةً زال ذلك البهاء من «جم» ابن الشمس بصورة طير وراغ، فأخذ البطل «كريساسبا» ذلك البهاء لأنه الأقوى بين الأقوياء»

وهنا نرى أنه، تماماً، كما في الأسطورة المحمدية، ينتقل النور من جيل إلى جيل، لمن هو أكثر جدارة في كل منها. وكان من الطبيعي أن يمتلك نسل «جمشيد» هذا النور في المرة الأولى، بعد ان سقط في الخطيئة. ولا يبدو أن هناك ملاءمة خاصة في الأسطورة التي انتقلت من آدم إلى محمد، إلا لتعظيم النبي بالطريقة نفسها التي وردت في الأسطورة القديمة التي تمجد هؤلاء الأبطال الفرس القدامى.

---

(١) اليشت التاسع عشر، ٣١-٣٨.

(٢) حرفياً «في شكل». والأرجح أن معنى كلمة «وراغ»: مضيء، وهو يشبه كلمة براق أو برق.

وعلاوة على ذلك، نلاحظ أن جمشيد هيمن على «الجن والأنس والسحرة والجنيات والأرواح الشريرة والعرافين والكهنة» تماماً كما نسبت الأساطير اليهودية والمحمدية هذا التسلط إلى الملك سليمان في وقت سابق[1]. مما لا شك فيه أن اليهود أخذوا هذه القصة، من الزرادشتيين ونقلوها إلى المسلمين، كما ذكرنا في الفصل الثالث.

ما تقوله الأحاديث الإسلامية عن تقسيم «نور محمد» عند خلقه لأول مرة، إلى أقسام، مشابه جداً، مع اختلافات بسيطة، لقصة زرادشتية في كتاب فارسي قديم عنوانه «دساتير آسماني» (أي الأساطير السماوية) حيث من المحتمل جداً أنها استمدَّت منه، خاصة أن الفكرة نفسها وجدت أيضاً في الكتابات الزرادشتية القديمة، كما هو الحال في «مينوخرد» المذكورة أعلاه.

(١) ص. ٧١، ٧٣، و٧٧، الهامش.

٥ - جِسْرُ الْمَوتى

وهو ما يسمى في الأحاديث المحمدية «الصراط» أي «الطريق». وهناك الكثير من التفاصيل الواردة حول هذا الجسر الخرافي، الذي يقال إنه أدقُّ من شَعْرة وأمضى من السيف. وهو يمتدُّ بين الأرض وهاوية الجحيم، وهو الطريق الوحيد للمرور من الأرض إلى السماء يوم القيامة. وسيكون على الجميع عبوره. المسلمون المؤمنون سيجتازونه دون صعوبة، مسترشدين في ذلك العبور بالملائكة. لكن الكافرين، لن يتمكنوا من العبور، وسيسقطون في نار جهنم.

على الرغم من أن القرآن يستخدم كلمة «صراط» بمعنى مجازي للوسيلة، كما في عبارة الصراط المستقيم أي «الطريق الصحيح» السورة الأولى (الفاتحة، وسور أُخر هنا وهناك)، إلا أنها ليست كلمة عربية على الإطلاق. ويظهر أصل الأسطورة عن الجسر من اشتقاق هذا الاسم. فليس لهذه الكلمة أية جذور عربية أو حتى سامية في الواقع، ولكن هي «چينوت» الفارسية في الحروف العربية، وبما أن الأبجدية العربية ليست فيها حرف الجيم المثلثة (چ) لتمثيل الصوت، حل محله حرف «الصاد»، وهو الحرف الأول في «چينوت» باللغة الفارسية. و«چينوت» باللغة الفارسية تعني «المجمع» شيء يوصل أو يجمع المتجهات (راجع السنسكريتية (चि चि) وبالتالي كلمة صراط معربة عن «چينوت» مع

التخفيف الحاصل عند نقلها للعربية، ولم يأخذ المسلمون كلمة «چينوت»[1] فقط بل أخذوا المعنى والمعتقد المرتبطين بها كذلك فالأفيستا تتحدث، عن (Chinvato-peretus) «الجسر الممتد» أو «القنطرة» بين العمل الصالح والطالح. هذا الجسر يمتد من جبل «ألبورز» إلى «شخات دياتي» (Chakat Daitih) ويعبر فوق الجحيم. وتصل روح كل إنسان إلى هذا الجسر بمجرد الانتهاء من طقوس الجنازة، ولا بد من عبوره من أجل دخول الجنة. وعندما تعبر الروح ذلك الجسر، يتم الحكم عليها من قبل (ميثرا، وراشنو، وسرواشا) وفقاً لحساب الصالح والطالح من أعمال صاحب تلك الروح[2]. فإن رجحت حسناته يمكن فتح باب الجنة لدخوله. وإن ترجحت أعماله الشريرة فإنه يلقي في جهنم: أما إن تساوى الحسن والسيئ من أعماله، فإن روح الميت تنتظر[3] المحاكمة النهائية (vulaiti)، والتي ستعقد في الختام عند حسم الصراع النهائي بين أوْرمزد وأهرمان.

ولإظهار أصل كلمة صراط، وكذلك أصل العقيدة المحمدية حول هذا الموضوع معاً، فإنه تكفي ترجمة الفقرة القصيرة التالية من كتاب بهلوي يسمى «دنكرت»[4]: «أهرب من الخطايا الكثيرة. أحافظ على نقاء وطهارة سلوكي بحفظ طهارة قوى الحياة الست، وهي: الفعل والقول والفكر والذهن والعقل والفهم، حسب إرادتك يا مسبِّب

(١) ومع ذلك، فقد ظهرت الجيم المخفَّفة في الكتب الزرادشتية المتأخرة.

(٢) انظر الهامش ص. ١٧٧ أعلاه.

(٣) في مكان يسمى ميسفانو جاتوس (ونديداد، التاسع عشر، ٣٦: يشت، ١، ١، سيروزا: الأول: ٣٠، الثاني، ٣٠). انظر أعلاه، ص. ١٢٣، ١٢٤، ٢٠٢.

(٤) دنكرت، الجزء الثاني، الفصل: ٨١، الفقرات: ٥و٦.

الأعمال الصالحة العظيم. وإني أؤدي عبادتك بعدالة بحسن الفكر والقول والعمل، لأستمر في الطريق المضيئة، لكيلا أعاقب بعقاب جهنم الشديد، بل أعبر على «چينوت» وأصل إلى ذلك المسكن المبارك المملوء بالعطريات الممتعة تماماً والرائعة دائماً».

كما نجد في الأفيستا أيضاً العديد من الإشارات إلى المعتقد نفسه، من بين تلك الإشارات هذا المقطع الذي يرد عن الرجال والنساء الصالحين[١]: «هم أيضاً سوف أرشدهم من خلال الصلاة مثلك: مع كل التبريكات، عليَّ أن أهديهم إلى جسر چينوت».

وهناك دليل آخر على الأصل الآري لهذا الاعتقاد في حقيقة أن الأساطير الاسكندنافية القديمة تتضمن ذكر «بيفروست» وهو قوس قزح، على غرار «جسر الآلهة» الذي يتم من خلاله العبور من أماكن سكنهم في أسكارد (السماء) إلى الأرض. وهذا يفسر في الوقت نفسه الأساس الطبيعي الذي قامت عليه أسطورة الجسر، ويظهر مدى قدمه، وكيف نقل الاسكندنافيون هذه الفكرة معهم إلى أوروبا. ولذلك لا بد أن يكون المشترك بينهم وبين الفرس قديماً جداً. ففي اليونان يصبح قوس قزح رسول الآلهة (إيريس) في الإلياذة، ولكن يبدو أن فكرة وجود جسر يربط بين السماء والأرض قد ضاعت.

(١) ياسنا، السادس والأربعون، ١٠.

٦ ـ الأفكار الفارسية الأخرى المستعارة

لا شك أن هناك الكثير من المسائل الأخرى التي أثَّرتْ فيها الأفكار الفارسية على الإسلام، ولكن ما قيل حتى الآن كاف لتحقيق هدفنا. ومع هذا فمن المهم ألا نختتم هذا الجزء من تحقيقنا دون الإشارة إلى نقطتين أخريين هامتين وجديرتين بالذكر.

إحداهما تتعلق بعقيدة المسلمين بأن كل نبي ترك قبل موته إشعاراً بمجيء نبي يأتي بعده. وقد وجدت هذه الفكرة بالفعل في الكتاب المقدس، حيث نجد نبوءات تتحدث عن مجيء المسيح، ولكن ليس هناك ما يدعم النظرية المحمدية حول مجيء محمد. ولعل هذه النظرية أخذت من عمل زرادشتي يسمى «دساتير آسماني». يعود إلى عصور قديمة جداً، (وبالتأكيد ثمة صعوبة في نقل المعنى النص الأصلي)[1] ويعتقد الكثيرون من الفرس المتأخرين أنه تمَّ «تأليفه بلغة السماء» وترافق الترجمة إلى اللغة الدارية المحلية -إحدى اللغات الفارسية القديمة-النص

---

(١) النص الأصلي (كما نشر في بومباي) مكتوب بحروف الأبجدية العربية (الفارسية). بإعادة ترجمة بعض المقاطع بالدارية إلى البهلوية ومن ثم كتبت هذه الأخيرة بالأبجدية العربية، وأعتقد أنني قد أثبتت أن صعوبة فهم النص الأصلي تعود لحقيقة أن الناسخ بالحرف العربي لا يعرف البهلوية، فتداخلت تراكيب معقدة جداً من الحروف ببعضها في هذه النسخة المتداولة.

الأصلي الذي يقال إنه تم اكتشافه في بلاد فارس في أوائل القرن الثامن عشر، وقد طبعه ملا فيروز في بومباي. وهو يتألف من خمس عشرة رسالة زعموا أنها نزلت على خمسة عشر نبياً تعاقبوا على تلقي تلك الرسائل، أولهم «مهاباد» وآخرهم «ساسان» الذي من المفترض أن ملوك السلالة الساسانية يعودون إليه بنسبهم. ويقال إن الترجمة الدارية الحالية تعود إلى عصر خسرو برويز (٥٩٠ ميلادي)، ولا بد أن النسخة الأصلية تعود إلى عصور أقدم من ذلك التاريخ[١]. وعند نهاية كل رسالة من تلك الرسائل ذكر لمجيء النبي التالي الذي يزعمون إنه يأتي في الوقت المحدد. والهدف من هذا واضح جداً. العديد من الفرس رفض هذا الكتاب، ولكن يبدو أن الفكرة قد استهوت المسلمين كثيراً لدرجة أنها وجدت لها مدخلاً إلى اعتقادهم العادي.

ثانياً، من الجدير بالذكر أن الآية الثانية من كلٍّ رسالة من هذه الرسائل تسير على النحو التالي: «بسم الله، المعطي، الغفور الرحيم، الأحد». ومن الواضح أن هذه الكلمات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالبسملة التي تشكل مقدمة كل سورة من سور القرآن إلا في السورة التاسعة. وربما استعار القرآن من الكتاب الزرادشتي وليس العكس، للبونداهيشنا بسملة مماثلة «بسم أورمزد الخالق» ويعتقد آخرون أن البسملة في القرآن ذات أصل يهودي. وتقول الأحاديث أن أحد الحنفاء الذين سنبحث تأثيرهم في الفصل القادم، وهو «أمية بن أبي الصلت» وكان شاعراً من أهل الطائف، علَّم هذه الصيغة لقريش[٢]، بعد أن تعلمها من تواصله مع

---

(١) ذكرها كل من صاحب «دبستان مذاهب» ومؤلف «برهان قاطع» لذلك لابد أنها فقدت منذ أيامهما. وذكرنا استردادها.

(٢) «كتاب الأغاني» ج: ١٦ (نقلاً عن رودويل، القرآن، ص ١).

اليهود والمسيحيين خلال رحلاته إلى سوريا وغيرها كتاجر. فإذا كان محمد قد سمع منه هذه الطريقة فاعتمدها، فمما لا شكَّ فيه إنه عدَّل عليها نوعاً ما، كما كان يفعل عادةً مع كل ما يقتبسه. لكن الأرجح أنها من أصل زرادشتي أكثر مما هي يهودية، وتعلمها «أمية بين أبي الصلت» من الفرس الذين التقى بهم خلال رحلاته التجارية.

لقد رأينا كيف كان التأثير الفارسي واسعاً في الجزيرة العربية في زمن محمد، وبالتالي ليس هناك صعوبة مسبقة في قبول النتيجة التي يجب استخلاصها من جميع المعطيات المذكورة في هذا الفصل -أن الأفكار والأساطير الزرادشتية هي واحدة من المصادر التي استمد منها الإسلام كثيراً مما يرد في أجزاء معينة من القرآن والأحاديث.

كتب الحديث نفسها تثبت ذلك إذ يخبرنا صاحب «روضة الأحباب» أن محمد عادة ما كان يتحدث[١] ببضع كلمات بلغة الأقوام الذين جاءوا إليه من أمم مختلفة، وإنه تحدث بالفارسية في مناسبتين مع هؤلاء الزوار، وبهذه الطريقة وجدت بعض الكلمات الفارسية مدخلاً إلى اللغة العربية.

بالطبع هناك قدر كبير من الخرافة في هذا الكلام، ولكن من المهم في فرضيته أنه يدل بوضوح على حقيقة أن محمداً كان له بعض المعرفة الطفيفة بالفارسية، إن لم تكن إلى جانب لغة أجنبية أخرى، إضافة إلى ذلك تخبرنا السيرة النبوية لابن إسحاق وابن هشام أن بين الداخلين في الإسلام من الفرس «سلمان الفارسي» الذي يبدو أنه كان شخصاً على قدر من التعليم والكفاءة، حيث كان من نصائحه لمحمد وفقاً لخبرته

(١) وفي سنن ابن ماجه ثمة حديث عن أبي هريرة، يقول إن محمد قال له باللغة الفارسية: اشِكَمَتْ دَرْدْ؟ فلم تسعفه معرفته للغة لزيادة الفعل: «ميكُند» وهو لازم لإكمال المعنى.

العسكرية، عندما حاصرت قريش وحلفائها المدينة في شباط/ فبراير ٦٢٧ م، بأن يدافع عن المدينة بالخندق المعروف[١]، وهي وسيلة للتحصين يقال إن العرب لم يستخدموها من قبل. وبمشورة سلمان أيضاً استخدم المنجنيق في ذلك الوقت خلال حملته على الطائف عام (٦٣٠). ويقول البعض بأن سلمان، على الرغم من أنه يُعرف عادةً بـ «سلمان الفارسي» إلا أنه كان في الأصل مسيحياً أخذ[٢] أسيراً من بلاد ما بين النهرين.

وهذا الأمر يحتمل أن يكون حقيقياً أو غير حقيقي، على الرغم من أن التسميات التي حصل عليها لا تؤيد صحته. فإن كان غير حقيقي، فإنَّ سلمان على الأرجح هو الشخص الذي يقال إن أعداء محمد اتهموا النبي باستخدامه مساعداً له في تأليف أجزاء معينة من القرآن. في السورة السادسة عشرة، (سورة النحل، الآية: ١٠٣) نقرأ: «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ[٣] وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ» وإن لم يكن سلمان من مواطني بلاد فارس، فإن لغة الآية تكفي لإثبات وجود بعض الفرس بين أصحاب محمد يُعتقد أنهم «علموه» جزءاً معيناً مما تمَّ إدراجه في القرآن. ثم أننا نرى، بعد ذلك، أن الخرافات الفارسية كانت معروفة جيدة وبما فيه الكفاية[٤] في الجزيرة

---

(١) اعتمدت الكلمة الفارسية (الخندق) إلى اللغة العربية، كما حدث في كلمة صراط.

(٢) وتقول روايات أخرى تقول إنه كان زرادشتياً في مبدئه، لكونه فارسياً بالولادة. ثم أصبح بعد ذلك مسيحياً، وتوجه إلى سوريا، ومن ذلك البلد اقتيد إلى الجزيرة العربية.

(٣) كلمة «عجمي» تعني الفارسي تحديداً، على الرغم من أنها تنطبق على سواهم من الأجانب.

(٤) انظر ص. ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠.

ليتم الاعتراف بها على الأقل من قبل بعض العرب عند دمجها في الوحي الإلهي المزعوم. ولم يكن محمد قادراً على إعطاء إجابة شافية تدحض هذا الاتهام، لأنه لم يفترض أحد أن الأجنبي كان يعلمه لتحسين أسلوبه العربي، فالاتهام يخص الموضوع وليس لغة القرآن. وعلاوة على ذلك، كما أثبتنا فأن محمد اقتبس الأساطير من العرب الوثنيين ومن اليهود، فليس هناك سبب يمنعه إلا يكون مستعداً لاعتماد غيرها من المصادر الزرادشتية. وفي الواقع فإن الحالات التي استنتجناها في هذا الفصل تثبت بشكل قاطع أنه فعل ذلك، وأن هذه الأساطير الفارسية، التي تبين أن الكثير منها مشتركة بين الفرس وفروع أخرى من السلالة الآرية من الأمم، تشكل مصدراً آخر من المصادر الأصلية للإسلام.

الفصل السادس:

الحنفية وتأثيرها على نشأة الإسلام....

لم يكن محمد، في كل الأحوال، أول شخص في أمته يصبح على قناعة بسخافة دين شعبه وبطلانه في ذلك الوقت، ويتوق إلى إحداث الإصلاح. فقبل بضع سنوات من ظهوره نبياً، يفيدنا أقدم كتاب موجود عن السيرة، أنّ ثمة أشخاصاً نشأوا في المدينة، والطائف، ومكة، وحتى في أماكن أخرى[1] رفضوا عبادة الأوثان والشرك السائد بين الشعب بأسره، وسعوا للبحث عن الدين الحنيف. وسواء جاء المحفِّز الأول لذلك من اليهود، وهذا أمر محتمل جداً، أو من بعض الجهات الأخرى، فإن هؤلاء الأشخاص الذين نتحدَّث عنهم عزموا على استعادة عبادة الله العلي إلى مكانها الصحيح ليس من خلال نبذ عبادة الأوثان التي حلَّتْ محلَّ الله فقط، وإنَّما أيضاً بمعارضة العديد من الممارسات الأخلاقية السائدة آنذاك التي كانت منافية للضمير الإنساني والبشرية نفسها.

---

(١) إلى جانب المراجع المذكورة انظر للمزيد قصة مثيرة للاهتمام تتعلق بأبي ذر، أوردها مسلم في «كتاب الفضائل».

وسواء من خلال تراث إبراهيم، الذي زعموا بأنه سلفهم، وأنه عرف الله الواحد الحقيقي ودعا لعبادته، أو من خلال كلام اليهود في هذا الشأن، فقد أكد هؤلاء الإصلاحيون بأنهم يسعون للعودة إلى «دين إبراهيم». ولعل هذه الخصوصية اليهودية هي التي منعتهم من قبول ديانة اليهود بالشكل المطروح آنذاك، والانضمام إلى الكنيس اليهودي. أو، من وجهة نظر أخرى، فإن الكبرياء القومي والقبلي منعهم من تقبُّل دين المستوطنين الأجانب في بلادهم. ومن المرجح كذلك أن بعض هؤلاء الإصلاحيين أدركوا أن الدين اليهودي في ذلك الوقت لم يكن بأي حال من الأحوال خالياً من الخرافات الفظَّة. إضافة إلى حقيقة أن المسيحيين اتهموا اليهود برفضهم المسيح وقتله، ونوهوا إلى حالة سقوطهم بوصفها دليلاً على غضب الله عليهم، سيكون له تأثير إضافي في دفع هؤلاء الأشخاص المستنيرين من العرب إلى الامتناع عن قبول التلمودية اليهودية. وأيا كان السبب، فالحقيقة هي أن هؤلاء الإصلاحيين ينطبق عليهم في المقام الأول وصف المستفسرين الباحثين عن الحقيقية وليس كيهود أو مسيحيين مرتدين. وكان أبرز زعمائهم المعروفين لنا بالأسماء: «أبو عمير» في المدينة، و«أمية بن أبي الصلت» في الطائف، وأربعة في مكة هم: «ورقة» و«عبيد الله» و«عثمان» و«زيد بن عمرو»[1]. وآخرون. وبلا شك كان هناك بعض المتعاطفين مع هؤلاء الأشخاص، على الرغم من أن أفكارهم لم تكن ذات نفوذ واسع جداً.

وبما أن هؤلاء الإصلاحيين لم يتركوا لنا أية مدوَّنة خطية تعبر عن

(١) التاريخ يذكر اثني عشر من «أصحاب محمد» كانوا حنفيين في البداية.

معتقداتهم، باستثناء قصيدة واحدة سوف نتأملها في الوقت المناسب[١] فلعل من الأهمية أن نحدد ما لدينا من مراجع سنعتمدها في الكلام الذي سنسوقه بشأنهم.

عملياً لدينا مرجع وحيد تقريباً[٢] هو كتاب «السيرة النبوية» لابن هشام وهو أول كتاب وصل إلينا، بينما كان «الزهري» المتوفى عام ١٢٤ للهجرة أول كاتب معروف لنا بالاسم يؤلِّف كتاباً عن حياة محمد. ونقل معلوماته المتواترة شفهياً عن أولئك الذين عرفوا محمد شخصياً، ولا سيما «عروة» وهو أحد أقرباء عائشة، ومما لا شك فيه، أن الأخطاء والمبالغات قد تسللت عبر السنوات إلى هذه الأحاديث، في العديد من النواحي، ولو كان كتاب الزهري موجوداً الآن فإن قيمته ستكون كبيرة بالتأكيد. لكنه ضاع للأسف، ومن المرجح، إن لم يكن مؤكداً، أن ابن إسحاق، وهو أحد تلاميذ الزهري، الذي توفي ١٥١ هجرية، استفاد من أحاديث الزهري في تأليف عمله عن حياة محمد.

ولكن ابن إسحاق أضاف، بلا شك، الكثير من المعلومات التي كان قد جمعها من مصادر الحديث الأخرى، الصحيحة وغير الصحيحة. ولكن حتى كتاب ابن إسحاق لم يصلنا بشكل كامل ومستقل، على الرغم من أن الكثير مما ورد فيه اعتمده ابن هشام (توفي ٢١٣ ه) في كتابه السيرة النبوية أو (السيرة الذاتية للرسول) وهو أقدم المصادر التي نملكها بين عدد كبير من الأعمال التي تحمل العنوان نفسه. هذا الكتاب

---

(١) من الواضح أن المؤلف لم يطلع على أشعار أمية بن ابي الصلت وزيد بن عمرو نفيل بشكل كافٍ [م]

(٢) شبرنغر، مع ذلك، نقل عن مصادر أخرى يعتقد أنها ذات مصداقية يمكن الاعتماد عليها.

ذو قيمة كبيرة في كل ما يتصل بمحمد وعصره، لأنه من الواضح أقل اعتماداً على الأسطوري والخرافي من جميع الأعمال الأخرى حول هذا الموضوع.

ما يخبرنا به ابن إسحاق وابن هشام عن قصة هؤلاء الإصلاحيين العرب بشكل خاص جدير بالثقة، لأنهما ليس لهما مصلحة في مديح هؤلاء الإصلاحيين أو المبالغة في تشبيه تعاليمهم بما جاء به محمد. ولا يبدو أنه يوجد في كلام هذين الكاتبين أية استفادة مما قد يكون لفقها خصوم هؤلاء الإصلاحيين، ويبدو بالتالي أنهما قد أوردا الحقيقة، على قدر ما عرفاه، عن هؤلاء الإصلاحيين. فمن المرجح أن يكون التشابه بين عقائدهم وتلك التي صدرت عن محمد أكبر مما بحوزتنا من معلومات تمكننا من إظهار الكثير منها، ولا يمكن أن تكون قليلة للسبب الذي ذكرناه. ولذلك سنعتمد باطمئنان على قصة ابن هشام لأنها تحتوي على ما لا يقل عن الحد الأدنى مما عرفوه، ومقارنتها مع القرآن.

من أجل تمكين القراء ليحكموا بأنفسهم، نورد رواية ابن هشام، مع ملاحظة أن الجزء الأكبر منها قام على رواية سابقة لابن إسحاق: «قال ابن إسحاق[1]: واجتمعت قريش يوماً في عيدٍ لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظّمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويديرون به. وكان ذلك عيداً لهم، في كل سنة يوماً. فخلص منهم أربعةُ نفرٍ نجياً. ثم قال بعضهم لبعضٍ: تصادقوا، وليكتم بعضكم على بعض. قالوا: أجَل. وهم: ورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش؛ وعثمان بن الحويرث، وزيد

---

(١) سيرة الرسول، المجلد. ١، ص ٧٦، ٧٧.

بن عمرو بن نُفيل[١]. فقال بعضهم لبعض: تعلموا واللهِ ما قومكم على شيء. لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نُطيف به[٢] لا يسمع ولا يبصر ولا يضرُّ ولا ينفع؟ يا قوم، التمسوا لأنفسكم فإنكم واللهِ ما أنتم على شيء. فتفرَّقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم. فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية واتَّبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب. وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة. فلما قَدِمَها تنصَّر وفارق الإسلام حتى هلك هنالك نصرانياً. قال ابن إسحق: فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، قال: كان عبيد الله بن جحش حين تنصَّر يمر بأصحاب رسول الله، وهم هنالك من أرض الحبشة، فيقول: «فقحنا وصأصأتم» (أي أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر ولم تبصروا بعد، لأن الكلب الوليد إذا أراد أن يفتح عينيه لينظر صأصأ لينظر. وقوله فقح عينيه تعني فتح عينيه). قال ابن إسحق: وخلف رسول الله بعده على امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب (أي تزوج بها بعده). قال ابن إسحق: وحدثني محمد بن علي بن حسين أن رسول الله بعث فيها إلى النجاشي عمرو بن الضمري فخطبها عليه النجاشي فزوَّجه إياها، وأصدقها عن الرسول أربعمائة دينار، فقال محمد بن علي عبد الملك بن مروان وقف صداق النساء على أربعمائة دينار، إلا عن ذلك. وكان الذي أملكها للنبي خالد بن سعيد بن العاص. قال ابن إسحق: وأما عثمان بن الحويرث فقدم

---

(١) حذفت هنا سلسلة الأنساب، التي تعود لأجيال عديدة إلى الوراء.

(٢) اشارة إلى «الحجر الأسود» المشهور.

على قيصر ملك الروم فتنصَّر وحسُنت منزلته عنده. قال ابن هشام: ولعثمان بن الحويرث عند قيصر حديث يمنعني من ذكره ما ذكرت في حديث الفجار. قال ابن إسحق: وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية. وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تُذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموؤودة، وقال: أعبد رب إبراهيم. وبادى قومه بعيب ما هم عليه. قال ابن إسحق: وحدثني هشام بن عروة عن أبيه عن أمه أسماء بنت أبي بكر (رضي الله عنهما) قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مسنداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري. ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك لعَبَدْتُك به، ولكني لا أعلمه. ثم يسجد على راحته[١]. قال ابن إسحق: وحدثت أن ابنة سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وعمر بن الخطاب وهو ابن عمه قالا لرسول الله: استغفِر لزيد بن عمرو قال: نعم، فإنه يُبعث أمة وحده».

وقال زيد بن عمرو بن نفيل في فراق دين قومه، وما كان لقي منهم في ذلك:

أربّاً وَاحِداً، أَمْ ألفَ رَبٍّ ... أدِينُ إذَا تُقُسِّمت الأمورُ
عَزَلْتُ اللاتَ والعُزَّى جميعاً ... كذلك يفعلُ الجَلْدُ الصبورُ
فَلاَ العُزَّى أدينُ وَلاَ ابنتيها ... وَلاَ صَنَمَيْ بَنِي عَمْرٍو أزورُ
وَلاَ هُبَلاً أَدِينُ، وَكَانَ رَبّاً ... لَنَا فِي الدَّهْرِ إذْ حِلمي يسيرُ
عَجِبْتُ وَفِي اللَّيَالِي مُعْجَبات ... وَفِي الأيَّامِ يَعْرِفُهَا البصيرُ

---

(١) أو اعتاد أن يسجد على كفيه.

بِــأَنَّ الــلـــهَ قَــدْ أَفْــنَــى رِجَــالاً   كَـثِـيـراً كَـانَ شـأنَـهـمُ الـفـجـورُ
وَأَبْــقَـــى آخَــرِيـــنَ بــبــرٍّ قــوم   فَـيَـرْبِـلُ مـنـهـمُ الـطـفـلُ الـصـغـير
وبَـيْـنـا الـمـرءُ يـعـثـر ثـابَ يَـوْمـاً   كَـمَـا يَـتـروَّح الـغـصـنُ الـمـطـيـرُ
ولــكــنْ أعــبــدُ الــرحــمــنَ ربِّــي   لــيـغـفـرَ ذنـبـيَ الـربُّ الـغـفـورُ
فَـتَـقْـوَى الـلـهِ رَبِّـكُـمْ احْـفَـظُـوهَـا   مَـتَـى مَـا تَـحْـفَـظُـوهَـا لاَ تَـبُـورُوا
تَــرَى الأبــرارَ دارَهُــم جِــنَــانٌ   ولــلــكــفــارِ حَــامِــيَــةٌ سـعـيـرُ
وخـزْيٍ فِـي الْـحَـيَـاةِ وَإِنْ يَـمُـوتُـوا   يُـلاَقُـوا مَـا تـضـيـقُ بِـهِ الـصـدورُ[١]

طوال هذه القصة كلها نلاحظ أن ابن هشام حرص على الدقة ليعطينا الكلمات نفسها التي استخدمها سلفه ابن إسحاق في روايته. ولذلك لدينا شيء محدد للانطلاق منه في النظر إلى تاريخ هؤلاء المصلحين ومعتقداتهم، ولا سيما زيد، الذي له قصة مؤثرة، والذي تظهر أشعاره النبيلة، مدى تأثيره على جانب الخير لدى محمد. وسنرى سبباً للاعتقاد بأنه مارس[٢] قدراً معيناً من ذلك التأثير، ونحن نتمنى لو كان له تأثير أكبر على حياة محمد وشخصيته.

يخبرنا ابن هشام، استناداً إلى بن إسحاق أيضاً بأن «الخطّاب» عمّ زيد، وبخ هذا الأخير لتخليه عن دين قومه، واضطهده إلى حد أنه لم يستطع أن يعيش في مكة لفترة أطول. ويبدو أنه هاجر إلى أنحاء أخرى من البلاد، ولكن جعل مكان أقامته، في نهاية المطاف، في كهف في جبل حراء[٣]. حيث عاش هناك إلى عُمر متقدمٍ، وعندما توفي دفن في سفح الجبل.

---

(١) يورد المؤلف نص قصيدة زيد بن عمرو بن نفيل بالعربي، وقد أوردناها بالمتن [م]

(٢) يقول أبو الفرج في كتابه «الأغاني» (ج١٥، ص. ١١١) أن محمداً التقى مع زيد بن عمرو وتحدث معه قبل تلقيه الوحي.

(٣) سيرة الرسول، المجلد. ١، ص. ٧٩.

ويقال إن وفاته سبقت دعوة محمد بخمس سنوات فقط، حين أعلن بعثته النبوية لأول مرة، ٦١٢، في ميلادي. ويخبرنا ابن إسحاق في هذه اللحظة أنه كان من عادة قريش «في أيام الجاهلية» ترك المدينة وقضاء شهر من كل عام على جبل حراء. ويقصد به شهر رمضان-كل عام في ممارسة التكفير عن الذنوب «التحنُّث»[١]. ومن الواضح أنه كان من نتيجة هذه العادة أن اختار محمد بعد ذلك هذا الشهر بعينه لتتم مراعاته من قبل أتباعه على الدوام في الامتناع عن الطعام. وكان هذا الشهر يصادف خلال الصيف في وقته، ولعل هذا التغيير في مكان الإقامة كان مرحباً به أو مستحسناً لدى عدد من أفراد المجتمع الأغنياء، الذين أتيح لهم أن يتركوا لبعض الوقت الحرَّ والأماكن المغلقة في شرق المدينة إلى هواء نقي في الريف المفتوح. إذ ليس لدينا ما يدعو إلى الافتراض بأن الزهد لعب دوراً كبيراً في أي جانب من حياتهم في تلك الفترة. فقد أخبرنا محمد، بوضوح، أنه استخدم هذه العادة في قضاء شهر رمضان من كل عام على جبل حراء وكان يعيش فعلاً في هذا الكهف الذي سكنه زيد، عندما، بحسب اعتقاده، جاءه الوحي الأول عن طريق الملاك جبرائيل. ومن الخطأ أن نرى في هذا أي «العزلة عن العالم» في تلك المناسبة، أي جانب خاص بمحمد، ذلك أن زوجته خديجة كانت معه كما تخبرنا المصادر، وكان يتبع عادة قبيلته لا أكثر[٢].

---

(١) ثمّ جاءه جبريل عليه السّلام بما جاءه من كرامة الله، وهو بحرّاء في شهر رمضان... كان رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم-يجاور في حراء من كلّ سنةٍ شهراً، وكان ذلك ممّا تحنّث به قريش في الجاهلية. والتحنث: التبرّر... قال ابن هشامٍ: تقول العرب: التّحنّث والتّحنّف، يريدون الحنيفية فيبدلون الفاء من الثاء.

(٢) انظر الهامش السابق، وهو أمر ذو أهمية كبيرة.

ومن الواضح أنه خلال هذه الزيارة السنوية إلى جبل حراء، كان لدى محمد فرصة للتحدث مع زيد. ويظهر الحديث بشكل واضح مدى احترام محمد للرجل. ولقد رأينا بالفعل أنه تضرَّع من أجل زيد بعد ذلك أن «يبعث أمة لوحده يوم القيامة» وهذا جدير بالملاحظة جداً ذلك أن البيضاوي، في تفسيره للسورة التاسعة، التوبة، ١١٣، ينص على أن الله لم يأذن لمحمد بالتضرُّع والاستغفار من أجل خلاص والدته «آمنة» المرتبط بها بعاطفة خاصة حيث توفيت وهي في شبابها المبكر. وعلاوة على ذلك، نصَّ الواقدي على أن محمد «تلقى السلام من زيد» وهي تحية متبادلة بين للمسلمين فقط، وأن محمد دعا له بالرحمة من الله، وأكد: «لقد رأيته في الجنة يسحب ذيولاً». ويقول شبرنغر إن محمداً اعترف علنا إن زيد بشيره، وكل أقوال زيد المعروفة نجدها في القرآن[1]. «على سبيل المثال، في السورة الثالثة (آل عمران، الآية ٢٠) ويكرر محمد مخاطبة عامة البشر: «أَأَسْلَمْتُمْ؟» و: «أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ» وقال ابن إسحاق[2] إن زيد بن نفيل أول من خاطب الناس بهذه الكلمات. جميع المبادئ الرئيسية التي وجدناها قد تشكلت في وعي زيد استند عليها القرآن أيضاً ونذكر منها:

١ ـ تحريم وأد البنات الرضيعات بدفنهنَّ وهنَّ على قيد الحياة وفق تقاليد عربية قاسية آنذاك.

٢ ـ الاعتراف بوحدانية الله.

٣ ـ رفض عبادة الأصنام: اللات والعزَّى وسواهما.

---

(١) ينظر: كويل «محمد والمحمدية» ص. ٥٣.

(٢) نقله شبرنغر، «حياة محمد» ص. ٤٢.

٤ ـ وعد الناس بالجنة.

٥ ـ التحذير من العقوبة المعدة للكافرين في سعير جهنم.

٦ ـ إعلان غضب الله على «الكفار».

٧ ـ اختصاص الله بأسماء: الرحمن. الرحيم. الرب. الغفور.

وعلاوة على ذلك، قال زيد وسائر الإصلاحيين (الحنفاء) إنهم يبحثون عن «دين إبراهيم». وإلى جانب هذا، كثيراً ما يكرر القرآن[١]، وإن بشكل غير مباشر[٢]، الحديث عن إبراهيم باعتباره حنيفاً، وهو اللقب المفضل لزيد وأصحابه.

وجذر كلمة حنيف في اللغة العبرية تعني: الإخفاء، التظاهر، الكذب، لتصبح بمعنى النفاق، ومعانيها باللغة السريانية مشابهة لهذه المعاني. أما في اللغة العربية فيبدو أنها قد تدل أولاً على «العرج» أو «المشي بشكل غير مستقيم» لكنها جاءت للدلالة على التخلي عن عبادة الآلهة القومية. ومن هذا المنطلق فمن المؤكد إنها أطلقت على هؤلاء الإصلاحيين بوصفها عيباً. ولكن منذ ذلك الحين، كما يخبرنا ابن هشام[٣]، صارت الكلمة في نطق قريش تدل على «التوبة» و «الطهر» وكانت تنوس بين مصطلحي «التحنُث» و«التحنُف» وكلاهما كناية عن «الحنيفية» فمن المحتمل أن الحنفاء تبنوا هذا الاسم باستحسان لأنه يعبر عن التبرؤ من عبادة الأصنام بكل آثامها. وليس أقل لفتاً للنظر، أن محمد تجرأ على إطلاق المصطلح على إبراهيم، ودعوته للناس أن

---

(١) السورة الثالثة: آية ٨٩؛ والرابعة: ١٢٤، والسادسة: ١٦٢.

(٢) قد يرى علماء العربية تعذر التماثل. وإلا لا يوجد سبب حقيقي للقول: بشكل غير مباشر، فاللغة مباشرة تقريباً.

(٣) أعلاه، ص. ٢٣٦، هامش ١.

يصبحوا حنفاء من خلال العودة إلى «دين إبراهيم» الذي قرنه بالإسلام كما أعلنه بنفسه. في الواقع، فإن محمداً ومن خلال هذا الاستخدام للكلمة، قد أعلن بأوضح طريقة ممكنة انضمامه إلى مذاهب الإصلاحيين. وعندما نجد، بالإضافة إلى هذا، تبنِّيه لتعاليمهم وإدراجها في القرآن، فلا يمكننا التردد في التسليم بأن عقائد الحنفاء تشكل واحدة من المصادر الرئيسية للإسلام.

من الطبيعي جداً أن تمارس الحنيفية مثل هذا التأثير على الإسلام الناشئ لأسباب قَبَليَّة أيضاً. إذ أن هؤلاء الأربعة رواد الإصلاح في مكة يرتبطون بمحمد، فجميعهم ينحدرون من جد مشترك واخد هو «لؤي». وعلاوة على ذلك، فإن عبيد الله هو ابن خالة محمد، وهذا الأخير تزوَّج أرملة هذا الإصلاحي، كما رأينا أن اثنين آخرين هما: ورقة وعثمان أبنا عم زوجته الأولى خديجة، وهو ما نعرفه من خلال سلسلة النسب التي قدَّمها ابن هِشام[١].

(١) سيرة الرسول، ص. ٦٣، ٧٦، إلى آخره.

خلاصة

ربما يظهر القارئ الذي تابعنا بصبر حتى الآن اعتراضاً في تحقيقاتنا عن أصل الإسلام. وربما قال: هذا كله مشابهٌ تماماً لمسرحية «هاملت» في جزء خروج أمير الدنمارك. فأنتَ أظهرت أن الإسلام كله مستعار من منظومات موجودة سابقاً، وبالتالي لم تترك أي شيء يمكن أن يعزى بشكل صحيح إلى محمد نفسه. أليس من الغريب أن نجد «محمدية بلا محمد؟» الجواب على هذا الاعتراض ليس بعيد الالتماس. فالعقيدة الإسلامية إلى اليوم، كما في الماضي، تظهر الدور المهم الذي يلعبه محمد في المنظومة الدينية الإسلامية، لأنه يتكون، كما يقول جيبون من «حقيقة أبدية وخيال ضروري»: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ولا نبالغ إذا قلنا إن مكانة محمد في عقول أتباعه كأهمية مكان يسوع المسيح عند المسيحيين. فسطوة نموذجه في الخير أو الشر تؤثر على العالم المحمدي كله حتى في أصغر الأمور، وثمة عدد قليل من الأشخاص الذين لعبوا دوراً في التاريخ الديني والأخلاقي والسياسي للجنس البشري يمكن أن نقول إنه أكثر أهمية من دور مؤسس الإسلام.

وكان من المستحيل بطبيعة الحال، ألا يكون لمحمد هذا الأثر القوي على الدين الذي أسسه، دون أن تنعكس فيه جوانب أساسية من شخصيته، فالبنَّاء بجمع مواده للبناء من أشياء عدة مختلفة، لكن طريقة

تنظيم هذه المواد وترتيبها تكشف عن مهارته. وتتجلى التصاميم الأولية للمهندس في هذا الصرح الذي شيَّد تجسيداً لفكرته. وبنفس الطريقة تماماً، وعلى الرغم من أننا رأينا أن محمد اقتبس الأفكار والأساطير، والطقوس الدينية من جهات عدة مختلفة، فقد اتخذ دين الإسلام، شكلاً خاصاً به، فهو يختلف في نواح معينة عن أي دين آخر عند المقارنة بينهما. إن جمال الأسلوب الأدبي في أجزاء كثيرة من القرآن، نال إعجاب الجميع، وهو يثبت بلاغة صاحبه بلا شك. قد لا يكون الافتقار إلى الترتيب والانسجام في التصميم نتيجة له، ولكن العمل ككل مرآة تعكس محدودية فكر محمد، ومقداراً ضئيلاً جداً من المعرفة الحقيقية والتعلم الذي يمتلكه، سذاجته غير محدودة وافتقاره لكل قدرة نقدية، والخلل الأخلاقي في شخصيته. عندما يدرس القرآن في السياق الزمني لتأليفه، فإنه سيظهر مقدار التغير التدريجي في السياسة التي تتطابق مع التحولات في موقف محمد وتوقعاته للمسائل الزمنية. في أجزاء معينة منه، حتى من قبل المفسرين المحمديين، وهو يشير بوضوح إلى الأحداث الهامة في حياة محمد الشخصية، والتي كان «الوحي» يشير إليها مباشرة في آيات معينة. ولشرح هذا سيكون كافياً للاستفسار أولا عن موقف محمد في ما يتعلق باستخدام السيف لنشر الإسلام، وثانياً في إحدى الحوادث المتعلقة بعلاقاته الزوجية.

من المعلوم أنه قبل هجرته من مكة ولجوئه إلى المدينة في عام ٦٢٢ ميلادي، لم يكن لمحمد سلطة دنيوية. وكان أتباعه في مكة نفسها محدودي العدد[١]، وبالتالي طلبوا الأمان في مناسبتين. الأولى في سنة

---

(١) بلغ إجمالي عدد الذين ذهبوا إلى الحبشة في الهجرة الثانية ١٠١، منهم ٨٣ من الرجال. (حياة محمد السير وليم موير، ص. ٨٤).

٦١٥ والأخرى في سنة ٦١٦ -بالهجرة إلى الحبشة. وبناء على ذلك، لم يرد في تلك الآيات والسور التي تكوَّنت قبل الهجرة، أي ذكر لوجوب حمل السلاح لنشر الدين، أو حتى للدفاع عن النفس. ولكن بعد الهجرة، عندما أصبح كثير من أهل المدينة «أنصاره» منح الأذن في البداية لـ «الصحابة» للقتال دفاعاً عن أنفسهم. ويلاحظ ابن هشام[1] أن هذا الإذن ظهر للمرة الأولى في هذه الآيات: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ....» (السورة الثانية والعشرون، الحج، ٣٩، ٤٠) وبعد فترة، عندما لاح النصر في معارك محمد في عدة حملات لنهب قوافل تابعة لقريش، تحوَّل هذا الإذن إلى فرض. ووفقاً لذلك نقرأ في السورة الثانية، (سورة البقرة، ٢١٦، ٢١٧): «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ...* يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ...».

هذه يعني أن المسلمين مدعوون للقتال، حتى خلال الوقت الذي كانت فيه الحرب محظورة وفق القانون غير المكتوب للعرب، وألا يسمحوا لأعدائهم بمنعهم من الدخول إلى مكة وحرمانهم زيارة الكعبة.
ثالثاً: في السنة السادسة من الهجرة، عندما تغلَّب المسلمون على بني قريضة وبعض القبائل اليهودية الأخرى، فرض الانخراط في الحرب المقدسة، أو الجهاد، ثمَّ أصبح هناك تشديد أكثر على هذه المسألة كما في السورة الخامسة، المائدة (٣٣): «إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ

(١) سيرة الرسول، المجلد.١، ص. ١٦٤، بناء على رواية عروة وغيره.

وَأَرْجُلُهُم مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

ومن الجدير بالملاحظة أن المفسرين يبيِّنون أن هذا الأمر يخص العقوبة التي يجب أن تطال المشركين «عبدة الأصنام»، ولا ينطبق على اليهود والمسيحيين. ولكن السلوك الذي يجب على المسلمين مراعاته تجاه «أهل الكتاب» جرى تحديده بعد بضع سنوات، وقبل وقت قصير من وفاة محمد، وتحديداً في السنة الحادية عشرة من الهجرة، ومن ثَمَّ تم الوصول إلى المرحلة الرابعة في السورة التاسعة (التوبة، ٩: ٥ و٢٩) -وهي آخر سورة نزلت-حيث أمرت المسلمين بمعاودة القتال بعد انتهاء الأشهر الأربعة الحرم من ذلك العام، ويرد الأمر في هذه الآيات على النحو التالي: «فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ[1] فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ...* قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ[2] عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ».

وهكذا فإن شريعة الله كما هو مبين في القرآن قد تمّ إبلاغها بما يتناسب مع نجاح حروب محمد. ولتحقيق ذلك فقد وضعت قاعدة عامة تقول إن بعض الآيات قد نسخت ما قبلها، أي ألغتها وأحلَّت غيرها محلها، استناداً على ما جاء في السورة الثانية (سورة البقرة،١٠٦): «مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»

(١) أي الصدقات المقررة التي يدفعها المسلمون: أي أصبحوا مسلمين.

(٢) ضريبة الجزية المفروضة على اليهود والمسيحيين.

ومنذ ذلك الوقت حتى الآن، لم يتمكن الفقهاء المحمديون من تحديد دقيق للآيات الناسخة أو المنسوخة (التي ألغي حكمها وحلت أخرى غيرها في الحكم) على الرغم من أنهم يفترضون أن هناك نحو ٢٢٥. آية منسوخة في القرآن.

وبنفس الطريقة يمكننا أن نتبع التغير في موقف محمد تجاه اليهود والمسيحيين منذ بداية سيرته، عندما كان يأمل في استمالتهم، إلى الوقت الذي واجه فيه خيبة الأمل تجاه هذا التوقع، فتحول عليهم بالسيف. ولكن علينا أن نتعلم الدرس نفسه من كل هذه المباحث، وهذه بالضبط هي الطريقة التي كيَّفَ بها محمد وحيه المزعوم مع ما يعتقد أنه بحاجة إليه في لحظة معينة.

وينطبق الشيء نفسه على ما نقرأه في سورة الأحزاب فيما يتعلق بالظروف التي تم فيها زواجه من «زينب» التي طلقها ابنه بالتبني «زيد» لأجله. هذا الموضوع غيو جدير بالاستفاضة في بحثه، ولكن إشارة إلى ما جاء في القرآن نفسه (السورة الثالثة والثلاثون، ٣٧) وما قاله بصدد هذه المسألة، إلى جانب الشروحات التبريرية التي يقدمها المفسِّرون والأحاديث، ستثبت أن شخصية محمد وأطوار نزعاته تركت بصماتها على القانون الأخلاقي للإسلام وعلى القرآن نفسه. إن الترخيص الممنوح له، وله وحده، في القرآن[1] بالزواج بأكثر من أربع زوجات وهو العدد الشرعي المسموح به لكل مسلم، هو دليل على الغرض نفسه، وهو ما يفسره حديث غير مستحسن للغاية يتضمن قولاً مأثوراً لعائشة في إشارة إلى خصوصياته.

وبالإضافة إلى كل ما جري النظر فيه، فمن الواضح أنه على الرغم

(١) السورة الثالثة والثلاثون، الأحزاب: ٤٩.

من أنّ محمداً أخذ الممارسات الدينية والمعتقدات والأساطير من مصادر مختلفة، لكنه استطاع الجمع بينها، سواء باتساق أو نفور، لتكوين دين الإسلام. وبعض الجوانب من هذه الاستعارات جيدة، فالإسلام يتضمن بعض الحقائق العظيمة، التي استعيرت من نظم دينية أخرى، وهذا بحدِّ ذاته كان كفيلاً باستمرار وجودها بين البشر. ولكن من المؤكد أنه لا يحتوي على مفهوم إيماني جديد وموحد، فنبرته العامة تختزل جميع المؤمنين في الطبيعة الجسدية والحسية لمؤسسه. استخدام التشبيه الشرقي ربما غير مناسب في الحديث بدقة عن دين محلي وشرقي كالدين المحمدي. وبالتالي يمكن مقارنة الإسلام بجدارة مع مقولة:

«إنها بحيرةُ القار حيثُ تلتهبُ سدوم»

فسدوم تستقبل مياه العديد من الجداول التي تتحد فيها وتتخذ شكل حوضها وهيئتها، لتتحول جميعها إلى بحر واحد من الموت واسع الانتشار، ينبعث من شواطئه الدخان الوبائي المدمر لجميع أشكال الحياة التي يطالها تأثيره الضار. هذا هو الإسلام. منشؤها من العديد من المصادر المختلفة والتقت فيه عناصر معينة من الحقيقة، ومن أكسب شكلها وهيئتها هو عقل محمد ونفسه وسجيته وطبيعته. ومن ثم فإن الخير في ذلك لا ينفع سوى في إدامة الشر الذي جعل الدين نقمة على البشر وليس نعمة، وأحاله إلى كراهية تحولت معه العديد من أخصب مناطق الأرض إلى صحارى حتى في أيامنا المعاصرة هذه، حيث دمرت أراض كثيرة وسفكت دماء بريئة، وتصدعت القيم الأخلاقية والفكرية والروحية لأية أمة بشرية رزحت تحت نير حديدها وعانت من سلطتها القاسية.

الفهرس

هذا الكتاب

هذا العمل الذي نقدّمه للدارس في علم الأديان المقارن هو خلاصة دراسة استغرقت العديد من السنوات لمختلف الأديان الشرقية القديمة والحديثة. ولن يكون التحقيق في المصادر التي انبثق منها الإسلام، ذا قيمة مهمة، ما لم يستند إلى دراسة خاصة ودقيقة وشاملة لمختلف الروايات في المدونات القديمة. وأعتقد أن هذا ما يمكنني أن أدعي أنني فعلتُهُ بأمانة. وثمة الكثير من الحقيقة في القول المأثور للفيلسوف الإغريقي ديموقريطس أن «لا شيء ينشأ من لا شيء» والإسلام ليس استثناء لهذه القاعدة بالتأكيد.

أن الدور المهم الذي لعبه هذا الدين إيجاباً أو سلباً في تاريخ الجنس البشري وتأثيراته الكبيرة التي لا تزال متواصلة في العديد من البلدان الشرقية يجعل التحقيق في أصله مهماً وذا فائدة للجميع، سواء من الناحية الدينية، أو التاريخية، أو من وجهة نظر فلسفية، أو لمجرد الرغبة في دراسة إحدى الحركات الأكثر أهمية في تاريخ الجنس البشري.

الغلاف : سكينة صلوّن



